شرح ثلاثة الأصول وأدلتها

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس الأول (١) إلى الدرس التاسع (٩)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٢/١٠ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

فبين أيدينا رسالة قيمة ومؤلَّفٌ نافع يحتاج إليه كل مسلم ، وهو في بيان الأصول الثلاثة؛ التي هي معرفة الله ، ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة دين الله –دين الإسلام– بالأدلة ، وهي التي قال صلى الله عليه وسلم عنها : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً)) ، وهي التي ندب عليه الصلاة والسلام أن تُقال كل مرة بعد سماع الآذان ؛ أن يقول : «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً» ، وهي الأصول التي يُسأل عنها الميت إذا أُدرج في القبر؛ يأتيه الملكان فيُجلسانه فيقولان : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فهذه رسالة أفردها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في بيان هذه الأصول الثلاثة وإيضاحها بالأدلة من كتاب الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهو رحمه الله جادَّته جادة السلف ، وطريقته طريقتهم ، وليس أحد من السلف يأتي للناس باعتقاد ينشئه ويخترعه بل الاعتقاد عندهم: «قال الله قال رسوله عليه الصلاة والسلام» ؛ ولهذا ما يذكره رحمه الله تعالى في رسالته هذه وفي كتابه التوحيد وفي غيره من كتبه كل ذلكم مبني على الدلائل البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وسنرى في هذا الكتاب القيم حُسن الاستدلال بكتاب الله جل وعلا وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وحُسن التعويل عليهما والرد إليهما في سائر أمور الدين ؛ ولهذا فإن هذا الكتاب كتابٌ ينبغي أن يحرص عليه كل مسلم مع نفسه أولاً قراءةً لهذا الكتاب وفهماً لمضامينه وتحقيقاً لغاياته ومقاصده ، وأن يسعى بعد ذلك جاهداً مع أهله وولده وقرابته نشرًا لهذا الخير وبيانًا لهذه الأصول العظيمة التي ستُسأل عنها أنت ، وسيُسأل عنها ولدك ، وستُسأل عنها أمك ، وسيُسأل عنها أخوك وقريبك ، كلٌ سيُسأل عنها إذا أُدرج في القبر ؛ فما أحرانا أن نتكاتف وأن نتعاون نصحًا لدين الله ولعباده بنشر هذه الأصول العظيمة وتلقينها للناس وتعليمهم إياها نصحاً لدين الله جل وعلا .

وقد كان أهل العلم وأئمة المساجد يعتنون كثيراً ببيان هذه الأصول ، ويجتهدون في تحفيظها للصغار والكبار بحيث تكون أصولاً محفوظة مضبوطةً مفهومةً لدى الناس ، وأن يكونوا كذلك محققين لها ، وقد قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى: «كان رحمه الله – يعني شيخ الإسلام – يلقن الطلبة والعامة هذه الأصول ليدْرسوها ويحفظوها ولتستقر في قلوبهم لكونها قاعدة في العقيدة» ؛ فهذه الأصول الثلاثة هي في الحقيقة قاعدة الإيمان

وأساس الملة وركيزة الدين التي عليها يُبنى ، وهي أساس الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، فلا تنال سعادة ولا تكون نجاة إلا بتحقيق هذه الأصول العظيمة ، وقد كان الإمام رحمه الله ناصحاً للناس نصحاً عظيماً بإفراده هذه الأصول الثلاثة بالبيان والإيضاح وجمع الدلائل عليها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لتكون سهلة التناول ، قريبة المأخذ ، واضحةً ، مقررةً بأدلتها وحججها من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، فهذا كله من نصح هذا الإمام رحمه الله لعباد الله .

وهذه الرسالة اعتنى بها أهل العلم كثيراً واجتهدوا في شرحها وبيان مقاصدها وتسهيلها للطلبة والعامة ، وكتبوا فيها رسائل عديدة في شرح هذه الأصول الثلاثة ، كما أنهم كذلك اعتنوا عنايةً كبيرة بتحفيظها للناشئة وللعامة ولعموم المسلمين ، وقد كان في بعض الأوقات يسأل إمام المسجد المصلين عنده عن هذه الأصول ، وكان العوام يعرفون هذه الأصول بـ «الدين» ، يقول بعضهم لبعض : "أقرأ علينا الدين" ، أو "سمّعنا الدين" ؛ فيقرأون هذه الأصول الثلاثة . ولقد حفظها عدد كبير من هؤلاء في صغره ، لُقنت له وهو صغير ، وكانت معه ثابتة في الكبر وفي هرمه وشيخوخته ، حتى إن بعض العوام نُقل أن خَرَفه كان في كبره في الأصول ؛ يخرِف ويتكلم فلا يأتي على لسانه إلا هذه الأصول الثلاثة ، وكان بعضهم أيضاً في شهوره الأخيرة ولحظاته الأخيرة تأتي على لسانه وهو قد حفظها صبياً يافعاً . وأذكر من ذلك على سبيل المثال: أن جدي رحمه الله تعالى –الشيخ حمد– وقد تُوفي عن عمرٍ يبلغ المئة –مئة عام– فأذكر قبل وفاته بأشهر كنت جالساً عنده فقال لي : "الطواغيت كثيرون –لا كثرهم الله– ورؤوسهم خمسة ؛ أولهم : إبليس عليه لعنة الله " وأخذ يعدد الطواغيت ، قال : "الخامس نسيته ، ذكرني الخامس" هذا قبل وفاته بأشهر قال : "ذكّرني الخامس؟" قلت له : "من عُبد من دون الله وهو راضٍ" قال : "إيه هذا طاغوت مدلدل" باللغة العامية ، الشيء المدلدل: يعني مكشوف واضح .

فكان الناس يعتنون جداً بهذه الأصول، ولهذا يؤسَف جداً لحال كثير من العوام أنه يكبر ويكبر ويقارب أن يفارق هذه الحياة وهو لا يدري ما هي الأصول ولم يعتنِ بها! لأنه لم يجد في مجتمعه وفي معلميه من يلقن هذه الأصول ؛ ولهذا تتأكد المسؤولية على طلاب العلم وحملة الدعوة وأنصار الدين أن ينصحوا لعباد الله تبارك وتعالى ولاسيما وبخاصة في هذه الأصول الثلاثة المباركة العظيمة التي جمعها الإمام رحمه الله تعالى في هذه الرسالة القيمة .

وأيضاً –أيها الأخوة– أقول: إن نعمة الله سبحانه وتعالى علينا جميعاً عظيمة ؛ أن جمعنا هذا الجمع ، ويسَّر لنا هذا المجلس لنشرع في مذاكرة هذه الأصول ومدارستها ، فاللهم وفِّقنا ، واكتب مجلسنا هذا في صالح أعمالنا ، وارزقنا فيه علماً نافعاً تهدينا به لكل خير ، وأن تصلح لنا شأننا كله . ونبدأ مستعينين بالله ، ذاكرين الله سبحانه وتعالى متوكلين عليه ، باسم الله ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الإمام الأواب ؛ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وقدَّس روحه وغفر له وللشارح والسامعين، قال في كتابه «الأصول الثلاثة» :

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اعلمْ –رحمكَ اللهُ– أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ؛ الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ. الثانيةُ: العملُ بهِ. الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ.الرابعةُ: الصبرُ علَى الأَذى فيهِ. والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] . **قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالَى: «لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ». وقال البخاريُّ رحمَهُ اللهُ: «بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ قولُه تعالَى:** ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩] ؛ **فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ»** .

****

بدأ المصنف رحمه الله تعالى بـ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» ؛ وهذه الكلمة كلمة استعانة بالله عز وجل وطلب عون منه جل وعلا يُشرع للمسلم أن يأتي بها في بدأ أعماله ، إن كان أكلاً أو شرباً أو دخولاً أو كتابةً أو قراءةً أو نحو ذلك ، وذلك تيمناً بذكر اسم الله جل وعلا وطلباً لمدِّه وعونه وتوفيقه . وهو رحمه الله في صنيعه هذا مؤتسٍ بكتاب الله جل وعلا ؛ حيث بُدأ بالبسملة وبُدأت سوره بالبسملة ، وتأسياً بالنبي عليه الصلاة والسلام في مكاتباته ورسائله يبدأ ذلك بالبسملة ، وهي – كما قدمت – كلمة استعانة .

والجار والمجرور في قوله : «بسم الله» متعلق بفعلٍ محذوف مقدَّر ، تقديره : أكتب ، ويحسن أن يكون تقديره متأخراً ليكون بذلك مفيداً الحصر ؛ أي به لا بأحد سواه جل وعلا ، لأن تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، وتقدير ذلك : باسم الله أكتب ؛ أي باسمه وحده جل وعلا . والباء في «بسم الله» باء الاستعانة ؛ أي أكتب مستمداً عوني فيما أكتبه من الله تبارك وتعالى ، وأنا في ذلك متيمن بذكر اسمه جل وعز .

و «الله» هذا اسم لله جل وعلا لا يُطلق إلا عليه ، وهو دالٌ على ألوهيته وجلاله وكماله وعظمته وأنه تبارك وتعالى مستحق للعبادة دون سواه ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «الله : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» ؛ فأشار رضي الله عنه في بيانه لمعنى هذا الاسم إلى جانبين يدل عليهما :

- الأول : ألوهية الله ؛ وهي كماله وجلاله وكبرياؤه وعظمته واتصافه بصفات الكمال ونعوت الجلال وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى .
- والجانب الآخر: العبودية ؛ التي هي فعل العبد ، وهي من مقتضيات إيمان العبد بألوهية الله ؛ بأن يذل ويخضع له وينكسر لجنابه سبحانه ، وأن يفرده وحده بالذل ، وأن يخلص الدين له ، وأن لا يجعل معه شريكاً في العبادة.

و «الرحمن الرحيم» ؛ هذان اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفة لله ، وأن رحمته سبحانه وتعالى واسعة ، وأنها كذلك واصلة لعباده ؛ فالاسمان يدلان على ثبوت الرحمة صفةً لله جل وعلا .

«الرحمن» يدل على سعة الرحمة ، لأن هذا الوزن "فعلان" يدل على السعة ، فهو يدل على سعة رحمة الله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] ، فهو يدل على سعة الرحمة .

و «الرحيم» يدل أن هذه الرحمة رحمة واصلة للعباد ، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] ، ولم يأتِ "وكان بالمؤمنين رحماناً" ؛ لأن «الرحيم» اسم يدل على وصول هذه الرحمة للعباد . فذُكر في هذه البسملة هذه الأسماء العظيمة الجليلة لله تبارك وتعالى ؛ «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ثم قال : ((**اعلمْ رحمكَ اللهُ**)) ؛ وسيأتي أيضاً بعد قليل قوله أيضاً : ((اعلمْ رحمكَ اللهُ)) ، ثم سيأتي أيضاً: ((اعلم أرشدك الله لطاعته)) ثلاثة مواضع ، ثم بعد ذلك تبدأ رسالة الأصول الثلاثة ؛ من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

ولهذا ينبغي أن نعلم أن الأصول الثلاثة صُدرت بهذه الرسائل الثلاثة العظيمة للإمام رحمه الله ، وكل رسالة منها مصدرة بقوله : «اعلم» والدعاء ؛ الرسالتان الأوليان فيهما الدعاء بالرحمة ، والأخيرة فيها الدعاء بأن يرشدك الله إلى طاعته .

- ذكر في الرسالة الأولى مسائل أربعة عظيمة يحتاج إليها كل مسلم ومسلمة ، ويجب تعلّمها على كل مسلم ومسلمة؛ وهي العلم والعمل والدعوة والصبر ، وقد اجتمعت هذه المسائل في سورة العصر كما سيأتي بيان ذلك.
- والرسالة الثانية مشتملة على بيان التوحيد بنوعيه العلمي والعملي ، ومسألة الولاء والبراء .
- والرسالة الثالثة مشتملة على ذكر الحنيفية ملة إبراهيم إمام الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه .

بعد هذه الرسائل تأتي الأصول الثلاثة ، وفي الرسالة الأولى من هذه الرسائل إشارة إلى هذه الأصول الثلاثة ؛ عندما ذكر المسألة الأولى وهي العلم قال : ((وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ)) وسيأتي ذكر النكتة في ذلك ، لمَ خصّ رحمه الله هذه الأصول الثلاثة بالذكر هنا ؟ .

قوله رحمه الله تعالى : ((**اعلمْ رحمكَ اللهُ**)) ؛ بدأ الرسالة بهذا «اعلمْ رحمكَ اللهُ» ، بدأها رحمه الله تعالى بتنبيه ودعاء ؛ تنبيه يُراد به استدعاء اهتمام القارئ وانتباهه وحُسن استفادته ، لأن ما سيُلقى عليه ويقرر له أصول عظام ومسائل جليلة تحتاج منه إلى حسن إصغاء وحسن انتباه وحسن استفادة ، ولهذا جاء بهذه الكلمة قال : «اعلمْ» مصدِّراً الرسالة بها ، وهذا الأسلوب نافع جداً في التعليم وهو مستمد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ فكثيراً ما يأتي في القرآن آيات يُنبه فيها على أمور عظام ومسائل جليلة ويصدَّر ذلك بـ«اعلم» كقوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] ، وقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد:٢٠]، وفي القرآن

آيات تزيد على الثلاثين يُبدأ صدر الآية أو في أثناءها بقوله : «اعلم» أو «اعلموا» ، وهكذا في سنة النبي عليه الصلاة والسلام يأتي عنه أحاديث عديدة يصدِّر فيها كلامه وما أراد صلوات الله وسلامه عليه بيانه من أمور علمية أو عملية بقوله : ((اعلم)) أو ((اعلموا)) ، ومن ذلكم قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما : ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، كذلك قوله عليه الصلاة والسلام كما في مسند الإمام أحمد ، قوله لأبي أمامة : ((اعلم أنك لا تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة وحط عنك خطيئة)) ، والأحاديث عنه في هذا كثيرة . وأيضاً هو أسلوبٌ دارج في تقريرات أهل العلم وفي مؤلفاتهم .

وقوله : ((**رحمكَ اللهُ**)) فيه جمع بين التنبيه والدعاء ، وهذه من علامات النصح ؛ من علامات النصح أن يبيِّن الناصح للمنصوح الخير وأن يرشده إليه برفق وحُسن بيان وتمام إيضاح ، وأن يدعو له في نفس الوقت بالخير ؛ فعلامة النصح الدلالة إلى الخير والدعاء بالخير ، يدله إلى الخير ويدعو من يدله إلى الخير أن يوفَّق له وأن يُسدد وأن يُعان .

قال : ((**اعلمْ رحمكَ اللهُ**)) ؛ الدعاء بالرحمة تارة يأتي مضموماً إليه الدعاء بالمغفرة ، وتارة يأتي مفرداً كما هو عند المصنف رحمه الله ؛ فإذا ضُم إليه الدعاء بالمغفرة فإن الدعاء بالمغفرة يتناول ما سلف من الأزمان وما مضى من الأوقات ، والمعنى : أي غفر الله لك ما سلف منك من خطأ أو زلل أو تقصير أو ذنب . والرحمة : التوفيق فيما سيأتي بالحفظ ، والإعانة على الطاعة ، والوقاية من الزلل ؛ فتكون المغفرة متناولة الماضي ، والرحمة متناولة للآتي من الأزمان . وإذا أُفرد أحدهما بالذكر تناول الآخر ؛ فقوله هنا «رحمك الله» يتناول رحمك بأن غفر لك ذنوبك وستر لك عيوبك وأقالك عثرتك ، وأيضاً يتناول وفقك وسددك وأعانك فيما تستقبل من أيام حياتك ؛ التوفيق للهداية والإعانة للخير .

قال : ((**أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ**)) ؛ يجب علينا : أي نحن معاشر المكلفين ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً ، يجب علينا أي وجوباً عينياً –كما سيذكره رحمه الله– هو من الواجب العيني على كل مكلف ، أي يلزم كل مكلف أن يتعلمه ذكراً كان أو أنثى ، صغيراً كان أو كبيراً ، الكل يلزمهم تعلم هذه المسائل ، ويجب عليهم وجوباً عينياً تعلمها .

وهنا ينبغي أن يُعلم أن فرائض الدين وواجباته منها ما هو فرض عين ، ومنها ما هو فرض كفاية . وفرض العين هو الذي يجب على كل مكلف ، وأما فروض الكفاية فهي التي إذا قام بها بعض المكلفين سقط الإثم عن الباقين، فيكون في تعلم بعض المكلفين لها كفاية ، أما فروض الأعيان لا يكفي أن يتعلمها بعض المكلفين ، بل يلزم كل مكلف بعينه فرداً فرداً من أفراد المكلفين أن يتعلموها .

قال : ((**أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ**)) ؛ وقوله «تَعَلُّمُ أربعِ» أي فهمها ومعرفتها وضبطها معرفةً صحيحة مستمدةٍ من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله «**أربع مسائل**» هذا معدودٌ في حسن البيان وضبط العلم ؛ أن تُذكر الأعداد قبل ذكر المعدود ليكون ذلك أضبط لطالب العلم ، وهذا يأتي كثيراً في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث من كن فيه)) ، ((آية المنافق ثلاث)) ، ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً)) ، ((اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة)) وهكذا أحاديث كثيرة يذكر عليه الصلاة والسلام في صدرها العدد ثم بعد ذلك يذكر المعدود ؛ هذا أضبط لطالب العلم ، لأنه إذا فاته شيء من هذه أو نسي يذكر أنه بقي عليه واحد ، لأنه يعرف أنها أربعة فهذا أضبط في العلم وأمكن في الفائدة .

وقوله رحمه الله «**مسائل**» ؛ الدين مسائل ودلائل ، والمسائل: هي الأحكام والشرائع والأوامر والنواهي المستفادة من دلائل كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، والدلائل: هي المصدر والمنبع لهذه المسائل .

قال : ((**الأُولى: العِلْمُ**)) ؛ والمراد بالعلم : معرفة الحق والهدى . وهو إذا أطلق في نصوص الكتاب والسنة ومُدح أهله وأثني عليهم فالمراد به العلم المستمد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ وهو علم الشريعة المستمد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . فالآيات التي فيها مدح العلم ومدح العلماء ، والأحاديث التي فيها مدح العلم ومدح العلماء المراد بها علم الشريعة؛ «قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم» . وعلم الشريعة كما سبق ينقسم إلى قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، هناك من علوم الشريعة شيء كثير لا يلزم كل فرد من المكلفين أن يتعلمه ، بل إذا تعلمه البعض كفوا الباقين هذا الأمر . وفرض العين: هو العلم الذي لا يسع أي فرد من أفراد المكلفين جهله ؛ بمعنى أنه يلزم كل مكلف أن يتعلمه ، ومن ذلكم هذه المسائل التي ستبيَّن وتوضح وتقرر بأدلتها من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا نُقل عن الإمام أحمد رحمه الله قال : «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه»؛ وهذا ضابط دقيق في معرفة العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف ، قال: «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه» ، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولهذا معرفة التوحيد الذي قيام الدين عليه فرض عين ، معرفة الصلاة بأركانها وواجباتها وشروطها فرض عين ، معرفة الحج أركانه وواجباته وشروطه فرض عين ، وهكذا في واجبات الدين و فرائض الإسلام التي يؤمر بها كل مكلف تعلمها فرض عين .

قال : «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه» قيل له : مثل أي شيء ؟ قال : «الذي لا يسعه جهله» ؛ صلاته وصيامه ونحو ذلك فهذه فرائض عينية تلزم جميع المكلفين .

ولهذا قوله : ((**الأولى : العلم**)) ؛ المراد بالعلم هنا: العلم الواجب الذي هو فرض عين ، لأنه قال : ((يجب علينا)) وذكر العلم ؛ فإذاً المراد بالعلم هنا العلم العيني الذي هو فرض على كل مكلف ، فهذا هو الذي يجب

على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمه ، أما بقية أمور الشريعة -فروضها الكفائية- هذه لا تجب على جميع المكلفين، بل إذا قام بها البعض كفوا في ذلك وسدوا الباب وحققوا المقصود والمراد .

قال : ((**الأُولى: العِلْمُ**)) قال : ((**وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ خصّ رحمه الله هذه الأصول الثلاثة بالذكر هنا لأنها الأصول التي يقوم عليها الدين ، فهي للدين بمثابة الأساس للبنيان والأصول للأشجار ، فكما أن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها ، والبنيان لا يقوم إلا على عماده وأساسه ، فكذلك الدين لا يقوم إلا على هذه الأصول ؛ معرفة الله وهو المقصود سبحانه وتعالى ، ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم وهو الواسطة بين الله سبحانه وتعالى وبين العباد في إبلاغ شرعه وبيان دينه ، ودين الإسلام لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى الله؛ فلا ينال أحد رضا الله ولا يفوز بثوابه ولا ينجو من عقابه إلا بالإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩].

فالإسلام هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله تبارك تعالى ، وما سواه من الطرق لا توصل إلا إلى سخط الله ، فالله عز وجل سدّ كل طريق إلا الإسلام ؛ فهو دين الله عز وجل الذي لا يقبل ديناً سواه ، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] ؛ ولهذا جاء في المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب المفتحة ستور مرخاة ، ومنادٍ ينادي من أول الصراط : يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا ، ومنادٍ ينادي من جوف الصراط : يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)) ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((أما الصراط فهو الإسلام ، وأما السوران فهما حدود الله ، وأما الأبواب المفتحة التي عليها ستور مرخاة فمحارم الله ، وأما الداعي الذي يدعو من أول الصراط فهو كتاب الله ، وأما الداعي الذي يدعو من جوف الصراط فهو واعظ الله في قلب كل مسلم)) . فالإسلام هو الصراط الوحيد والجادة المستقيمة التي توصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى والجنة ، وفي الدعاء الذي هو واجبٌ على كل مسلم أن يكرره في يومه وليلته سبع عشرة مرة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] أي صراط الإسلام دين الله الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لعباده ، ولا يقبل منهم ديناً سواه ؛ فالإسلام هو دين الله .

قال : ((**بالأدلةِ**)) ؛ قوله : «بالأدلةِ» يرجع إلى الثلاث ؛ أن تعرف الله ، وأن تعرف النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن تعرف الإسلام ؛ بأن تكون هذه المعرفة مبينة على الدليل ، والدليل : قال الله قال رسوله صلى الله عليه

وسلم، العلم : قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا أن تكون هذه المعرفة مبينة على الهوى ، أو على الرأي ، أو على الذوق ، أو على المنامات ، أو على التجارب ، أو على القصص ، أو غير ذلك مما جُعل لدى كثيراً من الناس مصدراً للاستدلال . فمعرفة هذه لابد أن تكون بالأدلة أي المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ومن لم يعتصم بالكتاب والسنة ضل ، ومن رام الوصول من غير طريقهما زل ، كما قيل : «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول!! صلى الله عليه وسلم» ؛ أي أن هذا محال ، لا يمكن ؛ فلا يمكن أن تتحقق للعبد معرفة صحيحة بالله وبنبيه عليه الصلاة والسلام وبالدين –دين الإسلام– إلا بالدليل وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ؛ هذه كلمة كان يكررها ابن تيمية رحمه الله كثيراً : « من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام» .

وقوله «ضل السبيل» يدل عليه قول الله تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] ، مفهوم المخالفة: أن من لم يتبع هدى الله ووحيه فإنه يضل ، قال عليه الصلاة والسلام : ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ؛ كتاب الله وسنتي)) ، والشواهد على هذا كثيرة .

ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يعتني بهذه الأصول الثلاثة عناية دقيقة ؛ معرفة الله ، معرفة النبي عليه الصلاة والسلام ، معرفة دين الإسلام ؛ ينبغي على كل مسلم أن يعرفها معرفة دقيقة ، وأن يدع طرائق الجاهلين وسبل المضلين ، وكم أضلوا كثيراً !إما بحكايات ، أو بمنامات ، أو بتجارب ، أو بقصص ، أو بأشياء من هذا القبيل ، كم أضلوا كثيراً من العوام وأبعدوهم عن دين الله تبارك وتعالى وعن الجادة السوية . ولهذا تجد الشخص أحياناً يتكلم عن مثل هذه المسائل ولا يذكر آية ولا يذكر حديثاً بل يذكر قصص ويذكر حكايات ويذكر منامات وهلم جرا ، وكم أضلوا من العوام بمثل هذه الطريقة .

ولهذا ينبغي للعامي أن يكون فطن ؛ دين الله ليس تجارب الأشخاص ، دين الله عز وجل ليس آراء الناس ، دين الله جل وعلا ليس اختراع مخترع ، دين الله سبحانه وتعالى ليس ذوق متذوق ؛ دين الله جل وعلا وحي من الله منزَّل ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] ، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ [ق:٤٥] ، دين الله جل وعلا وحي منزل من رب العالمين ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] ، قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] .

فلهذا ينبغي للعامي والمسلم عموماً أن يكون فطناً في هذا الباب ، دين الله لابد فيه من الدليل ، والدليل قال الله قال رسوله عليه الصلاة والسلام . وهذه مسألة واضحة مثل الشمس ، فإذا قال لك قائل : "اعتقد كذا لأني

رأيت في المنام كذا وكذا" أو قال لك : جربنا ، أو حكى لك في ذلك قصة أو أو ..الخ ، كل ذلك ليس مصدراً للاستدلال وليس طريقا يُستمد منه الدين والاعتقاد ، الدين : قال الله قال رسوله . ولهذا جادة السلف وطريقتهم ماضية على ذلك من أول الزمان إلى زماننا هذا إلى أن يرث الله الأرض ، وهذه طريقة أهل الحق والهدى ، لا يأتي أحد منهم بعقيدة ينشئها من نفسه أو يخترعها أو يخترعها له أشياخه ، بل دين الله يستمد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ولهذا ابن تيمية رحمه الله تعالى قال في هذا المقام كلمة عظيمة ، قال : «الاعتقاد ليس لي ولا لمن هو أكبر مني ؛ الاعتقاد لله وللرسول عليه الصلاة والسلام » ؛ الاعتقاد ما جاء في القرآن والصحيحين والسنن والأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا يلزم كل أحد يقرر عقيدة أن يبنيها على الدليل ؛ يقول : نعتقد كذا لقول الله تعالى كذا ، ونعتقد كذا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؛ وهذه جادة أهل العلم ، أما المصادر التي جُعلت للاستدلال فهذه مصادر عند أهل الأهواء ، وانتبه لقول الله سبحانه وتعالى في مقام التحذير من الشرك ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:١٩-٢٣] ؛ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وهذه طريقة كل مبطل وكل صاحب ضلال ، فهو في ضلاله إما أن يكون متبعاً ظنوناً وأوهاماً وتخرصاتٍ يظنها علماً ، أو يكون متبعاً هوى نفسه . قال : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ ؛ الهدى جاء من الله ونزل من رب العالمين فلِمَ يتشاغل الناس بظنون وأهواء وبينهم وحي الله تبارك وتعالى وتنزيله سبحانه ؟! وانتبه جيداً لقوله تعالى : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ، فكل عقيدة بين الناس لم ينزل بها سلطان -أي لم ينزل بها حجة وبرهان من الله جل وعلا- فهي مردودة وباطلة وغير مقبولة ، لأنه لا يُقبل من أمور الدين إلا ما كان نزل به سلطان ؛ أي حجة ، والحجة سميت سلطاناً لأنها تستولي على القلوب وتتسلط على القلوب وتتمكن من القلوب ، ولا تتمكن القلوب من ردِّها لقوتها قال : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .

الشاهد -معاشر الأخوة- أن هذه الأصول الثلاثة ينبغي على كل مسلم أن يعتني بمعرفتها بالدليل ، والدليل : قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الرسالة سترى أدلة هذه الأصول من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . والمؤلف رحمه الله ليس له في هذا الكتاب إلا الجمع والترتيب والإيضاح والبيان ، وإلا الكتاب كله أدلة وسترى ذلك ؛ أدلة من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا هو الدين ؛ دين الله هذا هو قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم ، عندما تُعقد مقارنة بين مثل هذه الكتب وكتب أهل الباطل يجد

الإنسان الفرق الشاسع والبون الواسع بين طريقة أهل الحق وطرائق المبطلين ، والله تعالى يقول : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[الرعد:١٩] ، ويقول : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك:٢٢] ، ويقول جل وعلا : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩] .

قال : ((**الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ «**معرفة الله**» ؛ المقام هنا يتناول جانبي التوحيد العلمي والعملي ؛ بأن يعرف المسلم الله بأنه جل وعلا وحده الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر لهذا الكون لا شريك له ، وأنه له الأسماء الحسنى والصفات العلى لا نظير له ولا مثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] ، وأن يعرف الله بأنه سبحانه وتعالى هو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وأنه جل وعلا وحده هو الذي يستحق العبادة وأن يُفرد بالذل والخضوع والانكسار ، وأن لا يُجعل معه شريك في شيء من خصائصه أو حقوقه جل وعلا على عباده ، وسيأتي لهذا تفصيلٌ وبيانٌ عند المصنف رحمه الله تعالى .

و «**ومعرفةُ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم**» بأنه مرسل من الله جل وعلا بالهدى والحق ، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنه بلَّغ البلاغ المبين ، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دلّ الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه ، ولم يمت إلا بعد أن أنزل الله عز وجل في ذلك تنصيصاً وتبييناً قوله سبحانه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

ومعرفة النبي عليه الصلاة والسلام : تكون بمعرفته بتكميله مقام العبودية وتتميمه دين الله عز وجل ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه على خلق عظيم ؛ أي على دين كامل ، وأنه رسول الله وخاتم النبيين ، وأنه بلغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه ، وأن الدين هو ما جاء عنه ، وأن يطاع عليه الصلاة والسلام فيما أمر وأن يُنتهى عما نهى عنه وزجر ، وأن لا يُعبد الله إلا بما جاء عنه عليه الصلاة والسلام ، وان يُصدَّق في كل أخباره صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦] .

فالشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام معرفته واجبة على كل مسلم ، ومن لم يعرف النبي عليه الصلاة والسلام فمن أين له أن يعرف الدين ؟ وهو عليه الصلاة والسلام الطريق والواسطة لمعرفة دين الله ، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى في عباده ابتلاءً وامتحاناً أنه لم ينزِّل الدين وحياً على كل العباد فرداً فرداً ، بل اختص من العباد

صفوتهم واجتبى منهم خيارهم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] ؛ فاجتبى صفوة العباد فأنزل عليهم وحيه ، وبلَّغوا ما أوحي إليهم بلاغاً تاماً وافياً لا نقص فيه ، فدين الله جل وعلا لا يُعرف إلا من طريق الرسل ، وقد ختمهم الله جل وعلا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، والرسول مهمته محددة ؛ وهي إبلاغ كلام المرسِل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور:٥٤] ، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام الدين كاملاً ، ومهمة أتباع الرسول فعل ما بلغهم واتباعه فيما جاء عنه ، «من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم» ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] هذه مهمة العبد ؛ أن يسلِّم لله تبارك وتعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا فيما يتعلق بمعرفة الرسول – عليه الصلاة والسلام ، وسيأتي عند المصنف ذكر جوانب مهمة وعظيمة في هذا الباب ؛ باب معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام .

«**ومعرفةُ دينِ الإسلامِ**» ؛ وهذه أيضاً سيأتي فيها بياناً وبسطاً وإيضاحاً وتقريراً وذكراً للدلائل عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**الثانيةُ**)) أي من المسائل الأربع ((**العملُ بهِ**)) أي بالعلم ، وهذه ثمرة العلم ومقصود العلم،، مقصود العلم: العمل ، وإلا يكون العلم حجةً على الإنسان . فمقصود العلم : العمل ؛ أن يعمل بما علِم ، لا أن يحفظ نصوصاً ويعرف أحكاماً بل مقصود العلم العمل ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : «يهتف بالعلم العمل ؛ فإن أجابه وإلا ارتحل» . فالمسألة الثانية العمل به ؛ أي بالعلم الذي تعلمه المسلم مستمداً له من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وبعض أهل العلم يضرب لهذا المقام –مقام العلم والعمل– بمثال ؛ وهو أن العلم وهو وحي الله مثله مثل الماء ومثل المطر ، والعمل مثله مثل النبات والشجر ، والنبات والأشجار مادتها التي تغذيها هي الماء ، والعمل بدين الله تبارك وتعالى مادته التي تغذيه وحي الله جل وعلا ؛ ولهذا كلما عظم حظ الإنسان من العلم مع النية الصادقة والقصد الحسن تصلح أعماله ، لأن العلم النافع مع حُسن القصد يثمر العمل الصالح ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧] أي كما أن الأرض تحيا بالماء فالقلوب والأفئدة تحيا بالعلوم النافعة المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا جاءت النصوص المتضافرة والأدلة المتكاثرة في الحث على العلم والترغيب فيه ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((من يرد الله به خيراً يفقه في الدين)) ، قال : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ؛ وذلك لأن العلم يثمر العمل ، والعمل يثمر دخول الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢] .

قال : ((**الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ**)) ؛ المسألتان الأولى والثانية تتعلق بالإنسان خاصته ؛ أن يتعلم ويعمل ، فيصلح هو في نفسه بالهدى الذي هو العلم ، والعمل الذي هو دين الحق ، كما قال الله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٨] ؛ فالهدى: هو العلم ، ودين الحق: هو العمل ؛ فإذا صلح العبد بالهدى ودين الحق يجتهد في أن يسعى في إصلاح الآخرين ، وتعدية هذا الخير الذي وصل إليه إلى غيره ؛ فيكون هادياً ناصحاً معلماً بعد أن وفقه الله لأن اهتدى في نفسه وصلح في نفسه .

فهذه المسألة الثالثة ((**الدعوةُ إليهِ**)) أي إلى العلم والعمل ، والله يقول : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل:١٢٥] ، ويقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣] ، ويقول : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] ؛ فيعلِّم الإنسان الخير الذي تعلمه وعرفه وفهمه يعلِّمه الآخرين لينتشر دين الله عز وجل بين الناس.

قال : ((الدعوةُ إليهِ)) أي إلى دين الله جل وعلا .

ولاحظ هنا ذِكره للدعوة بعد العلم والعمل ؛ وهذا يستفاد منه: أن الدعوة لا تكون إلا بذلك ، أما من لا علم عنده كيف يدعو ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه ، ومن لا يعمل كيف يدعو إلى شيء لا يعمله هو ، بل ينبغي أن يصلح نفسه ثم يعدي هذا الخير إلى الغير.

قال : ((**الرابعةُ: الصبرُ علَى الأَذى فيهِ**)) ؛ أي الأذى في هذا الطريق ؛طريق الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، ومن يدعو إلى الله جل وعلا قد لا يسلم ، لم يسلم الأنبياء ، ولم يسلم خاتم الأنبياء عليهم وعليه صلوات الله وسلامه ، ولم يسلم الصحابة والعلماء والأئمة لم يسلموا من الأذى ، ولهذا يقال : طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود والزهور، بل يتعرض الإنسان للأذى ، لأن الداعي إلى الله سبحانه وتعالى لا يتعامل مع صنف واحد من الناس بل يتعامل مع أصناف الناس ؛ فهذا الخلوق ، وهذا البذيء ، وهذا السيئ ، وهذا الغليظ ..الخ ، يتعامل مع أصناف الناس ؛ ولهذا لابد أن يتحلى بالصبر –أي على الأذى – ، وأيضاً بالصبر على الدعوة ؛ قد يدعو شخصاً أو أشخاصاً مرة أو مرتين أو أكثر أو أقل فلا يحصّل فائدة أو لا يحصل استجابة ، فيصبر ويمضي مستمراً بالدعوة وتكرار النصيحة وتوالي البيان لعل الله سبحانه وتعالى يهدي المنصوح .

والصبر خلق النبيين كما قال الله جل وعلا : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥] ، وهو دأب الصالحين ، وهو خُلق عظيم يحتاج إليه المسلم في دينه كله ؛ في صلاتك وصيامك وجميع عباداتك تحتاج إلى الصبر، وفي بُعدك عن الحرام وعما نهى الله عنه تحتاج إلى الصبر ، وفي المصائب والآلام تحتاج إلى الصبر ، فالصبر خلق عظيم يحتاج إليه المسلم في أموره كلها ، والله يقول : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥] ، قال : ((والصبرُ علَى الأَذى فيهِ)) .

قال : ((**والدليلُ قولُه تعالَى**))؛ انتبه لطريقة الشيخ في كتابه كله؛ كلما يذكر مسألة يتبعها بقوله : ((والدليلُ قولُه تعالَى)) ، أو : ((والدليل قوله صلى الله عليه وسلم)) ، لا ترى في الكتاب كله غير ذلك ، أما كتب أهل الباطل فالطريقة مختلفة عن هذه تماماً ؛ إذا قال الدليل أو إذا استدل تجده يذكر أموراً أخرى غير القرآن والحديث ، إما أن يحكي تجربة ، أو يحكي مناماً ، أو يتحدث عن ذوقه هو ، أو ذوق أحد مشائخه أو.. أو.... إلى غير ذلك مما هو كثير في كتب أهل الباطل ، والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة في كتب المضلين ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ؛ كان يخاف على أمته عليه الصلاة والسلام منهم خوفاً عظيماً لشدة خطورتهم وضررهم على الناس ، ولعظم صدهم عن دين الله تبارك وتعالى .

قال : ((**والدليلُ قولُه تعالَى : بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**)) ، ثم نقل كلمة عظيمة عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في بيان مكانة هذه السورة وعظيم شأنها .

ونقف إلى هذا الحد ، ويكون الكلام غداً بإذن الله تبارك وتعالى عن هذه السورة العظيمة وعن مضامينها الجليلة .

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا جميعاً بما علّمنا ، وأن يمنَّ علينا بالعلم النافع والعمل الصالح ، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ، وأن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، والموت راحة لنا من كل شر ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنه تبارك وتعالى غفور رحيم .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الإسلام الإمام الأوّاب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة»:

الرابعة : الصبر على الأذى فيه والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ قالَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالَى: لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ. وقال البخاريُّ رحِمَهُ اللهُ: بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩] فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ .

****

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى ذكر المسائل الأربعة وهي : العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر ؛ ذكر الدليل على وجوبها ، لأنه قال في تمهيده للكلام على هذه المسائل الأربعة قرر أنها واجبة على كل مسلم وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم هذه المسائل الأربعة ، فإذا قيل ما الدليل على ذلك ؟ ذكر الدليل رحمه الله تعالى ، وعرفنا أن هذه الطريقة هي طريقة أهل السنة والجماعة ؛ يذكرون القول مضموماً إليه دليله من كلام الله أو كلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

وعرفنا أن دين الله جل وعلا في باب العقائد والعبادات والأحكام هو مسائل ودلائل ، والمسائل: إما مسائل تتعلق بالجانب العلمي وهو جانب الاعتقاد ، أو مسائل تتعلق بالجانب العملي وهو جانب العبادة والطاعة ، فهذا دين الله ، دين الله عز وجل مسائل ودلائل : أي دلائل ؛ أي دلائل تبنى عليها هذه المسائل وتستند إليها هذه المسائل ، ولا دين إلا بهذه الطريقة ، كل مسألة من مسائل الدين يجب أن تكون على هذه الطريقة ؛ يقال : "نعتقد كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله صلى الله عليه وسلم كذا" ، "نعمل كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله صلى الله عليه وسلم كذا" ، "نذكر الله تعالى بكذا لقوله تعالى كذا" ، ويمضي الإنسان في جميع مسائل الدين على هذه الطريقة ؛ المسألة مع دليلها ، وهذا معنى قول المصنف رحمه الله ((بالأدلة)) ؛ أي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة ، فهذا شأن الدين مسائل علمية وعملية ودلائلها من كلام الله ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسألة يؤتى بها لا دليل عليها من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام فهي مردودة على صاحبها أيًّا كان ، ولهذا قال مالك رحمه الله : «كلٌ يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر» يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «كلٌ يُستدل لقوله لا به

إلا الله ورسوله» أي يستدل بقولهما لا لقولهما ، لأن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام هو الدليل ، وكل قائل أيًّا كان يُستدل لقوله ؛ أي يُطلب الدليل لقوله ، فإن كان على قوله دليل من الكتاب والسنة قُبِل ، وإن لم يكن على قوله دليل من الكتاب والسنة رُد . ولهذا مضى أهل السنة والجماعة في هذه الجادة ؛ ذكر المسألة مضموماً إليها دليلها .

فذكر هنا رحمه الله أن كل مسلم يجب عليه أن يتعلم مسائل أربعة؛ ذكَرها ثم قال : ((**والدَّلِيلُ قولُه تعالَى**)) ؛ أي دليل هذه المسائل الأربعة وأنها واجبة على كل مسلم ((**قولُه تعالَى:** ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾)) هذا هو الدليل ، الدليل على هذه المسائل الأربع هي سورة العصر كاملة بآياتها الثلاث ، فهذه السورة دليل على وجوب هذه المسائل الأربعة .

ودلالة الآية على وجوب هذه المسائل الأربعة ظاهرة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكم على كل إنسان بأنه خاسر وأنه في خسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات وتحلى بهذه النعوت فإنه بذلك يكون سالماً من الخسران . وهذا فيه دلالة واضحة أن هذه المسائل واجبة على كل مسلم ، ومن لم يكن متصفاً بهذه المسائل الأربعة فإنه خاسر ، حكم الله سبحانه وتعالى عليه بأنه في خسر .

وبدأ الله جل وعلا ذكر هذا الأمر وهذه الحقيقة العظيمة بدأها بالقسم بقوله جل وعلا : ﴿ **وَالْعَصْرِ** ﴾ ؛ يقسم جل وعلا على ذلك بالعصر ، والعصر من جملة مخلوقات الله جل وعلا ، فالله خلق الليل والنهار والسماء والجبال والأنهار والشمس والقمر ، فالعصر من جملة مخلوقات الله جل وعلا .

والله عز وجل له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، ولهذا ترى في القرآن كثيراً إقسام الله جل وعلا بمخلوقاته ؛ والليل، والنهار ، والشمس ، والقمر، والضحى ، والنجم ، هذا كله قسم ، يقسم الله جل وعلا بما يشاء من مخلوقاته ، وأما عباد الله فلا يحل لأحد منهم أن يقسم بغير الله ،كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من كان حالفاً فليحلف بالله)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بالأمانة فليس منّا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ، ولهذا لا يحل للمسلم أن يحلف بغير الله أياً كان لا بالأنبياء ولا بنبينا عليه الصلاة والسلام ولا بالكعبة ولا بالأمانة ولا بأي شيء من المخلوقات ، لا يجوز له أن يقسم إلا بالله . والحلف تعظيم ، وهذا التعظيم لا يحل إلا لله سبحانه وتعالى وحده ، ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم : ((من كان حالفاً فليحلف بالله)) ، و((من حلف بغير الله كفر أو أشرك)) لأنه صرف هذا التعظيم الذي هو حق لله لغيره سبحانه وتعالى من المخلوقات .

والرب جل وعلا يحلف بما شاء من مخلوقاته ، وعندما يقسم جل وعلا بشيء من مخلوقاته فهذا فيه تشريفٌ لهذا الذي أقسم به ؛ لأن تخصيصه من بين المخلوقات بإقسام الله تبارك وتعالى به دليلٌ على شرفه .

وهنا في هذه السورة يقسم ربنا جل وعلا بالعصر ، وقد قيل في معنى العصر والمراد به أقوال عديدة ، لكن أقربها وأظهرها : أن المراد به الزمان كله ، الليالي والأيام ، العمر ؛ ليس عمر كل إنسان بخاصته وإنما الحياة كلها التي هي ميدان الأعمال ، فالله سبحانه وتعالى خلق الليل والنهار وأوجد هذا الدهر ميدانًا للأعمال ، وخلق في هذا الدهر الناس ، وجعل لكل إنسان مدة معينة من هذا الدهر ، ولهذا قال بعض أهل العلم في موعظة له: «أيها الإنسان إنما أنت وقت -أنت وقت زمان محدد- إذا انتهى وقتك وزمانك انتهت حياتك وانتهى عمرك» ، ولا تستقدم عن وقتك ساعة ولا تستأخر فأنت وقت محدد .

فإذًا هنا قَسَم الله جل وعلا بالعصر ثم ذكره لخسر الإنسان إن لم يكن متصفاً بهذه الصفات فيه التنبيه إلى أهمية العصر ، وأنه هو ميدان العمل ، وأن فوات أي شيء من العصر الذي تعيشه هو فواتٌ لحياتك أنت وخسرانٌ حقيقي لك ، لأن أيامك في العصر تمضي سبهللا وتضيع سدى فتكون خاسراً ، فإقسام الله جل وعلا بالعصر تنبيه إلى الاهتمام بالعصر ، والاهتمام بالوقت ، وعدم إضاعة الوقت ، وأن إضاعة الوقت من أعظم أسباب المقت وأعظم أسباب الخسران والحرمان ؛ ففيه التنبيه إلى مكانة العصر .

والعصر الذي هو تقلب الليل والنهار شأنه عجب؛ ولهذا بعضهم يقول عن الدهر : أبو العجب أو أبو العجائب، لأن الليل والنهار لم يزالا جديدين ، لكن كم ذهبت أمم وكم هلك من أشخاص وكم حصل من مصائب وكم حصل من قوارع وزلازل وفتن وو .. إلخ ، والليل والنهار لم يزالا جديدين ، أمم تذهب ، ودول تفنى ، وأشخاص يهلكون ، ومصائب تحل ، ولم يزال الليل والنهار جديدين !! ولهذا من عجيب أمر الليل والنهار أنه متحرك لكنه أشبه ما يكون بالساكن ، الليل والنهار لا يزال يتجدد ولم يزل الليل والنهار جديدين لكن أحوال الناس عجب في الليالي والأيام ، ولهذا يقول الله جل وعلا : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١-٦٢] ، «خِلْفَة» أي يخلف بعضه بعضاً ، يذهب ليل ويأتي نهار ، ويذهب نهار ويأتي ليل ولم يزل الليل والنهار جديدين . وهذا فيه ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يذَّكرّ أمره وما ينبغي أن يكون عليه مع الليالي والأيام ، وأن يكون مع الليالي والأيام لا يزداد إلا شكراً لله سبحانه وتعالى ، لأن نِعم الله عليه مع الليالي والأيام متجددة وآلاؤه سبحانه وتعالى متوالية ، فينبغي عليه أن يزداد مع الليالي والأيام شكراً لله سبحانه وتعالى على منّه وإنعامه.

إذن هذا القسم بالعصر من ربنا جل وعلا فيه تنبيهٌ لنا بين يدي موضوع هذه السورة ، تنبيه لنا إلى رعاية العصر والاهتمام بالوقت وعدم إضاعته ، وأن في إضاعة الوقت تحقق الخسران .

قال جل وعلا : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ و«الإنسان» هنا تفيد في دلالتها إفادة دلالة لفظ «كل الناس»، لأن «الـ » في الإنسان المراد بها الجنس فتفيد العموم ، فقوله : ﴿ الإِنسَانَ ﴾ في دلالتها مثل قوله « كل الناس» ، ولهذا يقولون مما تعرف به «الـ» التي تفيد الجنس أنه يصلح أن تزيلها وتضع مكانها «كل»، إذا وضعت مكانها «كل» واستقام المعنى فهذه «الـ» تفيد الجنس ،﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾أي كل إنسان في خسر ، كل إنسان خاسر ، جميع الناس خاسرين .

وقال : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ولم يقل : «إن الإنسان لخاسر»؛ لأن هذه الصيغة التي في الآية أبلغ في إثبات هذا الأمر وأمكن في الدلالة عليه ، لأن «في» تفيد الظرفية ، فقوله : ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ هذا يفيد أن الخسران محيطٌ بالإنسان من كل جانب ، وأنه منغمسٌ في الخسران تمام الانغماس كما يفيده هذا اللفظ ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، فـ «في» تفيد الظرفية والمعنى أن كل إنسان منغمس في الخسران إلى أم رأسه والخسران محيط به من كل جانب ، هذا حال كل إنسان وهذا شأن كل إنسان؛ أنه منغمس في الخسران إلى أم رأسه والخسران محيط به من كل جانب ، ولا ينجو من ذلك إلا من ذكر الله سبحانه وتعالى صفاتهم بعد قوله «إلا» في السورة .

وهذه الحقيقة إلى تمامها بدءً من قوله : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أكدها الله سبحانه وتعالى بثلاث مؤكدات :

- المؤكد الأول : القسم ؛ قال : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أقسم جل وعلا .
- والمؤكد الثاني : قوله ﴿ إِنَّ ﴾ ؛ فهي تفيد التوكيد .
- والمؤكد الثالث : اللام الداخلة على الجار والمجرور ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ؛ فهي لام التأكيد .

فذكر جل وعلا هذه الحقيقة مؤكدةً بثلاث تأكيدات ، والحقيقة هي حكمٌ على كل الناس بالخسران ، وأن هذا الخسران لا يسْلم منه إنسان أبداً كما يفيده العموم في هذه الآية ؛ إلا من أكرمهم الله سبحانه وتعالى واتصفوا بالصفات الأربع المذكورة في هذه السورة في قوله جل وعلا : ﴿إِلاَّ﴾ يعني هؤلاء مستثنون ، ومن سوى هؤلاء المستثنين خاسر ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ولكي يسلم الإنسان من الخسران لابد أن يتصف بهذه الصفات الأربع مجتمعة ، لا يكفي أن يتصف ببعضها وأن يهمل باقيها ، بل لابد أن يتصف بهذه الصفات الأربع وأن يكون من أهل هذه الصفات الأربع ، فإذا كان كذلك سلِم من الخسران ،

وإن لم يكن كذلك فهو والله خاسر ووالله لفي خسر كما أخبر ربنا جل وعزّ بذلك : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

ولهذا فإن هذه السورة فيها موعظة بليغة ومؤثرة للغاية لمن وفقه الله تعالى لعقلها وفهمها ، وهذا هو معنى قول الشافعي رحمه الله الآتي «لكفتهم» ؛ يعني كافية في هذا الباب باب الوعظ المؤثر الجامع لأبواب الخير ، وليس مراده رحمه الله أنها تكفيك فلا تحتاج إلى بقية سور القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وسائر مسائل العلم بدلائله ، ليس هذا مراده ؛ وإنما مراده أنها كفى بها موعظة جامعة بليغة مؤثرة وجيزة أتت على الخير من أبوابه ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : «هذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره» . فهي سورة وجيزة بليغة كما وصفها بذلك عمرو بن العاص لما سأله مسيلمة الكذاب ، وكان بين عمرو ومسيلمة في الجاهلية صحبة أو معرفة؛ فلقي عمرو مسيلمة فقال : ماذا أُنزل على صاحبكم الليلة ؟ فقال : «أنزل عليه سورة وجيزة بليغة» ، ويأتي لعله ذكر هذه القصة والحديث عنها لاحقاً .

فالشاهد أن هذه السورة سورة عظيمة ؛ وجيزة الألفاظ ، قليلة الكلمات ، آياتها ثلاث آيات لكنها جمعت الخير بحذافيره ، أي من جميع أطرافه ، ففيها كفاية من هذه الجهة: أنها واعظة للإنسان ، ومؤثرة تأثيراً بليغاً ، وتدفع الإنسان إلى المزيد من الخير وأبوابه المتنوعة ومجالاته العديدة، لأن هذه السورة تسوق الإنسان سوقاً إلى الخير ، ولهذا روي عن بعض الصحابة أنهم إذا افترقوا يفترقون على قراءة هذه السورة :﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، وهي ليست من الأذكار التي هي كفارة للمجلس ولا تستعمل هذا الاستعمال ، بل بعض مشايخنا عد ذلك من البدع كالشيخ محمد العثيمين رحمه الله ، لكنها من باب التذكير ، شأنها كشأن أبواب التذكير الأخرى التي تكون عند الوداع والافتراق ، والوصايا التي تكون في هذا الباب ، والنبي عليه الصلاة والسلام يأتي عنه جُمل من الوصايا المتنوعة ولاسيما الوصية بتقوى الله عز وجل ، كان كثيراً ما يوصي بهذا «تقوى الله» ، فهي من هذا الباب وصية جامعة بليغة وجيزة أتت على الخير بحذافيره .

قال : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ وعرفنا قوة دلالة هذا اللفظ على شدة الخسران وأنه أبلغ من قوله «لخاسر»؛ لأن «في» تفيد الظرفية .

قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ؛ فذكر جل وعلا هذه الصفات الأربع التي من اتصف بها سلِم من الخسران ، ومن أخلَّ بها أو بشيء منها فهو خاسر ؛ وهي المسائل التي ذكر المصنف رحمه الله أنها واجبة على كل مسلم ومسلمة : العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر .

الأولى من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة وفي هذا السياق: قوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي آمنوا بالله جل وعلا الذي الإيمان به أصل أصول الإيمان وأساس أسس الدين ؛ آمنوا بالله وبكل ما أمرهم الله سبحانه وتعالى بالإيمان به ، آمنوا بذلك إيماناً جازماً لا شك فيه ولا ريب . والإيمان لا يكون إيماناً إلا مع انتفاء الشك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[الحجرات:١٥] أي أيقنوا ولم يشُكُّوا ، فالمعنى في قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي إلا الذين آمنوا إيماناً جازماً ويقيناً راسخاً لا شك فيه ولا ريب بالله سبحانه وتعالى وبكل ما أمرهم جل وعلا بالإيمان به .

وإيمانهم بالله يتناول أركان الإيمان بالله الثلاثة وهي : الإيمان بوحدانيته في ربوبيته ، ووحدانيته في أسمائه وصفاته ، ووحدانيته في ألوهيته . ودين الإسلام سمي «توحيداً» لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته ، وفي أسمائه جل وعلا وصفاته ، وفي ألوهيته ؛ وذلك بإقرار العبد بأنه وحده تبارك وتعالى الخالق الرازق المِلك المتصرف المدبر لشؤون الخلائق لا شريك له ، وأنه تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلا لا مثيل له ، وأنه جل وعلا المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وأن يصرف له العبادة كلها ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[البينة:٥] . وأن يؤمن كذلك بكل ما أمره الله سبحانه وتعالى به ؛ ومن ذلكم أصول الإيمان المجتمعة في حديث جبريل لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإيمان قال : «أخبرني عن الإيمان؟» ، قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الأخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) .

فهذه الأصول العظام من لم يؤمن بها أو شك فيها أو شك في بعضها فإنه خاسر لا محالة ، حتى وإن عمل من الأعمال الصالحات شيئاً كثيراً وأتى من أبواب البر والصلاح أبواباً كثيرة لا تفيده ؛ خاسر لا محالة ، لأن الإيمان بالله وبكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به هذا يعد أساس للسلامة من الخسران ، وإذا خرب الأساس خرب ما بُني عليه ، وإذا بطل الأساس بطل ما بُني عليه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[المائدة:٥] ، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾[التوبة:٥٤] ، الكفر أساس الخسران في الدنيا والآخرة ، ولأجل هذا بُدئ به ، والبدء به دليل على الاهتمام ، وأن أعظم أبواب النجاة من الخسران الإيمان بالله جل وعلا وبكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به .

ونستفيد من هذا فائدة عظيمة في باب النجاة من الخسران: أن نهتم –معاشر الإخوة– بالتوحيد والإيمان دراسةً وتعلماً وتفقهاً وتبصراً ؛ فإن الإيمان والتوحيد هو الفقه الأكبر الداخل دخولاً أولياً في قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) ، أعظم الفقه في الدين الفقه الأكبر ؛ وهو توحيد الله والإيمان

به والإيمان بكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به ؛ فيعتني المسلم عناية دقيقة بهذا الأمر به ويهتم به اهتماماً بليغاً .

وعليه أن يعلم أن حاجته للإيمان بالله وللإيمان بكل ما أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به أشد من حاجته إلى طعامه وأشد من حاجته إلى شرابه وأشد من حاجته إلى الهواء لأن انقطاع الهواء والطعام والشراب يكون به موت البدن ، أما انقطاع الإيمان عن قلب الإنسان ففيه موت القلب ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] ، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] إيمانك هو حياتك الحقيقية ، ولهذا الإنسان بدون الإيمان حياته حياة بهيمية ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان:٤٤] الأنعام تستنشق الهواء وتأكل الطعام وتشرب الماء ، فإذا كان الإنسان عديم الإيمان فحياته حياة بهيمية .

فحاجة الإنسان إلى الإيمان هي أعظم الحاجات ، وضرورته إليه أعظم الضروريات ؛ ولهذا يحتاج العبد إلى أن يزداد عناية ورعاية واهتماماً بإيمانه أعظم من اهتمامه بطعامه وشرابه ولباسه وغير ذلك من حاجاته ومصالحه وضروراته ، لأن الحاجة إلى الإيمان هي أشد الحاجات ، والضرورة إليه هي أشد الضرورات ، وهو الأساس الذي تبنى عليه النجاة ، وتكون به السلامة من الخسران ، ويتحقق به للعبد الفلاح في الدنيا والآخرة ، قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا الأمر الأول .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تنبيهٌ إلى العلم الذي هو المسألة الأولى عند المصنف ؛ إذ كيف يُعرف الإيمان وكيف يُعرف العمل إلا بالعلم ، العلم النافع هو البوابة التي من خلالها يصل الإنسان إلى الإيمان الصحيح وإلى العمل القويم وإلى حسن التقرب إلى الله جل وعلا ، ولهذا كان أول الوحي نزولاً على نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق:١] ، أول ما نزل عليه الأمر بالقراءة ﴿اقْرَأْ﴾ ؛ لأن الوحي والإيمان والعلم والدين لا يمكن أن يُعرف إلا بالعلم ، لابد من العلم من أجل الإيمان ، من أجل العبادة ، من أجل العمل ، من أجل الطاعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ، فالجنة لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، والإيمان والعمل الصالح لا يُعرف إلا بالعلم النافع ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح كما ثبت في المسند والسنن يقول : ((اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، ورزقاً طيباً)) ؛ يبدأ عليه الصلاة والسلام بسؤال الله العلم النافع ، لأنه بدون العلم النافع لا يمكن أن تميز بين عملٍ صالح وطالح ، ولا بين رزق طيب وخبيث ، ولا بين اعتقاد صحيح وفاسد ، فالعلم هو الذي يميز به المسلم الأمور، العلم نور وضياء ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] العلم نور وضياء لصاحبه ، والجهل ظلمات . فإذًا الآية

فيها دلالة على العلم في قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لا سبيل إلى معرفة الإيمان ومعرفة حقائق الدين وشرائع الإسلام إلا بالعلم النافع ، والعلم النافع : هو المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ؛ هذا الأمر الثاني: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، والمراد بالصالحات: أي العبادات المقربة إلى الله سبحانه وتعالى . والعمل الصالح: هو ما شرعه الله وأمر به عباده ، ولهذا ليس هناك عمل صالح يُتقرب به إلى الله جل وعلا إلا ما شرع فهذا هو العمل الصالح ، فمن تقرب إلى الله بعمل يرى هو أنه صالحاً ولم يشرعه الله لا يقبله الله منه ولا يكون معدوداً في الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ، لأن العمل الصالح هو المشروع المأذون به في الكتاب والسنة حسْب ، وما زاد على ذلك مما أوجده الناس ليس معدوداً في العمل الصالح بل هو معدود في سيئات الأعمال ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا قولاً واضحاً : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، ولو واصل في صاحبه الليل والنهار فهو غير مقبول منه بل هو خاسر ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ يعني يعملون وهم خاسرون ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] يعني يعمل ويقدِّم أعمالاً ويأتي بقربات لكن لا تُقبل منه وتُرد عليه ويكون في جملة الخاسرين لم ؟ لافتقاد شرط قبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا بشرطين ، ولا يكون معدوداً في الأعمال الصالحة إلا بهما : الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الدعاء : ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) ؛ العبادة لا تُقبل إلا إذا اتصفت بالحُسن ، والحُسن لا يكون وصفاً للعبادة إلا بالإخلاص والمتابعة ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢] قال : «أخلصه وأصوبه»، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وما أصوبه ؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص: ما كان لله ، والصواب: ما كان على السنة» .

إذًا الأمر الثاني من أمور النجاة والسلامة من الخسران: العمل الصالح ؛ أن يعمل الإنسان الأعمال الصالحة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى ، مخلصاً لله سبحانه وتعالى بها متبعاً للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يعبد إلا الله ، ولا يعبد الله إلا بما شرع مما جاء وثبت وصح عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

والأعمال الصالحة منها فرائض ومنها مستحبات ، ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني

لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)) أي أن الله عز وجل يسدده ويوفقه بسمعه وبصره ويده وقدمه فتكون أحواله وأموره وجوارحه كلها ماضية على السداد بتسديد الله له وتوفيقه سبحانه وتعالى .

وهنا في هذه الآية عطف سبحانه وتعالى العمل على الإيمان مع أنه جزء منه! وذلك فيه اهتمامٌ بالعمل ، وقد يُعطف على الشيء ما هو جزءٌ منه وما هو داخلٌ في مسماه اهتماماً به؛ كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، وقوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة:٩٨] ؛ جبريل من الملائكة ، لكن مثل هذا العطف يفيد الاهتمام . ففي هذا من الفائدة : أهمية الأعمال ومكانتها من الدين ، وأنها من أسباب النجاة ، وأن إضاعتها من أسباب الخسران والحرمان ، وأن مضيّع الأعمال خاسر ، حكم الله سبحانه وتعالى عليه بذلك ؛ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فهذا فيه اهتمام بالأعمال الصالحة والعناية بها والمحافظة عليها والمواظبة عليها .

الأمر الثالث قال : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** ﴾ ؛ نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيره قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي : التوحيد ، وقيل ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي : تواصوا بدين الله عز وجل أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر. والآية عامة تتناول ذلك كله ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي بكل ما أمرهم الله سبحانه وتعالى به وكل ما دعاهم إليه من فعل المأمورات التي أعظمها التوحيد ، وترك المنهيات التي أخطرها الشرك ؛ فيدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ التواصي بالتوحيد ، ويدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ التواصي بالحذر من الشرك والبُعد عنه والتحذير منه ، يدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾: التواصي بالبعد عن البدع والمحدثات ، يدخل في التواصي بالحق : التواصي بالبعد عن الكبائر والمعاصي والآثام ، يدخل في التواصي بالحق: التواصي بالفرائض والطاعات والمقربات إلى الله جل وعلا ، يدخل في التواصي بالحق: التواصي بالرغائب والنوافل والعبادات التي تساند الإنسان وتسدِّد الإنسان وتجبر ما عند الإنسان من نقص في أعماله ، كل ذلكم داخل تحت قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾.

وهذا فيه أهمية الدعوة إلى الله ، وأنها ضرورة وواجب ديني على كل مسلم يريد لنفسه النجاة من الخسران . الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وظيفة كل مسلم ، ليست وظيفة بعض الناس ، هي وظيفة كل مسلم أن يكون داعياً إلى الله سبحانه وتعالى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وكلٌ بحسبه ، وكلٌ على قدر استطاعته ؛ ((من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، ولهذا المسلم مطلوبٌ أن يكون داعياً إلى الله جل وعلا ، وأن تكون دعوته إلى الله لا إلى نفسه ، وأن تكون دعوته إلى الله بالبصيرة لا بالجهل ؛ وهذا أيضاً فيه الاهتمام بالعلم قبل الدعوة كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من دعا بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» .

ولهذا المسلم يحتاج أن يكون دائماً يتعلم ويُعلِّم ، يتفقه ويُفقِّه ، يعرف الحق ويعمل به ويدعو إليه ، وإذا رأى منكراً نصح على قدر استطاعته ويجتهد ، لكن ليحذر أشد الحذر أن يدعو إلى الله عز وجل بجهل ؛ فهذا من أخطر ما يكون ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً)) ، ولهذا دعاة الضلالة يتحملون آثامهم وآثام أتباعهم إلى يوم القيامة . فالدعوة إلى الله بغير بصيرة هذه جناية على النفس وجناية على الناس ، قد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ؛ الأئمة المضلين: هم الدعاة إلى الدين بغير بصيرة وبغير هدى من الله ، إما بالأهواء أو بالآراء أو بغير ذلك ، وهذا من أخطر ما يكون على الناس وأشد ما يكون ضرراً .

ولهذا لاحظ الأمور جاءت في الآية مرتبة ، ويأتي بها العبد في حياته على ترتيبها في الآية ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ تواصيهم بالحق بعد إيمانهم وعلمهم وعملهم بالصالحات ، أما الذي يعبد الله بالبدع إذا دعا سيدعو إلى ماذا؟ سيدعو إلى بدعٍ محدثات ، يبوء بإثم نفسه وإثم من تبعه ، فإذًا تكون المسألة بهذا الترتيب وبهذا التدرج الذي في الآية : الإيمان مبني على علم صحيح ، وعمل صالح مبني على اتباع واقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، يأتي بعد ذلك الدعوة والتواصي بالحق الذي هو عائد إلى الإيمان والعمل الصالح ؛ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ والحق هو دين الله جل وعلا ، قال الله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾[الحج:٦٢] ، فالله من أسمائه الحق ودينه حق ، والنبي صلى الله عليه وسلم حق ، والساعة حق ، فيدعو إلى هذا العبد ، بعد أن يؤمن ويعمل يدعو إلى الحق ، يدعو إليه على بصيرة .

قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ؛ وهذا فيه مقام الصبر ومكانته من الدين وأن مقام الصبر في الدين مقام عظيم ، إذ أنت تحتاج إلى الصبر في الدين كله ، وتفتقر إلى الصبر في أمورك كلها ، لا تستطيع أن تعبد الله إلا بالصبر ، ولا تستطيع أن تترك ما حرم الله إلا بالصبر ، ولا تستطيع أن تسلِّم لأقدار الله سبحانه وتعالى المؤلمة إلا بالصبر ، أنت تحتاج إلى الصبر ، لا تستطيع أن تطلب العلم إلا بالصبر ، فالصبر تحتاج إليه في طلبك للعلم ، في عباداتك لله ، في بُعدك عن المحرمات ، في تلقي المصائب المؤلمات؛ كل ذلك تحتاج فيه إلى الصبر، ولهذا فإن قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ يتناول الصبر على العلم ، الصبر على العمل ، الصبر على الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى الذي يناله من يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، فالصبر في الآية يتناول ذلك كله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وهذا فيه تنبيه أن الناجين من عباد الله السالمين من الخسران من صفاتهم التواصي بالصبر ؛ يصبّر بعضهم بعضاً ، أحياناً بعض الناس يُقبل على العبادة ثم تبدأ نفسه تتفلت ؛ فيحتاج إلى إخوان خير ورفقاء خير يوصونه بالصبر

والبُعد عن الفتن والشهوات ، أحياناً يكون على الاستقامة ثم تجره نفسه إلى شهوة محرمة فيحتاج إلى الوصية بالصبر ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

والوصية بالصبر لا تحتاج إليها مرة في حياتك بل تحتاج إلى أن تستمر على هذه الوصية ، وخاصة كلما شعر الإنسان بتفلُّت في باب فعل الأوامر ، أو في باب ترك النواهي ، أو في باب تلقي المصائب ؛ فيحتاج الإنسان إلى الصبر أن يذكر نفسه هو به وأن يذكر إخوانه بالصبر . فإذًا من دأب الناجين المفلحين السالمين من الخسران التواصي بالصبر دوماً وأبداً ، ولهذا في سورة البلد لما ذكر الله سبحانه وتعالى وصْف من اقتحم العقبة قال في وصفه : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد:١٧-١٨] أي هؤلاء الذين متصفون بهذا الوصف ومن جملته التواصي بالصبر هم أهل الميمنة ، فالوصية بالصبر ينبغي أن تكون وصية دائمة مستمرة بين المسلمين ؛ يوصون بعضاً بالصبر على الصلاة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] ، فيحتاج العبد إلى أن يتحلى هو في نفسه بالصبر ، وأن يكون أيضاً يوصي إخوانه به ؛ يوصيهم بالصبر على العبادات ، الآن كم يحتاج الناس وطلاب العلم إلى الوصية بالصبر على صلاة الفجر !! أليست صلاة الفجر تضيّع كثيراً الآن؟! كم يحتاج الناس إلى الوصية بالصبر عليها ؟! كم تضيع؟ كم يهملها الناس؟! كم يفرطون في واجبات وفرائض ؟! كم تتخطفهم شبهات وأهواء ؟! فما أحوج المسلمين للنجاة من الخسران إلى الصبر والتواصي بالصبر حتى تبقى استقامتهم ، تدينهم ، محافظتهم على طاعة الله ، سلامتهم . المسلم يحتاج إلى إخوانه ، يحتاج إلى إخوان الخير ورفقاء الصلاح ويصبر معهم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الكهف:٢٨] .

فإذاً مقام الصبر مقام عظيم جداً من الدين ، وما وُجد في الناس من ضياع وتفريط وإهمال في باب العلم أو في باب العبادة أو في باب ترك المحرمات إلا من التفريط في مقام الصبر العظيم ، ولهذا نحتاج أن نقرأ ونتواصى بالصبر كثيراً ، ونقرأ سير أئمة الصابرين أنبياء الله ورسوله ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥] نحتاج إلى ذلك نقرأ قصصهم ، اقرأ قصة يوسف عليه السلام ما أعجبها وما أروعها !! وما أعظم صبر يوسف عليه السلام بأنواع الصبر الثلاثة : الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ، وكان في ذلك إماماً عليه الصلاة والسلام ؛ ابتلي عدة ابتلاءات : دعته امرأة العزيز إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ [يوسف:٢٣] اجتمعت عليه وأغرته هي والنسوة ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣] صبر في مقام فتنة ، كان غريباً ، وكان شاباً ، وكان جميلاً ، واجتمعت من الدوافع والمغريات الشيء الكثير ، وأمام كل ذلك يقول: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، ويقول: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ صبر عن المعصية ،

وصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ أي مؤلم أشد من أن يرميه إخوانه في غيابة الجب يريدون قتله وموته؟! ثم يُؤخذ ويباع عليه الصلاة والسلام ، تلتقطه السيارة ويباع في مصر ، أمور مرت به مؤلمة جداً وصبر مطيعاً لله عابداً لله راضياً بأقدار الله ، مبتعداً عن ما يسخط الله جل وعلا ، ثم انظر إلى المآل الرشيد ؛ في نهاية المطاف ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠] فالصبر أمر يحتاج إليه المسلم في حياته كلها ، وخاصة في زمان هذا الذي تلاطمت فيه أمواج الفتن وتكاثرت فيه أبواب الفساد وأخذت تعصف بالناس في كل صوب ، وتجرف العقول ، الأفكار ، الأخلاق ، الأديان ؛ فيحتاج الإنسان إلى الصبر والتواصي به أشد الحاجة ليسْلم من الخسران ، ولهذا ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الناجين من الخسران أنهم يتواصون بالصبر ؛ بالصبر على العلم ، بالصبر على العمل والعبادة ، بالصبر على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، إذا أوذي أحد في الدعوة إلى الله "اصبر يا أخي ، احتسب ، الأنبياء قبلك أوذوا ، سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام أوذي ، اصبر واحتسب ، لك العاقبة الحميدة" ، فبمثل هذا التواصي تمضي الأمور ، استقامةً للعباد في أنفسهم ونشراً لدين الله سبحانه وتعالى بين الناس . فما أشد حاجة الإنسان ليسلم من الخسران إلى ذلك . قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

هذه السورة العظيمة جمع فيها ربنا سبحانه وتعالى أسباب النجاة من الخسران ، ولا ينجو عبد من الخسران إلا إذا جمع لنفسه هذه الأوصاف ، وجاهد نفسه على تحقيقها وتتميمها ؛ ليكون ناجياً من الخسران ، وإلا فإن ربنا عز وجل أقسم أن كل إنسان خاسر ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

ثم نقل المصنف رحمه الله تعالى عن الشافعي كلاماً في الثناء وتعظيم هذه السورة . قبل ذلك أشير إلى أمرين :

- الأول : يتعلق بالصبر ؛ الصبر يقول عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «ضابط الأخلاق المأمورة بها» ، وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة قال : «ضابط الأخلاق المأمور بها» وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) ، ولا يمكن أن تستقيم على خلق إلا بالصبر ، الصبر ضابط الأخلاق المأمور بها ، بمعنى أن من لم يكن عنده صبر لن يكون يوماً من الأيام إذا خُلق ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ هذا خلق عظيم ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] ، إذا افتقد الإنسان الصبر افتقد الأخلاق ، إذا افتقد الإنسان الصبر افتقد الدين ، إذا افتقد الإنسان الصبر وقع في الحرام ، إذا افتقد الإنسان الصبر تخطَّفه اللئام ؛ ولهذا يحتاج الإنسان إلى الصبر في جميع أبواب الدين ، في جميع أموره وشؤونه .

- الأمر الثاني : ابن القيم رحمه الله أعطى خلاصة تستفاد من هذه لسورة العظيمة قال فيها رحمه الله : «الكمال – أي في الإنسان – أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وكماله – أي في نفسه – بإصلاح قوَّتيه العلمية والعملية . وإصلاحك قوتك العلمية هذا في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإصلاحك لقوتك العملية بقوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، وتكميلك للآخرين قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾» .

فجمعت هذه السورة ما يكون به كمال الإنسان وهو أن يكمل في نفسه إيماناً وعملاً ، وأن يسعى في تكميل الآخرين نصحاً للعباد ، ودعوةً إلى الحق ، ورحمة بالخلق ، ونصحاً لدين الله تبارك وتعالى .

بعد ذلك نقل المصنف رحمه الله كلمة عظيمة للإمام الشافعي قال فيها : «**لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ**» ؛ يظهر أن هذه الكلمة المنقولة عن الشافعي منقولة عنه بالمعنى ؛ فقد يكون الشيخ رحمه الله وقف عليها في بعض المصادر منقولة عنه بالمعنى ، وأما لفظ كلام الشافعي كما في مصادر عديدة نقلَتْه عنه ومنها «مناقب الشافعي» رحمه الله لفظه : «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم» . ولهذا سمعت مرة شيخنا الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله تعالى يقول : «لقد بحثنا وفتشنا كثيراً عن هذه الكلمة بهذا اللفظ فلم نجدها ، وقد وجدتها في مناقب الشافعي للبيهقي وغيره بأسانيد رائعة بلفظ : لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم» . انتهى كلامه رحمه الله .

وهذه كلمة عظيمة جداً من الإمام الشافعي رحمه الله في بيان مكانة هذه السورة وعظيم شأنها ، ولهذا قال أحد أئمة الدعوة وهو الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى تعليقاً على مقولة الشافعي هذه ، لماذا قال الشافعي «لكفتهم» ؟ قال رحمه الله : «قلتُ لأنها تتضمن الأصول الدينية ، والقواعد الإيمانية ، والشرائع الإسلامية ، والوصايا المرضية» ؛ فهذا كله جمعته هذه السورة الوجيزة البليغة .

هل معنى قوله «لكفتهم» هل معنى ذلك أنها تغني عن دراسة أمور الشريعة وتغني عن الفقه في الدين وتعلم الأحكام ومسائل الدين ؟ هل هذا معنى كلامه ؟ هل هذا هو المراد ؟ الجواب لا ، لكن المراد به كما أوضحت أنها كفى بها واعظاً جامعاً موجزاً بليغاً في الحث على العلم والعمل والدعوة والصبر ، كفى بها دلالة على ذلك . ليس المراد أنها كافية ومغنية للإنسان عن طلب العلم . ولهذا الشيخ عبد اللطيف نُقل له كلام شخص يوصي صاحبه ، كتب لصاحبه وصية وكأن صاحبه أراد أن يرحل في طلب العلم على العلماء وعلى المشايخ ؛ فكتب له أخ له يوصيه قال لأخيه : «يكفيك لطلب العلم سورة العصر»؛ يعني ما يحتاج ترحل إلى العلماء ولا يحتاج إلى أن تقرأ الكتب وتطلع على كلام العلماء ؛ يكفيك لطلب العلم سورة العصر، يعني لا ترحل للطلب ولا تقرأ على العلماء ولا تدرس الكتب يكفيك سورة العصر . وهذا من سوء الفهم لكلام أهل العلم ، سمع بكلام الشافعي وهو قوله « لكفتهم» وفهمه فهماً خاطئاً ، فكتب الشيخ عبد اللطيف رحمه الله كلاماً في رد هذه المقالة وبياناً

لمراد كلام الشافعي رحمه الله ؛ قال : «اعلم أن قول الشافعي رحمه الله فيه دلالة واضحة على وجوب طلب العلم» خلافاً لفهم هذا الشخص قال : يكفيك في طلب العلم أن تقرأ سورة العصر ، قال رحمه الله : «اعلم أن قول الشافعي رحمه الله فيه دلالة ظاهرة على وجوب طلب العلم مع القدرة في أي مكان ، ومن استدل به على ترك الرحلة والاكتفاء بمجرد التفكر في هذه السورة فهو خليٌّ الذهن من الفهم والعلم والفكرة إن كان في قلبه أدنى حياة ونهمة للخير ، لأن الله افتتحها بالإقسام بالعصر الذي هو زمن تحصيل الأرباح للمؤمنين وزمن الشقاء والخسران للمعرضين الضالين ، وطلب العلم ومعرفته ما قصد به العبد من الخطاب الشرعي أفضل الأرباح وعنوان الفلاح ، والإعراض عن ذلك علامة الإفلاس والإبلاس ، فلا ينبغي للعاقل العارف أن يضيّع أوقات عمره وساعات دهره إلا في طلب العلم النافع والميراث المحمود ، كما قيل في المعنى شعراً :

أليس من الخسران أن الليالي تمر بلا نفع وتحسب من عمري !! »

انتهى كلامه رحمه الله تعالى ، وفيه إيضاح وافي وبيان شافي لمراد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من مقولته : «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم » .

ذكرتُ لكم قصة عمرو بن العاص عندما لقي مسيلمة الكذاب ، ويقال – ذكر بعض أهل العلم – أن لقاء عمرو هذا بمسيلمة قبل أن يسْلم عمرو بن العاص ، وبعض أهل العلم رجح أن هذا اللقاء كان بعد إسلام عمرو بن العاص ، والقصة: أن عمرو بن العاص لقي مسيلمة الكذاب –كما ذُكر في تفسير ابن كثير وتاريخه وفي كتب التاريخ والأخبار– لقيه فقال مسيلمة لعمرو : ماذا أنزل على صاحبكم الليلة ؟ أو ماذا أنزل عليه في هذا الزمان أو في هذا الوقت؟ قال : «أنزل عليه سورة وجيزة بليغة» ، قال : وما هي ؟ فتلى عليه سورة العصر ، ووصفها عمرو بأنها وجيزة بليغة ، وجماعة من أهل العلم يقولون أن هذا كان منه قبل أن يسْلم ، فيصف هذه السورة بهذه الصفة وكان وقتها من عبَّاد الأوثان على قول من أقوال أهل العلم ، ويصفها بهذه الصفة «وجيزة بليغة» ، فلما سمع مسيلمة الكذاب السورة إلى تمامها فكر قليلاً ثم قال : "وأنا أنزل علي مثلها" فقال له : وماذا أنزل عليك ؟ قال : "يا وبر يا وبر إنما أنت بطن وصدر ، وباقيك نقر وحفر" ، إيش رأيك يا عمرو ؟ يقول : ما رأيك يا عمرو ؟ بعدما ذكر هذا الذي أنزل عليه قال : ما رأيك يا عمرو ؟ قال : «والله إنك تعلم إني أعلم أنك كاذب» يعني ما يحتاج أن تسأل ، ولهذا ابن كثير يقول : ففرَّق بين وحي الرحمن ووحي الشيطان مع أنه كان وقتها من عبَّاد الأوثان ، فرَّق بين الوحيين .

أيضاً مما ينقل في هذا الباب أن ابن عباس رضي الله عنهما أتاه أحد التابعين أو أحد الأشخاص وقال له : إن مسيلمة زعم البارحة أنه أوحي إليه –نزل عليه الوحي– قال ابن عباس رأساً : «صدق». فالرجل ارتاب ؛ مسيلمة

أوحي إليه! وابن عباس رضي الله عنه حبر هذه الأمة يقول صدق!! فارتاب الرجل ، قال : نعم صدق ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١] صدق الشيطان أوحى إليه ، هذا وحي الشيطان .

هنا نأخذ عبرة : هذا الكلام الممجوج السقيم الركيك السيء وجد له أتباع وهم خلْق ، ولهذا نتنبه لقول إمام الحنفاء : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] ، ولهذا يجب على المسلم أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى أن يعيذه من أئمة الضلال ودعاة الباطل وأن يُبتلى بشيء من ذلك ، ويسأل الله عز وجل دائماً وأبداً أن يهديه إلى الحق وأن يرشده إليه وأن يدله إلى الصواب وأن يعيذه من الفتن ومن البدع ومن الأهواء ما ظهر منها وما بطن ، كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يوصي بهذا الدعاء : ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أن تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) . ولهذا أحياناً يرى الإنسان عقول تضل ، فيها ذكاء ولكن تضل وتنحرف!! بسبب دعاة الباطل وتزيينهم للباطل وتزويقهم له .

فيجب على المسلم أن يحرص على سعادة نفسه وسلامتها من الخسران ، وأن تعظم عنايته بهذه السورة العظيمة «سورة العصر» ، أن يقرأها متدبراً معانيها متأملاً في دلالاتها ، وأن يراجع كلام أهل العلم في كتب التفسير المعتمدة في بيان مضامين هذه السورة العظيمة ؛ لتكون له بوابةً للخير ومدرجاً للفلاح ومرتقًى للرفعة والسلامة من الخسران . والمعين على ذلك كله والموفق هو الله وحده لا شريك له .

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الأصول الثلاثة :

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : «بَابُ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰه إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْم قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ».

****

فهذه خاتمةُ الرسالةُ الأولى من الرسائل التي صُدِّرت بها الأصول الثلاثة . في هذه الرسالة تكلم رحمه الله تعالى عن واجب من الواجبات على كل مسلم ومسلمة ألا وهو: تعلم أربعِ مسائل ، وذكر المسائل الأربعة وهي: العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر ، وذكر عليها الدليل وذلك هو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿والعصر (١)إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

ثم ختم رحمه الله بهذه الخاتمة التي بين فيها مكانة العلم العظيمة ومنزلته العليّة ، وأنه به يُبدأ ، وأنه مقدمٌ على القول والعمل؛ وذلك لأن قول الإنسان إن لم يكن عن علم فقد لا يكون قولاً سديداً ، وعمل الإنسان إن لم يكن عن علمٍ قد لا يكون عملاً صالحاً . ولهذا لا يميَّز بين القول السديد وغير السديد ، وبين العمل الصالح وغير الصالح إلا بالعلم ، ولهذا كان العلم مقدماً على القول والعمل ، وأن تعلم المسلم فرائض الدين واشتغاله بمعرفتها وتعلُّمها مقدمٌ على الأقوال التي هي الذكر والدعاء ونحو ذلك ، ومقدم على الأعمال التي هي العبادات ؛ لأن العبادات لا تصح إلا بالإتباع ، والإتباع لا يُعرف إلا بالعلم ، ولهذا كان العلم مقدماً .

فنقل رحمه الله عن الإمام البخاري صاحب الصحيح ، نقل عنه في كتاب الصحيح في كتاب العلم من كتابه الصحيح ، عقد ترجمةً عنوَن لها بقوله «**بَابُ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ**» أي أن العلم مقدمٌ ، والمراد بالعلم هنا: العلم الفرض ؛ لأن العلم نوعان : علمٌ فرضٌ ، وعلمٌ ندبٌ . وأيضاً العلم نوعان : علمٌ عيني ، وعلمٌ كفائي ؛ العلم الكفائي : هو الذي إذا حصل من البعض كفوا الباقين ، وإن لم يحصل من الجميع أثموا جميعاً .

فالشاهد أن العلم الفرض العيني هذا مقدم على القول ومقدمٌ على العمل ؛ لأنه لا يستطيع أن يؤدي فرائض الإسلام ولا يستطيع أن يقوم بواجبات الدين إلا إذا كان عنده علمٌ بما افترضه الله سبحانه وتعالى ، وعنده علمٌ بكيفية أداء ما افترض جل وعلا ، وهذا كله يتطلب من العبد أن يتعلم فرائض دينه والواجبات التي أمره بها ربه جلّ وعلاّ وأمره بها رسوله عليه الصلاة والسلام .

((**قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: بَابٌ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ**)) أي أن العلم مقدمٌ على القول والعمل ، وعبادات الإنسان إن لم تكن مبنيةً على العلم فإنه سيقع في أنواع من الجهالات والبدع والضلالات التي ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان ، قد قال بعض السلف وهو عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من عبد الله أو من دعا إلى الله بغير عم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ؛ فالعلم مقدمٌ وبه يُبدأ .

والبخاري رحمه الله لما قرر هذا الأمر في هذه الترجمة ، وفقه البخاري يُؤخذ من تراجمه ، لما قرر هذا الأمر استدل عليه بالآية الكريمة في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهي قول الله جل وعلا : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ فبدأ جل وعلا بالعلم ، وقد صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال في سياقٍ آخر –لكنه ينطبق أيضاً على هذا السياق ونظائره– قال : ((نبدأ بما بدأ الله به)) لما صعد عليه الصلاة والسلام إلى الصفا بدأ بالصفا وقال : ((نبدأ بما بدأ الله به)) وتلا الآية الكريمة ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾[البقرة:١٥٨] ؛ فالله بدأ بالصفا إذاً نبدأ بما بدأ الله سبحانه وتعالى به ، لأن البدء بالشيء يدل على تقديمه ويدل على الاهتمام به وأنه هو المقدم .

وهنا نلاحظ الآية الكريمة ذُكر فيها علم وذُكر فيها قول ، ذكر فيها علم –طلب علم– ﴿فَاعْلَمْ﴾ ، وذُكر فيها قول وهو ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لكنه قدَّم العلم على القول ، فعُلم بذلك أن العلم مقدمٌ ؛ مقدم على التهليل والاستغفار والذكر والحمد وأنواع ذلك من الأذكار ، ومقدمٌ أيضاً على العبادات ، لأن من يأتي بهذه الأعمال ومن يأتي بهذه الأذكار عن غير علم سيقع في أنواعٍ من البدع ، سيقع في أنواعٍ من الضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، ولهذا كان العلم مقدماً .

وتكاثرت النصوص في القرآن والسنة في الترغيب فيه وبيان فضله وبيان فضل أهله ، وعظيم ثوابهم عند الله جل وعلا ، قد جاء في الحديث الصحيح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العالم ليستغفر له كلُّ شيء حتى الحيتان في الماء ، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)) . قال في صدر هذا الحديث ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ؛ فالعلم هو الذي يمهد لك الطريق إلى جنات النعيم ، ومن المعلوم أن الجنة لا تنال بعد رحمة الله سبحانه وتعالى إلا بالإيمان والأعمال الصالحة ، ((لن يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة)) ، كيف السبيل إلى معرفة الإيمان وأصوله بدون العلم ؟ وقد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم في القرآن قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢] فالإيمان لا يُعرف إلا بالعلم الذي هو وحي الله جل وعلا وتنزيله ؛ كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وفد عبد القيس لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم «مُرنا بقولٍ فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة؟» قال : ((آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله ؟)) قالوا : «الله ورسوله أعلم» الإيمان لا يُعرف إلا من طريق الشرع ، من طريق الوحي ، قال : ((الإيمان بالله: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم)) ، شرح لهم الإيمان . إذاً كيف السبيل إلى معرفة الإيمان بعقائده التي في القلوب وأعماله التي تكون على الجوارح؟ إلا بالعلم ، ولهذا العلم مقدم وبه يُبدأ . ومن الخطأ الفادح أن يشتغل الإنسان بعباداتٍ وقرباتٍ وأذكارٍ ودعوات ولا يكون قد بنى ذلك على العلم الذي هو وحي الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والله يقول ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤] ، ولهذا إذا فارق الإنسان العلم وجانبه وابتعد عنه ضاعت أعماله وذهبت ولم ينتفع بها .

ولهذا كان طلب العلم فريضة فيما يتعلق بما لا يتم الواجب إلا به من فرائض الدين وواجباته حتى يكون المسلم في عبادته يعبد الله على بصيرة وعلى بينة ، والآية واضحة الدلالة على ذلك ، بدأ بالعلم ثم ثنى بالعمل ، فقدَّم ربنا جل وعلا العلم على العمل ، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ؛ وذكر هنا في هذا المقام أعظم علمٍ على الإطلاق ، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا أعظم علم ، أعظم شيء يتعلمه العبد في هذه الحياة هو ؛ المنصوص عليه في الآية ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، ليس في العلوم التي بين الناس علمٌ أشرف ولا أعظم من هذا العلم ، ويقولون شرف العلم من شرف المعلوم ، وأي أمرٍ أعظم وأشرف من العلم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، والذي إنما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] ، ولأجله بعث الرسل جل وعلا وأنزل الكتب ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] فهذا أشرف العلم وأعظمه وأجلُّه على الإطلاق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولهذا انظر إلى ما خرجه مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)) .

فالعلم بأنه لا إله إلا الله هذا أشرفُ علمٍ على الإطلاق ، ولا يوجد علم من العلوم أشرف من هذا ، ولهذا لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام شعب الإيمان قدَّمه ، قال : ((الإيمان بضعٌ وسبعون شعبه أعلاها قول لا إله إلا الله ،

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياءُ شعبةٌ من شعب الإيمان)) ، ولما ذكر عليه الصلاة والسلام مباني الإسلام قدَّمه قال : ((بني الإسلام على خمس شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) فقدَّمه ؛ قدمه في ذكر شعب الإيمان ، وقدمه في ذكر مباني الإسلام فهو العلم المقدم ، وهو أولى العلوم ، بل هو ركيزةُ العلوم وأساسها ، وقوامُ الدين وقيامه ، وأصلُ الملة التي عليه تبنى ، قال الله جل وعلا في بيان هذا وعظم شأنه ومكانته في العلوم قال :﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[إبراهيم:٢٤] فإذا أردت أن تعرف مكانة العلم بأنه لا إله إلا الله من بين العلوم فهو كمكانة الأصول من الأشجار والقواعد من البنيان ؛ كما أن البناء لا يقوم إلا على عماده ، والأشجار لا تقوم إلا على أصولها ؛ فالدين لا يقوم إلا على هذا الأصل العظيم والأساس المتين «لا إله إلا الله» ، ولهذا قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما المراد بقوله اعلم أنه لا إله إلا الله ؟ هل المراد العلم بهذه الألفاظ؟ -ألفاظ هذه الكلمة- أم أن المراد أن يفهم معناها ومدلولها ومقصودها فهماً صحيحاً ؟

وتأمل في هذا قول الله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦] ، قال غيرُ واحدٍ من المفسرين: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون معنى ما شهدوا به ، فإذًا الذي ينطق «لا إله إلا الله» لا يكفي مجرد النطق ، لا يكفي مجرد التلفظ ، لابد أن يعلم معنى هذه الكلمة وأن يعرف مدلولها ، وهذه الكلمة تدل على التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى وإفراده وحده بالعبادة والبراءة من الشرك والخلوص منه ؛ لأن هذه الكلمة قائمةٌ على ركنين : نفيٌ واثبات ، وليس من أهلها من لا يفهم ما دلت عليه ، قائمةٌ على ركنين : نفيٌ وإثبات ، نفيٌ في أولها ، وإثباتٌ في آخرها ، ولا يكون من أهلها إلا من عرف ما نفت فنفاه ، وما أثبتت فأثبته ليكون بذلك من أهلها حقاً وصدقاً ، لا أن يقول لفظاً لا يدري ما هو ، وكلاماً لا يعرف معناه ، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ اشترط العلم ليكون العبد من أهلها ، فـ«لا إله إلا الله» أولها نفي وآخرها إثبات ؛ أولها نفيٌ عام للعبودية عن كل من سوى الله ، وآخرها إثباتٌ خاص للعبودية بكل أنواعها لله وحده ؛ ذلاً وخوفاً ورجاءً ورغباً ورهباً وذبحاً ونذرًا وغير ذلك ، كل ذلك لله ،﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] فهذه الكلمة تدل على التوحيد ، تدل على الإخلاص ، تدل على وجوب إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة والبراءة من الشرك .

والله في الآية يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ؛ انتبه هنا ثمة دلائل وبراهين عديدة وكثيرة ذُكرت في كتاب الله وذُكرت في سنة النبي عليه الصلاة والسلام تهديك وترشدك إلى الحقيقة وهي أنه «لا إله إلا الله» لا معبود بحقٍ إلا

الله سبحانه وتعالى ، وكما قلت القرآن اشتمل على ذكر دلائل كثيرة جداً ترشد العبد وتدله إلى أنه لا إله إلا الله . ولخّص هذه البراهين وجمع جملةً طيبة منها الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى في كتابه «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن» عند تفسيره لهذه الآية من سورة محمد ، ونستمع إلى كلامه رحمه الله فإنه نفيسٌ للغاية ومفيدٌ جداً .

قال الإمام السعدي رحمه الله تعالى عند قول الله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰه إِلاَّ اللَّهُ﴾ : «**العلم لابد فيه من إقرار القلب ومعرفته لمعنى ما طُلب منه علمه ، وتمامه أن يعمل بمقتضاه. وهذا العلم الذي أمر الله به . وهو العلم بتوحيد الله . فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحدٍ كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور:**

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته ؛ فإنها توجِب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجدٍ وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيُعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه منفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر ومن النعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به؛ فإن هذا داعٍ إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبدت مع الله عز وجل واتُخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبَدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو ، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا وعلما ؛ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ، قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة

التوحيد من كل جانب! فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشُّبه والخيالات، ولا يزداد على تكرر الباطل والشبه إلا نمواً وكمالا. هذا؛ وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره» أ.هـ

هذا كلام عظيم جداً يبين فيه رحمه الله تعالى براهين القرآن ودلائله وشواهده المتنوعة الدالة على أنه لا إله إلا الله ، وهذا الطرائق والبراهين التي أشار رحمه الله إلى جملةٍ منها هي براهين أبدى الله عز وجل فيها وأعاد في كتابه ، وتكررت في مواضع عديدة منه ؛ كل ذلكم ترسيخاً للعلم بأنه لا إله إلا الله ، وليكون هذا في قلب المسلم أرسخ ما يكون رسوخ الجبال الرواسي ، وكلما عظُمت عناية العبد بمعرفة هذه الشواهد والبراهين من خلال ما دلّ عليه كتاب الله عز وجل وما دلت عليه سنة النبي صلى الله عليه وسلم زاد التوحيد في قلبه تمكناً وزاد الإيمان رسوخاً في قلبه . وشرح هذه البراهين التي أشار إليها رحمه الله والوقوف عندها وذكر شيءٍ من شواهدها أمرٌ تطول به العبارة، لكني أشير إلى إشاراتٍ ينفع الله جل وعلا بها .

عندما تقرأ آية الكرسي التي هي أعظم آيةٍ في كتاب الله بدأت أول ما بدأت بهذا الأمر الذي أمر الله – عز وجل– أن نعلمه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰه إِلاَّ اللَّهُ﴾ بُدأت به قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هذا صدر آية الكرسي ، ثم أتبع ذلك بالبراهين والدلائل والشواهد على ذلك ، قال: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥] عندما يقف المسلم على هذه البراهين ويطلع عليها برهاناً ، وفي آية الكرسي اثنا عشر برهاناً أنه «لا إله إلا الله» ، عندما يقف على هذه البراهين ويصح فهمه لها ودرايته بمدلولها ووقوفه على مقصودها أيمكن أن يقبِل قلبه على غير الله طلباً ودعاءً ، رجاءً ورغباً ؟ أبداً لا يمكن ؛ لأن هذه البراهين تأخذ بالقلب مأخذاً عظيماً إلى التزام التوحيد ولزوم الإخلاص ومجانبة الإشراك واتخاذ الأنداد ، اقرأ خواتيم سورة الحشر صدَّرها بهذه الكلمة العظيمة قال : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤] من يقف على هذه البراهين الجليات والحجج الواضحات على وجوب توحيد الله وإخلاص الدين له تبارك وتعالى أيمكن أن يتجه قلبه إلى غير الله سؤالاً ورغباً ورهباً وطلباً ؟ حاشا وكلا . ولهذا من يتجهون في دعواتهم إلى غير الله من المقبورين أو غيرهم طامعين راجين متذللين خاضعين

أين هم من هذه الدلائل ؟ أين هم من هذه البراهين والحجج البينات في كتاب الله سبحانه وتعالى؟ لولا أن القلوب طمست والأبصار عميت عن الشواهد البينة والحجج الظاهرة المضيئة . فإذا وقف الإنسان على هذه البراهين أدرك يقيناً وعرف قطعاً أنه «لا إله إلا الله» أي لا معبود بحقٍ سواه جل وعلا، وإذا وقف المسلم على هذه البراهين زاد توحيده رسوخاً ، وإيمانه تمكناً ، وإقراره ثباتاً ، وابتعدت عنه الشبهات الصارفة والأهواء الجارفة التي ضيَّعت كثيراً من الناس عن الحق والهدى . ولهذا ينبغي على المسلم أن يعنى بهذه البراهين في كتاب الله التي تعينه على فهم أنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود بحقٍ سواه . هذا أمر .

الأمر الآخر : قول الله جل وعلا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا الأمر يدل على وجوب هذا العلم وأنه فريضة ، بل أنه أعظم الفرائض ، لأن الله سبحانه وتعالى قدَّمه وبدأ به ، العلم بأنه «لا إله إلا الله» ، وهذا يتناول العلم بمعنى هذه الكلمة والركنين الذين قامت عليهما النفي والإثبات ، والعلم أيضاً بشروط هذه الكلمة التي لا تُقبل إلا بها ، فـ«لا إله إلا الله» شأنها شأن أمور الدين الأخرى ، الصلاة لا تقبل إلا بشروط ، الحج لا يقبل إلا بشروط ، الصيام لا يقبل إلا بشروط مبينة في كتب الفقه ، و«لا إله إلا الله» لا تقبل إلا بشروط بينها أهل العلم مستنبطين لها ومستخرجين لها من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قيل لوهب بن منبه وهو من علماء التابعين ؛ قيل له : أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : «بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاحٍ له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح» يشير إلى شروط هذه الكلمة . وقيل للحسن البصريرحمه الله: أليس من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنة ؟ قال : «من أدى حقها وفرضها دخل الجنة» يشير إلى شروط هذه الكلمة .

وأهل العلم عندما تتبعوا كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام في بيان ما تتوقف «لا إله إلا الله» في قبولها عليه تبين أن «لا إله إلا الله» لها شروطٌ سبعة لا تكون مقبولةً إلا بها ، وهي :

أولاً : العلم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتا المنافي للجهل .

ثانياً : اليقين المنافي للشك والريب .

ثالثاً : الإخلاص المنافي للشرك والرياء .

رابعاً : الصدق المنافي للكذب .

خامساً : القبول المنافي للرد .

سادساً : الانقياد المنافي للترك .

سابعاً : المحبة المنافية للبغض .

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مع محبةٍ وانقيادٍ والقبول لها

فهذه شروطٌ سبعة لا تكون «لا إله إلا الله» مقبولة إلا بها . وليس المراد بهذه الشروط أن تُعرف بل المراد بها أن تحقق ، ولهذا قال بعض أهل العلم : كم من إنسان يجري في هذه الشروط جري السهم –يعني سريعاً في ذكره لها– ولكنه لا يحققها!! وكم من عامي لو قيل لو اعددها لا يحسن لكنه محقق لهذه الشروط . فإذاً العبرة بتحقيق هذه الشروط والقيام بها والإتيان بها ليكون الإنسان بذلك من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً .

❖ أما العلم فدليه قول الله سبحانه وتعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)) .

❖ ودليل اليقين قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥] أي أيقنوا ولم يشكوا، وفي صحيح مسلم قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؛ لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا أدخله الله الجنة)) فاشترط عليه الصلاة والسلام اليقين .

❖ وأما الإخلاص فدليله قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] .

❖ وأما الصدق فدليله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١] أي كاذبون في شهادتهم لأنهم غير صادقين فيها مع الله جل وعلا .

❖ وأما المحبة فدليلها قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]

❖ وأما الانقياد فدليله قول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[الزمر:٥٤] .

❖ وأما القبول فدليله قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات:٣٥-٣٦] .

فهذه شروطٌ سبعةٌ لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لا تُقبل هذه الكلمة من العبد إلا إذا أتى بها ، قال أحد أهل العلم نظماً :

وبشروطٍ سبعةٍ قد قُيدت ... وفي نصوص الوحي حقاً وردت
فإنه لا ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادرِ ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه

هذه في «سلم الوصول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله، وله شرحٌ عليها نافعٌ ومفيد جداً في كتابه معارج القبول.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ ؛ الاستغفار عمل ويكون باللسان لكن الله ذكره بعد العلم بالتوحيد.

ولاحظ هنا في الآية فائدة عظيمة وهي: أن الله سبحانه وتعالى جمع بين التوحيد والاستغفار ، والتوحيد والاستغفار هما أعظم الأمور التي يحصل بها غفران الذنوب ، ففي الحديث القدسي حديث أنس بن مالك الذي رواه الترمذي وغيره يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)) ؛ فذكر في هذا الحديث أعظم أسباب مغفرة الذنوب وهي: الدعاء مع الرجاء ، والاستغفار ، والتوحيد .

والتوحيد أساس المغفرة ، ومن لم يكن ذا توحيد فلا مطمع له في مغفرة الله إذا مات على ذلك ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] .

والاستغفار شأنه عظيم في محو السيئات ، ولهذا تأتي أذكار ودعوات نبوية عديدة فيها التوحيد والاستغفار معاً ، مثل دعوة ذا النون جمعت بين الأمرين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] ، ومثل سيد الاستغفار ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوئ لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)) جمع فيه بين التوحيد والاستغفار ، وفي الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه))، وجاء في أحاديث كثيرة يجمع فيها عليه الصلاة والسلام بين هذين الأمرين التوحيد والاستغفار؛ وذلك أنهما أعظم ما ينال به العبد غفران الذنوب ، ولهذا كان حرياً بالعبد أن يُعنى بالتوحيد تحقيقاً له في نفسه ، وأن يعنى أيضاً بطلب المغفرة له ولإخوانه .

قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا أيضاً فيه دلالة على شرف وفضيلة الاستغفار للمؤمنين ، وقد ذكر الله عز وجل ذلك صفةً للأنبياء وصفةً لأهل الإيمان قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠] ، فاستغفارك للمؤمنين شأنه عظيم وثوابه عند الله تبارك وتعالى جزيل ، وقد جاء في الطبراني بإسنادٍ جوَّده بعض أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من استغفر للمسلمين والمسلمات كان له بكل واحدٍ منهم حسنة)) ؛ أي أنك إذا قلت في استغفارك " اللهم اغفر لي وللمسلمين والمسلمات" كان لك بكل مسلمٍ ومسلمة حسنة من الأولين والآخرين ، فهي حسناتٌ بالملايين وليست بالآلاف تفوز بها إذا دعوت هذه الدعوة . فطلب المغفرة لك وللمؤمنين هذه من الدعوات العظيمة ، ويدلك على عظمتها وشرفها أن الله سبحانه وتعالى قرن الأمر بها بالأمر بالتوحيد الذي هو أشرف الأمور وأعظمها على الإطلاق .

قال : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ وهذا أيضاً من براهين التوحيد ودلائله ، ومن الأمور التي تقوي الصلة بالله تبارك وتعالى في كل وقتٍ وحين ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم أحوالكم كلها وتصرفاتكم جميعها لا يخفى عليه منكم شيء ، فالإنسان عندما يغدو في صباحه في أعماله ومصالحه ذاهباً هنا وهناك رب العالمين على علمٍ به ، وإذا ثوى وأوى إلى فراشه ونام في غرفته خالياً وحده أو معه غيره في مكانٍ مظلم الله عليمٌ به ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ؛ فهو جل وعلا عليمٌ بالعباد مطلعٌ عليهم ، ولهذا من الأمور التي تعين الإنسان على تتميم إيمانه وتقوية دينه وتقوية صلته بربه تبارك وتعالى: أن يعلم أن ربه سبحانه وتعالى مطلعٌ عليه أينما كان ، ويراه أينما ذهب ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] ، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] ؛ فعِلم العبد بأن الله سبحانه وتعالى عليمٌ به مطلعٌ عليه هذا أكبر واعظٌ له . وقد ذكر الإمام الشيخ الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أن العلماء أجمعوا على أن أكبر واعظ عِلمك بأن الله عليمٌ بك مطلعٌ عليك ، قال هذا باتفاق أهل العلم أكبر واعظ ، ولهذا ترى أكثر الآيات في القرآن آيات الترغيب وآيات الترهيب تراها مختومةً بهذا «والله بما تعملون خبير»، «والله خبيرٌ بما تعملون» ، «والله بصيرٌ بما تعملون» ، ونحو ذلك من الخواتيم لكثير من آي القرآن الكريم ، وهنا في هذه الآية ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي على كل حال وأينما تكونون ، في الغدو والرواح ، في الليل والنهار ، في كل وقتٍ وحين ؛الله عليمٌ مطلعٌ عليكم لا تخفى عليه منكم خافية ؛ فهذا كله من الأمور التي تعين العبد على تحقيق إيمانه وتتميم دينه وتقوية صلته بربه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله : ((**فبدأ بالعلم قبل القول والعمل**)) أي بدأ هذه الآية الكريمة بالعلم قبل القول والعمل ، وهذا وجه استدلال الإمام البخاري رحمه الله بهذه الآية على بدء العلم وتقديمه على الأقوال والأعمال .

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى تعليقاً على هذا الموضع : «استدل المصنف رحمه الله بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل كما استدل بها البخاري رحمه الله على صحة ما ترجم به ؛ وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأمرين : بالعلم ثم العمل ، والمبدوء به العلم في قوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ؛ فدل على أن مرتبة العلم مقدمةٌ على مرتبة العمل ، وأن العلم شرطٌ في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو مقدمٌ عليهما لأنه مصحِّح النيةِ المصححة للأعمال» أ.هـ

ونكتفي بهذا القدر ، والله تعالى أعلم .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «الأصول الثلاثة» :

اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث هٰذه المسائل والعملُ بهنَّ:

الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورزَقَنا ولم يتركْنا هملاً؛ بل أرسلَ إلينا رسولاً منْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ. والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾[المزمل:١٥-١٦].

الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨].

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢] .

****

فهذه الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التي صُدِّرت بها الأصول الثلاثة ؛ وهي رسالة عظيمة جداً ونافعة للغاية ، جمع فيها المصنف رحمه الله تعالى وغفر له مسائل ثلاثةً عظيمة يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، وأن يعتقد مضمونها ، وأن يعمل بها . وهذه المسائل الثلاث التي جمع المصنف هنا رحمه الله قال عنها الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى وغفر له : «هذه المسائل الثلاث من أهم المسائل التي تتعلق بالتوحيد وحقوقه» ، فهو رحمه الله نبه على أهمية هذه المسائل من جهة ، ونبه من جهة أخرى على موضوع هذه المسائل الثلاث وأنها في التوحيد وحقوق التوحيد . وقد بيَّن المصنف رحمه الله تعالى في هذه المسائل الثلاث :

أولاً : أن الخلق لم يخلقوا سدى وهملاً ، بل خُلقوا للعبادة وأوجدوا للتوحيد ، وبعث الله فيهم الرسل دعاةً إلى الحق والهدى ، وأن من أطاعهم دخل الجنة ، ومن عصاهم دخل النار .

والمسألة الثانية : بيَّن فيها أن الشرك لا يرضاه الله بل يبغضه سبحانه وتعالى ويمقته أشد المقت ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] ، ونهى عن ذلك جل وعلا في آيٍ كثيرة من القرآن الكريم .

والمسألة الثالثة بيَّن فيها رحمه الله ما يقتضيه التوحيد ويتطلبه من البراءة من المشركين وعدم موالاتهم ووجوب بغضهم ومعاداتهم .

فهذه رسالة عظيمة جمع المصنف فيها رحمه الله هذه المسائل الثلاث ؛ بدأها بقوله : ((**اعلمْ رحِمَكَ اللهُ**)) ، وإتيانه بـ «اعلمْ» هذا للتنبيه ، وعرفنا سابقاً أهمية هذه الكلمة وأنه يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة التي يتطلب المقام حسن الانتباه وتمام الإصغاء .

وقوله : ((**رحِمَكَ اللهُ**)) ؛ هذا دعاء لقارئ هذا الكتاب بالرحمة . والدعاء بالرحمة إذا أفرد يتناول غفران الذنوب الماضية والتسديد في الأعمال الآتية ، قال : ((اعلمْ رحِمَكَ اللهُ)) ، وهو هنا رحمه الله جمع بين الدلالة إلى الخير والدعاء بالخير ، وهذا عمل الناصحين ؛ الناصح يدلك إلى الخير برفقٍ وحلم وحسن بيان ويدعو لك أيضاً بالخير ؛ فهذا من علامات النصح .

قال : ((**اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة**)) ؛ قوله : «يجبُ» أي وجوباً عينياً ، لأن هذه المسائل الثلاث من الفروض العينية ، ليست فرضاً كفائياً ، وليست من العلم الذي يكفي أن يتعلمه البعض فيغنون بتعلمه الباقين عن تعلمه ، بل هو من العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف ؛ ذكر كان أو أنثى ، ولهذا قال : ((**يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث لهذه المسائل والعملُ بهنَّ**)) ؛ «تعلم هذه المسائل» أي معرفتهن والدراية بهن والوقوف على أدلتهن مع اعتقاد ذلك والإيمان به ، يتعلم هذا الحق في هذه المسائل الثلاث العظيمة ويعتقد ما دلت عليه .

قال : ((**والعملُ بهنَّ**)) وبهذا يُعلم أن المسائل الثلاث التي سيذكرها المصنف رحمه الله كلهن من الأمور العملية ، ولهذا قال : ((والعملُ بهنَّ)) . والعمل إنما يُذكر ويُطلب في الأمور العملية التي يطلب من الإنسان فيها عمل .

وأمور الإيمان عموماً : علمية وعملية ؛ العلمية : الأمور التي إنما يطلب فيها من العبد العلم والاعتقاد ؛ مثل الإيمان بأسماء الله وصفاته ، والإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى . فتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية هذا من الأمور العلمية ، لكن المسائل التي يتحدث عنها المصنف رحمه الله تعالى كلها أمور عملية مطلوبٌ فيها علم وإضافةً إلى العلم العمل ، وهذا منطبق على كل مسألة من هذه المسائل الثلاث . أنبه على ذلك من أجل أن نلحظ في كل مسألة من المسائل الثلاث الآتية عند المصنف رحمه الله جانب العمل الذي هو مطلوب في كل مسألة من هذه المسائل الثلاث .

قال : ((**اعلمْ رحِمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ ثلاث هٰذه المسائل والعملُ بهنَّ**)) ؛ إذاً هذه المسائل الثلاث فيها كلها جانب عملي مطلوب في كل مسألة من هذه المسائل الثلاث .

قال : ((**الأولى**)) أي المسألة الأولى من هذه المسائل الثلاث الواجبة على كل مسلم ومسلمة .

((**أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا ولم يترُكْنا هملاً؛ بل أرسلَ إلينا رسولاً فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ**)) ؛ «أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا» أي تفرد تبارك وتعالى بخلقنا وإيجادنا من العدم ، وتفرد تبارك وتعالى برزقنا والإنعام علينا وموالاة المنن والنعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل:٥٣] ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] ؛ فتفرد بالخلق أي إيجاد الخلائق من العدم ، وتفرد بالإنعام والرزق والمنّ والعطاء ؛ فلا شريك له في الخلق ولا شريك له في الرزق بل هو وحده تبارك وتعالى المتفرد بذلك كله .

ولم يخلق هذا الخلق ويرزقهم سبحانه وتعالى بأنواع النعم والعطايا والمنن لم يخلقهم ليبقوا هملاً ؛ أي مُهملين معطلين من الطاعة والعبادة والذل والخضوع لله تبارك وتعالى ، ولهذا قال : ((**ولم يترُكْنا هملاً**)) ؛ أي مُهملين دون أن نؤمر أو ننهى، تنزه وتقدس تبارك وتعالى عن ذلك، قال جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] أي لا يؤمر ولا ينهى ، هذا أمر ينزه الرب تبارك وتعالى عنه ؛ فهو خلق الإنسان ومنّ عليه بأنواع النعم وتفضل عليه بصنوف المنن ليقوم بعبادة الله وطاعة الله ، والذل له والخضوع بين يديه ، وتحقيق التوحيد له ، وإفراده سبحانه وتعالى وحده بالعبادة وطاعته جل وعلا فيما يأمر به ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي لا يؤمر ولا يُنهى ؛ فهذا أمر ينزه الله عنه .

والكفار زعموا في الله تبارك وتعالى ذلك ، ولهذا يوم القيامة إذا دخلوا نار جهنم يقال لهم وهم في النار: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ هذه كلمات يسمعها الكافر وهو في قعر جهنم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٧] هذا يُقال للكافر وهو في نار جهنم ، وأقرأ السياق قبل هذه الآيات يدلك على ذلك ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٥] فهذه كلمات تُقال للكافر وهو في النار تقريعاً له وتوبيخاً؛ لأنه ادَّعى في الدنيا أنه مخلوق للعبث ، ولهذا أمضى دنياه وحياته كلها في اللعب والعبث ؛ لا يعبد الله ولا يذل له ولا يخضع له ولا ينكسر بين يديه وأمضى حياته كلها في اللعب فيقال له :

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي للعبث ، أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لا لحكمة ؟! يحتمل المعنى هذا وهذا ، والله عز وجل منزه عن أن يكون خلق الخلق عبثاً أو لعباً أو باطلاً ؛ فهذا كله أمر ينزه الله تبارك وتعالى عنه ، ولهذا في آية أخرى قال جل وعلا : ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص:٢٧] ؛ ظن الذين كفروا أي أن الله خلق الخلق باطلاً ، أنه خلق الأرض والسماوات باطلاً وأنه خلقهما لعباً ، فقال جل وعلا : ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ أي هذه عقيدة الكفار ، ولهذا يقرعون ويوبخون يوم القيامة ويبكَّتون فيسمعون في نار جهنم هذه الكلمات : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ .

الشاهد أن الله عز وجل منزه عن ذلك ؛ منزه عن أن يكون خلق الخلق عبثاً ؛ أي لا لحكمة، أو خلق الخلق ليعبثوا ويلعبوا ولا يخضعوا لله تبارك وتعالى ؛ فهذا أمر الله منزه عنه ، ولهذا قال في الآية التي مرت : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي هذا لا يكون ، بل لن يُترك ، يؤمر ويُنهى وتُرسل إليه الرسل ومن أطاعهم فاز برضا الله تبارك وتعالى وثوابه ، ومن عصاهم باء بسخط الله تبارك وتعالى وعقابه .

قال : ((**ولم يتركْنا هملاً**)) ؛ ومعنى أنه جل وعلا لم يترك الخلق هملاً معنى ذلك أنه خلقهم لغاية ، وهذا بينه في قوله سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] ، وليحقق الناس هذه الغاية بَعَث الرسل وأنزل الكتب كما قال جل وعلا : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] ، وقال جل وعلا : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي قبله وبعده ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحقاف:٢١] هذه مهمة الرسل وهي الدعوة إلى الغاية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها .

ولما كانت هذه الغاية يتم معرفة الناس بها وبتفاصيلها وبحقائقها متوقفٌ على من يبين لهم ذلك ويوضحه اقتضت حكمة الله أن يختار جل وعز من الناس صفوتهم وخيارهم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج:٧٥] فاختار جل وعلا من الناس خيارهم واجتبى سبحانه وتعالى صفوتهم وجعلهم رسلاً مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الله سبحانه وتعالى وهُداة إلى صراطه المستقيم .

فهو جل وعلا لم يخلق الخلق هملاً بل خلقهم ليعبدوه ويوحدوه جل وعلا ويفردوه بأنواع العبادة؛ كيف يعبدونه ؟ ما تفاصيل العبادة ؟ ما أنواع القرب التي يريد جل وعلا عباده أن يقوموا بها ؟ هل من سبيل إلى معرفة الناس بها بدون الرسل ؟ أرسل جل وعلا رسلاً يبينون للناس تفاصيل الشرائع ، وكيف يعبدون الله ، وكيف يقومون بالتقرب

إليه سبحانه وتعالى على الوجه الذي يرضيه ؛ ولهذا لو أخلص إنسان العبادة لله لكنه عبَد الله بغير ما شرع ؛ كأن يقول قائل : "أنا أريد أن أعبد الله مخلصاً له الدين لكن أنا أخترع عبادات من عندي، لن أفعل العبادات التي أرشد إليها المرسلون ، بل سأعبد الله بعبادات من عند نفسي جيدة وحسنة ومفيدة ، ولن أعبد الله بالأشياء التي دعا إليها المرسلون" ؛ لا يقبل الله منه بل يرد عليه عمله ، لأنه سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وموافقاً لشرعه ودينه الذي بعث تبارك وتعالى به رسله .

ولهذا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى بعث المرسلين ، والمرسلون مهمتهم بيان ما أرسلوا به ، لا يأتون بشيء من عند أنفسهم بل يبلغون الناس ما أرسلوا به ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور:٥٤] ؛ فيأتون بالأوامر والنواهي في حدود ما أمرهم الله سبحانه وتعالى به لا يزيدون ولا ينقصون ، بلَّغوا البلاغ المبين ، وما تركوا خيراً إلا دلوا أممهم عليه ، ولا شراً إلا حذروا أممهم منه ؛ فهم رسل الله جل وعلا ، والرسول مهمته إبلاغ كلام مرسله .

إذاً الله جل وعلا لم يخلق الخلق هملاً ؛ لا حظ التدرج في البيان ؛ أولاً : بيّن أن الله خلقنا ورزقنا ؛ يعني تفرد في ذلك ، ثم بيّن أن خلْق الله جل وعلا للإنسان وإيجاده له ليس هملاً أو سدى أو باطلاً أو عبثاً أو لعباً –تنزه الله وتقدس عن ذلك كله– ، والأمر الثالث : هو أن الله جل وعلا أرسل رسلاً للعباد يبين لهم الغاية التي خُلقوا لأجلها ويبينوا لهم وجوب توحيد الله وإفراده بالعبادة ، ويبينوا لهم أنواع العبادة التي يتقربوا بها إلى الله سبحانه وتعالى ويفردوه سبحانه وتعالى بها ، ولهذا يقول : ((**بل أرسلَ إلينا رسولاً فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ**)) .

هنا الناحية العملية في هذه المسألة وهي المسألة الأولى طاعة الرسول ؛ ولهذا خلاصة هذه المسألة ومقصودها: طاعة الرسول ، لأن الله لم يخلق الخلق هملاً ولم يتركهم سدى بل أرسل إليهم رسلاً ، فما الواجب على العباد إذا عرفوا أنهم لم يُخلقوا هملاً وأنهم خُلقوا للعبادة وأن الله أرسل إليهم رسلاً يبينوا لهم ذلك فما هي مهمة العباد حينئذ ؟ طاعة الرسول .

إذاً فحوى هذه المسألة –وهي المسألة الأولى– طاعة الرسول ، والله جل وعلا يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ، الله جل وعلا أرسل الرسل ليطاعوا فيما يأمروا به ، وليكونوا أئمة للناس وقدوة لهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١] ، فالرسل هم الأئمة وهم الهداة وهم دعاة الحق والهدى وهم أنصار دين الله تبارك وتعالى ، وهم الذين يبينون للناس شرع الله ودينه ؛ فالسبيل إلى الله ونيل رضاه ودخول جنته لا يكون إلا من طريق المرسلين ، ومن طلب رضا الله من غير طريق المرسلين لن يفوز برضا الله ، لا يمكن أن يفوز برضا الله تبارك وتعالى إلا من طريق المرسلين ؛ يعرف شرع الله ودينه وماذا يريد سبحانه وتعالى من عباده من طريقهم وبواسطتهم ؛ فيعبد الله على بصيرة وعلى بينة .

فالرسل أرسلهم الله تبارك وتعالى ليطاعوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، والناس مع الرسل فريقين: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[النحل:٣٦] «منهم من هدى الله» وهم الذين اتبعوا المرسلين ، «ومنهم من حقت عليه الضلالة» وهم من لم يتبعوا المرسلين ؛ أياً كان كفرهم وأياً كان ضلالهم ، من لم يتبعوا المرسلين سواء كان عناداً أو إباء أو نفاقاً أو استكباراً أو غير ذلك ، فمن لم ينقد للمرسلين ويتبع ما جاءوا به لا يفوز برضا الله سبحانه وتعالى ، لأن رضا الله ودخول جنته له باب واحد وهو اتباع المرسلين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)) سبحان الله! من الذي يأبى؟! من الذي يُقال له : تعال أدخل الجنة يقول لا أنا لا أريد ، أنا أريد النار؟! ، ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)) أمر عجيب أليس كذلك ؟ قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ من يقال له : ادخل الجنة ويأبى يقول : أنا أريد النار ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ لأن هذا أمر عجيب جداً قال : ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) الأمر واضح وضحه عليه الصلاة والسلام قال : ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) . إذاً من يعصي الرسول عليه الصلاة والسلام معنى ذلك أنه اتخذ قرار؛ أبى على نفسه أن تدخل الجنة ، حرم نفسه من دخول الجنة ، لأن الجنة لا تُدخل إلا من طريق الرسل ، هم الذين يبينون سبيل دخول الجنة ويبينون الأمور التي ينال بها رضا الله ويُجتنب بها سخطه سبحانه وتعالى ، قال : ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) ؛ يعني أبى على نفسه أن تدخل الجنة .

ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام على نوعين :

١. معصية له في أصول الإيمان وأركان الدين؛ وهذه المعصية يترتب عليها الانتقال من الملة والخروج من الدين .
٢. ومعصية للرسول عليه الصلاة والسلام فيما دون ذلك بارتكاب بعض الكبائر التي هي دون الشرك والكفر بالله ، أو ترك بعض الواجبات التي لا يصل الأمر بتركها إلى الكفر بالله تبارك وتعالى ؛ فهذه معصية دون ذلك وهي أيضاً يستحق بها فاعلها النار وسخط الله تبارك وتعالى عليه ، لكنه إذا دخل النار يدخلها دخول تطهير وتنقية لا دخول تخليد كما هو حال الكافر .

قال : ((**بل أرسلَ إلينا رسولاً**)) ؛ المراد «إلينا» أي نحن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، والمراد بالرسول المرسل إلينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

قال : ((**بل أرسلَ إلينا رسولاً**)) أي منَّ علينا بهذه المنة وأكرمنا بهذه الكرامة وتفضل علينا بهذه النعمة وهي بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لنا رسولاً وداعياً إلى الله بإذنه صلوات الله وسلامه عليه وسراجاً منيراً ، ومن نعمة الله علينا أمة الإسلام أن نبينا خير الأنبياء وأفضل المرسلين ، وخصه الله تبارك وتعالى بخصائص لم يحصل عليها ولم

يُعطها نبي قبله ، وأيضاً أكرم أمته –سبحانه وتعالى– بكرامات لم تعطها أمة من الأمم ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((نحن الآخرون الأولون)) ، فالله جل وعلا أكرمه بكرامات ومنّ عليه بعطايا لم يعطها نبي قبله وهي معروفة عند أهل العلم بخصائص النبي عليه الصلاة والسلام وأفردت بمصنفات خاصة ، وأعطيت أمته عليه الصلاة والسلام أموراً وخصائص لم تعطها أمة من الأمم قبل أمته صلى الله عليه وسلم . فيجب على المسلم أن يستشعر نعمة الله عليه وفضله سبحانه وتعالى عليه ومنَّه عليه بأن جعله من أتباع هذا الرسول الكريم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] .

فأرسل إلينا جل وعلا رسولاً رحيماً –كما وصفه الله– رؤوفاً كريماً ، ناصحاً ، أميناً ، مبلغاً عليه الصلاة والسلام البلاغ المبين ، مجاهداً في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دلّ أمته عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه ، نصح عليه الصلاة والسلام أتم النصح ، وبيّن أكمل البيان صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**أرسلَ إلينا رسولاً منْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ**)) ؛ منْ أطاعَهُ : أي من أطاع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فيما يدعو إليه من التوحيد والخضوع لله وفعل أوامره والانتهاء عن نواهيه دخل الجنة ، ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ ؛ وهذا معنى قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)) قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) أي أبى على نفسه دخول الجنة .

هذه المسألة كما قدمت تتلخص في وجوب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومهَّد لهذه الطاعة بمقدمات وتمهيدات بين من خلالها أن الله عز وجل خلقنا ورزقنا ، وبيَّن أنه لم يخلقنا هملاً لا نؤمر ولا ننهى ، وأنه سبحانه وتعالى أرسل إلينا رسولاً ؛ ينتج من هذه المقدمات الثلاث نتيجة عملية مطلوبة من الجميع وهي طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الجنة ، ومن عصى الرسول صلى الله عليه وسلم دخل النار .

ما الدليل على هذه المسألة ؟ وعرفنا فحوى المسألة ومقصودها وهو طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما الدليل على هذه المسألة ؟

قال : ((**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾**[المزمل:١٥-١٦])) هذا هو الدليل على هذه المسألة. والمسألة عرفناها بالممهدات والمقدمات لها وأن خلاصة هذه المسألة طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام . الدليل على وجوب طاعته صلوات الله وسلامه عليه ما هو ؟

قال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً﴾ هو محمد عليه الصلاة والسلام ، الرسول هنا المراد به محمد صلى الله عليه وسلم والمراد «إِلَيْكُمْ» أي أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي شاهداً عليكم بأعمالكم ؛ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] أي شهيداً عليكم بأعمالكم .

قال : ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ ؛ إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام إليكم ليس بدعاً من الأمر ؛ أمم مضت قبلكم وبُعث إليهم رسل ؛ وكانت العواقب الحميدة لمن أطاعوا المرسلين ، والعواقب الوخيمة لمن عصوا المرسلين . ومثال على ذلك – هذا مثال – مثال على ذلك لتوضيح المقام وبيان الأمر قال : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ . وهنا المثال الذي سيق هنا سيق مساق التحذير الشديد من عصيان الرسول.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾) أطيعوه ، امتثلوا أوامره ، اتبعوه ، احذروا أن تكونوا عصاةً له ، احذروا من ذلك ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ ماذا حصل له ؟ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ ما المراد بهذا المثل ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ ؟ أي انتبهوا ، احذروا ، إياكم وعصيان الرسول فإن عصيان الرسول هلاك ودمار ، والأمثلة على ذلك في التاريخ كثيرة لا حد لها ، ومن الأمثلة هذا المثل العجيب قال : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ يعني كان موقف فرعون من هذا الرسول الذي هو موسى عليه الصلاة والسلام كان موقفه منه العصيان ؛ عصاه لم يستجب له لم يقبل دعوته ، رد وكذّب ما جاء به واتهمه بأنواع التهم ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ ماذا حصل ؟ ما النتيجة التي باء بها فرعون ؟

قال : ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ ما هو هذا الأخذ الوبيل ؟ جاء مبيناً بالقرآن في آي كثيرة منه ، والأخذ الوبيل الذي بُين في القرآن الكريم والذي حصل ويحصل لفرعون هو أخذٌ وبيل في الدنيا ، وفي القبر –في البرزخ– ، ويوم القيامة .

❖ أما في الدنيا : فإن الله سبحانه وتعالى أهلكه بالغرق ، وكان من تكبره وتعاليه وتعاظمه وتفاخره على الناس قوله فيما كان يفخر به ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف:٥١] فعاقبه الله سبحانه وتعالى بالغرق، وكان إهلاكه بالغرق عجب العجاب وآية من آيات الله سبحانه وتعالى العظيمة ، لأنه لما ذهب موسى عليه السلام ومن معه فراراً من فرعون وقصده قتلهم وانطلق فرعون وجنوده خلف موسى ومن معه إلى أن وصل موسى ومن معه إلى البحر ؛ التفت من مع موسى إلى الوراء وإذا فرعون وجنوده وعتاولته مقبلين عليهم ، عاينوا الموت ؛

البحر أمامهم محيط بهم ، وفرعون وصل إليهم بجنوده ، وهم قلة وعُزّل ولا طاقة لهم بفرعون وجنوده ، فماذا قالوا؟ قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء:٦١-٦٢] ، البحر أمامهم وفرعون وصل إليهم وموسى عليه السلام بكل ثقة وإيمان بالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ؛ فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب بعصاه البحر ؛ فضرب بعصاه البحر فماذا حصل ؟ الماء السيال وقف وأصبح الماء جبالاً واقفة ، الماء السائل أصبحت جبالاً واقفة ، والأرض التي كانت رطبة ووحل وطين أصبحت يابسة ، في لحظة واحدة ضرب بعصاه البحر فوقف الماء مثل الجبال! واقف الماء مثلما يقف الجبل ، والأرض يابسة ﴿ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾[طه:٧٧] الأرض يابسة يعني جافة ليس فيها رطوبة ولا وحل ، إذا نزحت الماء من وادي أو من أرض ممتلئة بالماء يبقى مكانها وحل لا ينشف إلا بعد وقت ، في نفس اللحظة يضرب فيقف الماء والأرض تيبس!! آية من آيات الله ، فيمر موسى عليه السلام ومن معه مع هذا الطريق اليبس ، والماء واقف عن يمينهم وواقف عن يسارهم ويمرون يمشون بين الماء ، الماء يرونه واقف عن اليمين وواقف عن اليسار مثل الجبال ، آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى ، والأرض يابسة! ثم يمر موسى عليه السلام ومن معه كلهم إلى الضفة الأخرى والجهة الأخرى ، ثم يأتي فرعون يريد أن يدرك موسى ومن معه ويدخل هو وجنوده ، فلما تكامل موسى ومن معه خروجاً من البحر ، وتكامل فرعون ومن معه دخولاً في البحر ؛ أمر الله الماء أن يعود كما كان ، وهلك فرعون ومن معه هلاك نفس واحدة ، هو وهؤلاء الجنود وهذه الأعداد المهيلة كلهم هلكوا هلاك نفس واحدة ؛ هذا من الأخذ الوبيل في الدنيا .

❖ في القبر – في البرزخ – كل يوم يعرضون على النار ؛ من حين موته ومن معه إلى يومنا هذا إلى أن تقوم الساعة وهم يومياً صباح مساء يعرضون على النار ، هذا من الأخذ الوبيل ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾[غافر:٤٦] هذا في القبر ؛ يُعرضون على النار في قبورهم في الصباح والمساء، اليوم هذا صباحاً ومساء عُرض فرعون ومن معه على النار ، عبر القرون المديدة والسنوات الطويلة صباح ومساء يعرضون على النار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ يعني صباح مساء ؛ هذا في القبر ، هذا من الأخذ الوبيل في البرزخ .

❖ يوم القيامة ماذا سيكون ؟ أشد ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ نكال ووبال وعقاب باء به في الدنيا ، وباء به في القبر ، ويبوء به يوم القيامة كل ذلكم لماذا ؟ لأنه عصى الرسول .

هنا يأتي سؤال : لِمَ ذكر الله لنا ذلك ؟ لِمَ ذكر لنا جل وعلا هذا الخبر؟ هل ذكره جل وعلا مجرد معلومة نتعرف عليها ؟ أَلِأجل ذلك ذكره مجرد معلومة نتعرف عليها ونعلمها ؟ لا ، في جانب عملي مطلوب منا؛ وهو أن نطيع

رسولنا عليه الصلاة والسلام ولا نعصيه ، لأن الذي يعصي الرسول يأخذه الله سبحانه وتعالى الأخذ الوبيل ويعاقبه العقاب الشديد . فالفوز برضا الله سبحانه وتعالى لا يكون إلا بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن لم يطع الرسول أخذه الله تبارك وتعالى الأخذ الوبيل ؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن في باب طاعة الرسول قال : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء:١٣] ، وفي المعصية – معصية الرسول – قال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء:١٤] .

فإذاً هذا جانب عظيم وهذه مسألة كبيرة جداً ومهمة للغاية يجب على كل إنسان أن ينتبه لها وأن يعرفها وأن يعمل بها ؛ وهي: أن يدرك أن الذي خلقه هو الله، وأن الذي يرزقه هو الله ، وأن الله تبارك وتعالى لن يتركه هملاً بل أرسل إليه رسولاً ، والواجب عليه طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ولزوم ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، ومن أطاع الرسول دخل الجنة ، ومن عصى الرسول دخل النار .

ثم بعد ذلك ذكر رحمه الله تعالى المسألة الثانية من المسائل الثلاث .

قال : ((**الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل**)) أي فضلاً عن غيرهما ومن هو دونهما ، لأن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين لهم المكانة العلية عند الله والمنزلة الرفيعة عنده سبحانه وتعالى ، فإذا كان جل وعلا لا يرضى أن يُعبد معه غيره من الملائكة ، ولا يرضى أن يُعبد معه غيره من النبيين فغيرهم من باب أولى ، فالعبادة حق له ، خلق الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها ، فلا يرضى سبحانه وتعالى أبداً أن يُجعل معه شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها ، لا يرضى ذلك سبحانه وتعالى أبداً .

قال : ((**أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه**)) ؛ أن يُشْرك معهُ : أي أن يُجعل معه شريك ، والشريك هو المساوي والعِدْل ، فلا يرضى سبحانه وتعالى أن يُجعل معه شريك في العبادة . والعبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالعبادات كلها حق لله ؛ الصلاة بركوعها وسجودها ، الدعاء ، الذبح ، النذر ، الخوف ، الرجاء ..الخ ، هذه كلها عبادات وهي حق لله سبحانه وتعالى ، لا يرضى عز وجل أن يُصرف منها شيء ولو قليل لغيره؛ لا للملائكة المقربين ولا للأنبياء المرسلين ولا لغيرهم من باب أولى ، لأن مكانة الملائكة عند الله عظيمة ، ومكانة الأنبياء عند الله عظيمة ولهم جاه عند الله سبحانه وتعالى ، ومع هذا لا يرضى سبحانه أن يُجعل له شريك في العبادة وفي حقوقه ، لا من الملائكة الذين لهم مكانة عنده ، ولا أيضاً من الأنبياء الذين لهم مكانة عنده ، ولا أيضاً ممن غيرهم ممن هم دون هؤلاء بمراحل ومراحل .

قال : ((**أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه**)) هذا فيه أن العبادة حق لله جل وعلا لا شريك له في ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام في حديث معاذ : ((يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على

الله ؟)) قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال : ((حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) ما مفهوم هذا الحديث ((وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً))؟ مفهومه : أن من يشرك بالله يعذبه الله ولا يغفر الله سبحانه وتعالى له ذنبه ، لأنه لا يرضى جل وعز أن يُشرك به ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] والإسلام قائم على التوحيد ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠] وملة إبراهيم التوحيد ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] . الله جل وعلا لا يرضى الشرك ولا يقبله ، وقال جل وعلا : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ؛ الإسلام : هو توحيد الله وإخلاص الدين له .

فهو لا يرضى جل وعلا إلا التوحيد ، أما الشرك لا يرضاه سبحانه وتعالى ؛ حتى ولو كان الذي جُعِل شريكاً مع الله ملك من الملائكة ، حتى ولو كان الذي جُعِل شريكاً مع الله نبي من الأنبياء ، ولو كان سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، الله لا يرضى سبحانه وتعالى أن يُجعل معه شريك لأن العبادة حق له وحده سبحانه ، العبادة حق لله تبارك وتعالى وحده لا شريك له فيها ، ليس لله شريك في هذا الحق ، هو حق لله جل وعلا على العبيد ؛ فلا يرضى أن يُشرك به لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم .

فيما يتعلق بالأنبياء تأتيك آيات في القرآن كثيرة تبين لك أن الأنبياء لا حق لهم في هذا ، الحق لله وحده سبحانه وتعالى ، والعبادة له جل وعلا وحده ؛ ولهذا تقرأ في آيات كثيرة تبين أن هذا الأمر لله ليس للأنبياء فيه شيء ، بل الآيات صريحة مثل قوله تعالى لنبيه : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] الأمر لله جل وعلا ، وهو عليه الصلاة والسلام يبين ذلك في مقامات كثيرة ؛ يقول : ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)) ، سمع مرة عليه الصلاة والسلام رجل يقول : "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" قال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، روى الحاكم في المستدرك أن أسيراً جيء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ثم أعلن توبته قال : "أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد" قال : ((عرف الحق لأهله)) ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] ، سمع أقواماً يطرونه عليه الصلاة والسلام فقال عليه الصلاة والسلام : ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها)) ، وقال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) .

فيما يتعلق بالملائكة تجد آيات كثيرة جداً تبين لك أن الملائكة ليس لهم في هذا الأمر حق وأنهم عبيد لله جل وعلا ، ولهذا في مقام التحذير من الشرك في سورة سبأ قال الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي الملائكة ، وهذا بيان أن هذا الخلق العظيم الملائكة ليس لهم من الأمر شيء وأنهم ضعاف فقراء إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٢-٢٣] ، جاءت السنة مفسرة ومبينة لهذه الآية ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((إذا تكلم الله بالوحي خرت الملائكة صعقة خضعاناً لقوله جل وعلا)) تصعق الملائكة ، ثم إذا زال الصعق والفزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؛ أهؤلاء تُصرف لهم العبادة ؟ يصرف لهم الذل والخضوع والانكسار والرغب والرهب والرجاء والطمع ؟ لا والله ، العبادة حق لله سبحانه وتعالى . الملائكة مع قوتهم ، مع كبر أجسامهم ، مع القدرة التي أعطاهم الله إياها ما يستحقون من العبادة أي شيء .

والناس في هذا الباب يفتنون ، وأكثر ما يفتن الناس في باب الشرك عندما يرون أشياء خارقة للعادة ، فكيف تكون حال كثير من الناس لو رأوا ملَك بقوته وشدته وما أعطاه الله من القدرة؟ سبحان الله ! فالأمر والعبادة حق لله جل وعلا . عندما يخرج الدجال في آخر الزمان يخرج على هيئة مبينة في السنة ؛ أعور ، ومكتوب على جبهته: كافر «ك ف ر» لا يراها إلا المؤمن ، ويمر على المدن وعلى القرى ويأمرهم باتباعه ، إن اتبعوه وأطاعوه أمَر السماء أن تمطر فتمطر ، يقول للسماء أمطري فينزل المطر ، ويقول للأرض أنبتي فيخرج النبات ، وإذا قال لقرية اتبعوني فأبوا قال لكنوز القرية وخيراتها اتبعيني فتمشي الكنوز وراءه ، وكل من يمر عليهم يقول : أنا ربكم ؛ هل يُصدّق ويُقال نعم أنت ربنا ويعبد ؟!

ولهذا كثير من الناس –نسأل الله العافية والسلامة والثبات على الحق– يفتنون في دينهم وتوحيدهم بالخوارق والأشياء التي تبهر على العقول ، وكم من الدجاجلة لبّسوا على العوام ، إذا كان هذا هو الدجال الأكبر ففيه قبله دجاجلة كثيرون فتنوا الناس في أديانهم ولبّسوا عليهم وكانت معهم الشياطين عوناً لهم ؛ فيأتون بأشياء خارقة للعادة فيُذهل العوام وتطيش عقولهم ثم يطيعون هؤلاء في كل ما يأمرونهم به ، ولو قالوا لهم اسجدوا لنا سجدوا لهم ، ولو قالوا لهم ادعونا من دون الله دعوهم من دون الله ، وهذا حصل في خلق كثيرون؛ يُصرفون عن التوحيد ويفتنون عما خلقوا لأجله بمثل هذه الأمور .

فلهذا من أوجب الواجبات ومن أعظم العلوم التي ينبغي على المسلم أن يتعلمها هذا العلم الذي يتحدث عنه الشيخ في هذه المسألة قال : ((**اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ**)) كائناً من كان بأي مبرر كان ، أي صفة كانت لا يرضى الله سبحانه وتعالى أن يشرك معه أحد ((**لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل**)) أي فضلاً عن غيرهما .

ما الدليل ؟ الأدلة كثيرة على ذلك ، لكن هذه الرسالة ليست من الرسائل المطولة التي تبسط فيها الدلائل ، هذه رسالة مختصرة ؛ ولهذا نلاحظ أن الشيخ يذكر المسألة ودليل واحد ، لأن المقام مقام رسالة مختصرة تنشر بين عموم الناس حتى يقفوا على المسألة بدليلها من كتاب الله سبحانه وتعالى ، فهذا دليل واحد من عشرات ومئات الأدلة اقتضاه مقام هذه الرسالة وهو مقام الاختصار .

قال : ((**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**[الجن:١٨])) «أَحَدًا» ما هي هذه الكلمة ؟ هذه نكرة في سياق النهي «لا تدعوا » نكرة في سياق النهي ؛ هل يخرج من سياق النهي أحد ؟ هل الملائكة يخرجون من هذا النهي ؟ الأنبياء يخرجون ؟ الأولياء ؟ أياً كان هل يخرج أحد من هذا النهي ؟ حاشا وكلا

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي أحد كان لا من الملائكة المقربين ولا من الأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من المخلوقات ؛ فالدعاء –سواءً دعاء العبادة أو دعاء المسألة– هذا كله حق لله سبحانه وتعالى ليس له شريك في ذلك .

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ «الْمَسَاجِدَ» قيل أماكن السجود ، وقيل أعضاء السجود ؛ وهذه كلها لله {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} إن كان المساجد المراد بها أماكن السجود فيكون المعنى فلا تسجدوا فيها لأحد غير الله ، وإن كان المراد بالمساجد أعضاء السجود فلا تسجدوا بها لأحد غير الله .

المساجد لله ، أي أماكن السجود لا يُسجد فيها إلا لله ((جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) ، والمساجد أي أعضاء السجود لله لا يُسجد بها إلا لله ، قال : ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ؛ أي لا تجعلوا مع الله تبارك وتعالى شريكاً في العبادة أياً كان .

فهذه مسألة عظيمة وكبيرة ومهمة ، وكم من الخلائق غفلوا عنها ! وكم من الناس صُدوا عن هذا الحق وعن هذا الهدى! بأنواع من الحيل وصنوف من الدجل والاستخفاف بعقول الجهال حتى صُرفوا عن هذا الحق المبين والتوحيد الخالص .

فإذاً من المسائل العظيمة الجليلة الكبيرة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعرفها: أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته أي أحد كان ، الدليل : ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ . ولاحظ الشيخ رحمه الله في كل المسائل في هذا الكتاب وفي كل الكتب يمشي مع الكتاب والسنة خطوة خطوة ، كلمة كلمة ، حرفاً حرفا مع كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه . إذاً هذه المسألة الثانية .

المسألة الأولى : طاعة الرسول ؛ ذكرها رحمه الله بعد مقدمات بين يديها

والمسألة الثانية : توحيد الله وإخلاص الدين له ، وأنه سبحانه وتعالى لا يرضى أن يُشرك معه أحد في العبادة .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له والشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدليلُ قوله تَعَالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢] .

****

فهذه المسألة الثالثة من المسائل الثلاث التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، وأن يعتقد مضمونها ، وأن يعمل بها .

والمسألة الأولى عرفناها وهي : طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلق ورزقهم ولم يتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم الرسل ، فمن أطاعهم دخل الجنة ، ومن عصاهم دخل النار.

والمسألة الثانية : توحيد الله وإخلاص الدين له ، والبراءة من الشرك والخلوص منه ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يرضى من عباده إلا التوحيد ، ولا يرضى الشرك ، ولو كان الذي أُتخِذ شريكاً مع الله ملَكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً ، فالله جل وعلا لا يرضى الشرك ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨] ، فهو جل وعلا لا يرضى إلا التوحيد ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

فلما ذكر رحمه الله تعالى المسألتين الأولى والثانية ؛ ذكر المسألة الثالثة ، وهي مترتبة على المسألتين الأوليين ومنبنية عليهما ، وهي بُغض الكافرين وعدم موالاتهم وتوليهم وعدم محبتهم ؛ فإن هذا أمرٌ لابد منه ولا يستقيم الإيمان إلا به، فمن كان مطيعاً للرسول صلى الله عليه وسلم حقاً وموحداً لله تبارك وتعالى صدقاً فإنه يجب عليه أن يبغض أعداء الله وأعداء دينه وأن يبغض الكافرين المشركين ، لأن الإيمان والتوحيد والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام لا تستقيم إلا بذلك ، فلا يمكن أن يكون مطيعاً للرسول عليه الصلاة والسلام وموحداً لله تبارك وتعالى ثم تكون

نفسه محبةً للكافرين موالية لهم غير مبغضٍ لهم ، هذا لا يوجد ، كما يأتي معنا في الآية الكريمة ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ ، فإذا وُجد الإيمان الصحيح والتوحيد ووُجد الطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام فإن من لوازم وجود ذلك ومقتضياته أن يكون مبغضاً للكافرين .

والكافر رب العالمين يبغضه ولا يحبه قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[الروم:٤٥] ، والكافر أشد الناس ظلماً لأن ظلمه وعدوانه في حقوق الله على عباده، قال الله تعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، والكافر هضم بظلمه حقوق الله على عباده وما خلقهم تبارك وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، والكافر أمر الله سبحانه وتعالى في آيٍ كثيرة من القرآن ببُغضه وعدم توليه ، وذكر الله جل وعلا ذلك في مقتضيات الإيمان حيث تُبدأ الآيات في هذا الباب بـ {يا أيها الذين آمنوا} .

فبناء على هذا لا يستقيم الإيمان بالله وتوحيده سبحانه وتعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام إلا ببغض الكافرين المشركين وعدم موالاتهم والبراءة منهم وبُغضهم في الله سبحانه وتعالى ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله)) وقال عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)) .

والله جل وعلا ذكر لنا في هذا الباب أسوة وهم رسله وأنبياءه ، ويجب علينا أن نأتسي بهم وأن نجعلهم أئمة لنا وأن تقتدي بهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤] فأعلنوا البراءة من الكافرين وأعلنوا البراءة مما يعبده الكافرون من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ ففيها براءة إبراهيم عليه السلام وبراءة أهل الإيمان معه من الكافرين ومما يعبدون من دون الله وإعلان ذلك ، وذكر الله جل وعلا لنا هذا في مقام الاتساء والاقتداء قال : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يأتسي بإمام الحنفاء وأن يقتدي به ، والله يقول : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠] أي إلا من حكم على نفسه بالسفَه والغي .

فهذا بابٌ عظيم من أبواب الدين وقواعده التي يجب وينبغي على كل مسلم أن يتعلمه، وأن يعتقد مضمونه ، وأن يعمل به –كما نصّ على ذلك المصنف رحمه الله في أول هذه المسائل– فهذا واجب ديني ومطلب إيماني ، وهو من مقتضيات التوحيد ولوازمه ؛ أن يكون المسلم مبغضًا للكافرين ، وألا يتخذ أحداً منهم ولياً يحبه ويتولاه ويوادُّه

ويصافيه، بل الواجب عليه أن يبغضه وأن يتخذه عدواً ، وكيف لا يتخذ المسلم الكافر عدواً والكافر عدو لله ؟! فلا يجتمع إيمانٌ بالله جل وعلا وحبٌ لأعدائه ؛ ولهذا جاء في القرآن آيات عديدة تقرر هذا الأمر ووجوب البراء من الكافرين ووجوب بغضهم وعدم موالاتهم .

وفي القرآن الكريم آيات ثلاث في هذا الباب – باب بُغض الكافر وعدم موالاته – كل آية منها تبدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ؛ الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث فيها عدم اتخاذ أياً من الكافرين عموماً ولياً ، والآية الثانية فيها التنصيص على اليهود والنصارى من الكفار. الآية الأولى عامة في عموم الكفار كل كافر ، والآية الثانية خصت النصارى واليهود بالذكر ، والآية الثالثة خصت القرابة من الكافرين ؛ أباً أو أخاً أو غيرهما .

❖ الآية الأولى: هي قول الله : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[الممتحنة:١] ؛ فهذه عامة في كل كافر عدو لله ، وكل كافر بالله فهو عدو لله سبحانه وتعالى ومبارزٌ لرب العالمين بالعداوة ، لأن الله سبحانه وتعالى خلَقه ليعبدَه وأوجده ليذلَّ له ويخضع ويصرف له العبادة وحده دون سواه ، فلما أضاع حقوق الله وصرفها لغيره ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعا ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً صار بذلك عدواً لله بغيضاً لله ؛ يبغضه الله ولا يحبه فإنه لا يحب الكافرين سبحانه ، وهو جل وعلا لا يرضى الكفر ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[الزمر:٧] ، فهذه في كل كافر .

❖ والآية الثانية: قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] ؛ فهذه فيها تخصيص النصارى واليهود بالذكر ، وأن الواجب على المسلم أن لا يتخذ أحداً من اليهود والنصارى ولياً ، ولا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ؛ لأنهم كفار بالله ، والله سبحانه وتعالى حكم بكفرهم وعداوتهم له في آيات من الكتاب العظيم .

❖ والآية الثالثة: قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[التوبة:٢٣] ؛ فخص هنا بالذكر الإخوان والآباء ، وهذا يتضمن عموم القرابة من الأعمام والأخوال ونحو ذلك من القرابة .

فلا يحل ولا يجوز لمؤمنٍ أن يتولى أحداً من الكافرين وأن يوالي أحداً من الكافرين ، بل يجب أن يكون في قلبه بُغضٌ لهم وكراهية لهم ، وأن يتخذهم أعداء ويعتبرهم أعداء كما هو مبين في آي كثيرة ومواضع عديدة من كتاب الله تبارك وتعالى ؛ وهذا هو مقتضى الإيمان بالله جل وعلا وتوحيده ولازم طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى في هذه المسألة العظيمة قال : ((**أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ**)) وهذه المسألة الأولى

((**ووحَّدَ اللهَ**)) وهذه المسألة الثانية ((**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ**)) ؛ «لا يجوزُ لهُ» أي: يحرم عليه ولا يحل له موالاة من حاد الله ورسوله .

والموالاة : هي الموادة والمصادقة والمحبة ؛ فهذا أمرٌ لا يحل له . وضد الموالاة : المعاداة والمحادة والبغضاء ، وهذا هو الواجب . فقوله في الآية : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ نفي ذلك إثبات لضده ، فقوله : ((لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ)) أي يجب عليه أن يبغضهم ، فضد الموالاة : المعاداة والبغضاء ؛ وهذا الذي يجب على كل مسلم ومسلمة .

قال : ((**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ**)) ؛ المحادة : هي المجانبة والمخالفة ، والذي حاد الله ورسوله كأن المعنى والمراد – كما قرر ذلك بعض أهل العلم – أي من كان في حد غير الحد الذي أمره الله سبحانه وتعالى وأمره رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون عليه ، ولهذا الناس في حدين :

- المؤمنون في حد الله ورسوله ؛ أي فيما حده الله لهم ورسوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾[النساء:١٣] ، فالمؤمن فيما حده الله له وحده له رسوله صلى الله عليه وسلم .
- والكافر في حد الشيطان وجنوده .

فـ «حاد الله ورسوله» أي: كان في محادة ومعاداة ومجانبة لما أمره الله سبحانه وتعالى به من التوحيد ، ولما يجب أن يكون عليه مع الرسول من الطاعة ؛ ولهذا قال : ((**لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ**)) يعني ولو كانت تجمعه به رابطة قرابة قوية ،كأن يكون مثلاً أباً أو أماً أو ابناً أو بنتاً أو أخاً أو أختاً أو عماً أو خالاً أو عمة أو خالة أياً كانت قرابته إذا كان كافراً بالله تبارك وتعالى لا يجوز له موالاته ولو كان أقرب قريب ، وإذا كان الكافر القريب من أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو عمٍ أو خال لا تجوز موالاته فالكافر البعيد من باب أولى ، لأن هذا يجمعه به قرابة ولها مقتضياتها ولها متطلباتها ومع ذلك يُخص بالذكر في هذه الآية وفي الآية التي مرت ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، فالذي يستحب الكفر على الإيمان ويكون كافراً بالله سبحانه وتعالى لا تجوز موالاته بل يجب بغضه، يجب أن يكون في القلب بُغض له ومجانبةٌ له وعدم محبة له وموالاة؛ هذا هو الواجب.

قال : ((**ولو كان أقْرَبَ قريبٍ**)) ؛ لو كان أقرب قريب –كما أشرنا – ولو كانت القرابة شديدة .

ثم ذكر رحمه الله تعالى الآية الدالة على ذلك ، وأشرت فيما سبق أن الرسالة مختصرة ليس المقام فيها مقام بسط وإطناب ، وإنما المقام مقام إيجاز واختصار ؛ فيذكر المسألة ويذكر عليها دليلاً واحداً مراعاة للاختصار ، وإلا الأدلة على هذه المقاصد التي يذكرها في رسالته هذه في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بالعشرات إن لم تكن بالمئات .

قال : ((**والدليلُ قوله تَعَالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾**)) ، «لاَ تَجِدُ» الخطاب موجه لنبينا صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿لَا تَجِدُ﴾ ؛ أي أيها النبي ﴿قَوْمًا﴾ ؛ أي جماعة وطائفة ، والحكم كذلك ينسحب على الأفراد .

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني من صفتهم الإيمان بالله واليوم الآخر ثم في الوقت نفسه يوادون من حاد الله ورسوله ؛ أمران لا يجتمعان في قلب ، لأن من لوازم ومقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر ألا يوالي الكافر ولو كان أقرب قريب ، ولهذا قال : ﴿لَا تَجِدُ﴾ أي لا يوجد ، فالذي يؤمن بالله واليوم الآخر مقتضيات إيمانه ولوازم إيمانه أن يبغض الكافر وأن لا يتولى كافراً ولو كان أقرب قريب .

وقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ؛ كثيراً ما يُجمع بين هذين الإيمانين : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر في القرآن والسنة ، وذلك لأن الإيمان بالله هو الغاية المقصودة ، وهو أصل الأصول ، وهو قاعدة الدين ، وهو الذي خُلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه ، واليوم الآخر لأنه الدار التي جعله الله سبحانه وتعالى دار الجزاء للفريقين أهل الإيمان ومن سواهم ، فكثيراً ما يُجمع بين هذين الإيمانين : الإيمان بالله لأن هذا هو المقصود أصالة وهو الغاية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها وهو أصل أصول الإيمان وأساس أسس الدين ، والإيمان باليوم الآخر لأنه دار الجزاء والحساب والعقاب ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن دعوة كل نبي بعثه الله ترتكز على محاور ثلاثة :

- المحور الأول : التعريف بالله ، وبيان أنه وحده المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وتعريف الناس به بذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمته وجلاله .
- والمحور الثاني : تعريف العباد بالطريق التي توصلهم إلى الله وينالون بها رضاه ، وهي شرائع الدين وتفاصيل الإيمان وشعَبه .
- والمحور الثالث : تعريف الناس بدار الجزاء والعقاب وما أعده الله سبحانه وتعالى لمن أطاعه من ثواب وما أعده لمن عصاه من عقاب .

فعلى هذه المحاور الثلاث ترتكز دعوة الأنبياء والمرسلين ، وهنا ذُكرت في هذه الآية الكريمة كما أنها ذكرت في آيٍ كثيرة من القرآن الكريم مجتمعة ومتفرقة .

قال : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ؛ الموادة عرفناها وهي: المحبة والموالاة وعدم البغض والمعاداة .﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ؛ قوله ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا وصف لكل كافر ، فكل كافر محاد لله ورسوله ، لأنه في حد الشيطان وجنوده ، وليس من حزب الله في شيء بل

هو في حد الشيطان وجنوده ، فكل كافر هذا وصفٌ له ؛ محاد لله ولرسوله ، عدو لله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وهنا أنبه على أمر كم غفل عنه أقوام وأقوام ولاسيما في هذا الزمان ألا وهو : أن بعض الناس في هذا المقام اغتر ببعض تعاملات الكفار فأعجبته وأدهشته ومال إليهم بسببها ، وأصبح بعض الناس يفخِّم ويعظِّم أخلاق الكفار ، بل إذا أراد أن يتحدث عن الأخلاق وأن يبين مكانة التعامل لا يستشهد إلا بالكفار ولا يذكر في هذا الباب إلا الكفار ويقول : يتعاملون بكذا ويتعاملون بكذا وينضبطون في كذا ..إلخ مما يفضي بالإنسان إلى ميل قلبه لهم وركونه إليهم وثقته بهم إلى غير ذلك من الآثار السيئة والعوائد الشنيعة ، والله سبحانه وتعالى نهى عباده أن يغتروا بكافر أو أن يغتروا بالكفار ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران:١٩٦] ، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨] . فالقرآن فيه آيات كثيرة تنهى عن الاغترار بالكفار مهما كانت أمورهم ومهما كانت أحوالهم لا يغتر بكافر .

وإذا أردنا في هذا الباب أن نتحدث عن الأخلاق فالحقيقة الجلية في هذا الباب أن كل كافر لا خُلق له ، لأن أعظم الأدب : الأدب مع الله جل وعلا ، وأعظم الخُلق إقامة دين الله ، ولهذا قال جماعة من المفسرين منهم بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] قالوا : على دين عظيم ، الخُلق : الدين . وقول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) هذا الدين كله ، والذي يصرف حق الله لغيره ؛ يخلقه الله ويرزقه الله وينعِم عليه الله ويتفضل عليه بأنواع النعم ؛ الصحة والعافية والسمع والبصر ثم حقوق الله يصرفها لغيره أين الأخلاق وأين الآداب ؟ ولهذا مهما كانت تعاملاته مع الناس ومصانعته للناس فكلها لا تجدي شيئاً إذا أضاع الأساس وهدم الأصل ، ولهذا قال الله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] .

ثم هذه الأخلاق التي يتعامل بها الكافر هل هو يتعامل بها يرجو بها ثواب الله والدار الآخرة ؟ أم أنها مصانعة في هذا الباب لأمر الدنيا وكسب المصالح وتحصيل الرئاسات وجمع الأموال وغير ذلك من الأسباب والمبررات؟ ولهذا ينبغي على المسلم أن لا يغتر ، وأن يكون في قلبه بُغض للكافر ولو كان أقرب قريب .

قال الله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان هذا الكافر أبا الإنسان الذي خرج الإنسان من صلبه ، ولو كان هذا الكافر ابن الإنسان الذي خرج من صلبه ، ولو كان أخاه الذي جمعه وإياه رحم واحدة وصلب واحد ، ولو كان من العشيرة ، وغير هؤلاء من باب أحرى . قال : ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فذكر أن هذا لا يجامع الإيمان ، لا يجتمع معه .

ثم تمم جل وعز الآية وختمها بذكر ثواب ومناقب وفضائل من كانوا كذلك ؛ لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب ؛ فذكر جل وعلا في هذا الباب سبعة أمور ننتبه لها .

قال : ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الإشارة هنا إلى من ؟ الإشارة هنا إلى من لم يتخذ الكافرين أولياء ولو كانوا أقرب قريب ، فمن كان كذلك ما شأنهم ؟

❖ قال : ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ هذا الأمر الأول ؛ {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ} : أي رسخه وثبّته ورسمه في قلوبهم ، فهو إيمانٌ ثابتٌ راسخ في القلوب .

❖ الأمر الثاني قال : ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ ؛ والتأييد: التقوية . أيدهم : أي قوَّاهم . {بِرُوحٍ مِنْهُ}: أي بوحي منه وبمدد وعون ، والله سبحانه وتعالى سمى وحيه في غير موضع من القرآن «روحاً» ، كقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ؛ وذلك لأن بالوحي تحيا القلوب ، سمى الله جل وعلا الوحي «روحاً» لأنه به تحيا القلوب ، {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} أي: أيَّدهم بالوحي ونوره وضيائه وأمدهم تبارك وتعالى بعونه وتوفيقه سبحانه وتعالى .

❖ والأمر الثالث : ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ؛ أي أن هؤلاء قد أعد الله سبحانه وتعالى لهم أجراً وهيأ لهم كرامة ونزلاً ؛ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي أبد الآباد ؛ فهذا الأمر الثالث .

❖ الأمر الرابع قال : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهذه أعظم كرامة وأجل نعمة كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] ، فرضا الله سبحانه وتعالى عنهم هذه أعظم كرامة وأعظم نعمة وأعظم منقبة فازوا بها .

❖ الأمر الخامس : ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ؛ وهذا أيضاً أمرٌ يُنعم الله سبحانه وتعالى به على هؤلاء وهو أن يملأ قلوبهم رضًا عن الله سبحانه وتعالى فيكونون مغتبطين فرحين في غاية الفرح والسرور بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به ، وبما أنعم به تبارك وتعالى عليهم ؛ فيكونون في تمام الرضا ، قال : ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ .

❖ الأمر السادس : وصف الله جل وعلا لهم بأنهم حزبه ؛ قال: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ، والناس إما حزب لله وإما حزب للشيطان ، ومن لم يكن من أهل هذا الوصف فهو من حزب الشيطان ، فحزب الله هذه صفتهم وهذه نعوتهم وهذا ما وصفهم الله تبارك وتعالى به.

❖ الأمر السابع ختْم الآية بذكر فلاح هؤلاء : ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ؛ والفلاح هو : حيازة الخير والحصول عليه بمجامعه ، ولهذا قيل : إن أكمل أو أحسن كلمة قيلت في حيازة الخير والظفر به هي كلمة «الفلاح» ، وأهل الفلاح هم هؤلاء ؛ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذه الأمور التي ذكر الله سبحانه وتعالى كل واحدٍ منها وحده كافٍ بأن يحرك القلوب تحريكاً قوياً وشديدًا بأن تبغض الكافر ولو كان أقرب قريب ، فكيف بهذه الأمور مجتمعة؟! لاشك أن هذا فيه تحريكاً للقلوب بأن تبغض الكافر وأن لا توالِيه وإن كان الكافر أقرب قريب .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى ذكر هذه المسألة العظيمة الجليلة وذكر دليلها من كتاب الله عز وجل . وهنا ينبغي أن يُعلم في هذا الباب –باب عدم موالاة الكافر وعدم تولي الكافر– كما سبق أن مرّ معنا ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ينبغي أن يُعلم ما ذكره أهل العلم في بيان الفرق بين «التولي» و «الموالاة» :

- التولي الذي ذكره الله جل وعلا في قوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا بحُب الكافرين ، وحب دينهم ، والفرح بانتصارهم ، ومعاونتهم على أهل الإيمان ، والسعي في نصرتهم هذا يسمى تولي ، وهو كفر أكبر ناقل من ملة الإسلام.
- والأمر الثاني : الموالاة ؛ وضابط الموالاة: أن يحب الكافر لأمرٍ دنيوي لا لدينه ، ولا يكون منه نصرة للكافر لكن يحبه لأمر يتعلق بالدنيا ، مثل أن يكون للكافر له يد أو عطية أو نحو ذلك فهذه موالاة . وموالاة الكافر كبيرة من كبائر الذنوب ، والله سبحانه وتعالى نهى في القرآن عن موالاة الكفار وعن تولي الكفار . وتوليهم ناقضٌ للإيمان مخرج من الدين ، وموالاتهم كبيرة يترتب عليها نقص الإيمان الواجب ، لأنه يجب على كل مؤمن ألا يوالي الكافرين .

ومما أيضاً يلتحق بهذا الباب وينبغي أن يُتنبه له: أنه لا يتنافى مع عدم موالاة الكافر أن يعامِل الكافر معاملة حسنة يتألف بها قلبه ويستميل بها نفسه بالدخول في هذا الدين ؛ فيكون في قرارة قلبه مبغضاً له وفي المعاملة الظاهرة يحسن إليه تأليفاً لقلبه ؛ ولهذا قال الله : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨] ، ولما جاءت أم أسماء رضي الله عنها إليها تطلب منها صلةً ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستشارته قال : ((صلي أمك)) ؛ فقوله عليه الصلاة والسلام : ((صلي أمك)) هذا لا يتنافى مع ما جاء في قوله ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ ، فتكون في قلبها مبغضة لها وكارهة لها لكن تصِلها وتحسن إليها وتعاملها بالحسنى تأليفاً لقلبها . قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ

جَاهَدَاكَ﴾ أي الأبوان ﴿ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ، لم يقل ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لم يقل فعقهما ، قال : ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي فيما يدعوانك إليه من الشرك ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥] أي عاملهما في الدنيا معاملة طيبة ، وهذه المعاملة الطيبة لها أثرها على الكافر ؛ ولهذا لا بأس لو مرض يُعاد ، ولا بأس إذا كان جاراً أن يُهدى له ، في الأدب المفرد بسند جيد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذبح شاةً وقال : «أعطوا جارنا فلان» قالوا : اليهودي؟! كان يهودياً ، قال: «نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال جبريل يوصيني بالجار» ، وفي كتب الأدب لأهل السنة يعقدون أبواباً تنص على هذا «باب الهدية للمشرك» ؛ يُهدى له الهدية من الطعام والكساء ونحو ذلك تأليفاً لقلبه ، بل جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى لبعض المشركين –أي طلب من الله أن يغيثهم، أصيبوا بقحط فدعا الله سبحانه وتعالى أن يغيثهم– لماذا ؟ وهل هذا يتنافى مع بغضهم ؟ لا يتنافى ، ولكن هذا فيه تأليف لهم ، يجوز أن يُعطى بل هذا من مصارف الزكاة أن يُعطى من أموال الزكاة تأليفاً لقلبه واستمالة له ليدخل في هذا الدين .

ولهذا الإسلام في هذا الباب وسط ؛ ففيه النهي عن موالاة الكافر وتوليه ، وفيه أيضاً الأمر بمعاملة الكافر غير المحارِب ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨] فالكافر غير المحارب يعامل مثل هذه المعاملة ويلايَن بالقول وبالهدية ونحو ذلك استمالة لقلبه لعل الله سبحانه وتعالى أن يهديه للإسلام ، وعندما نقرأ سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام نرى في هذا الباب عجباً في هديه صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا دينه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب وسط ؛ عدم موالاة الكافر وعدم توليه ، ولكن المعاملة الدنيوية يعامَل بالرفق وبالحسنى وبالمعاملة الطيبة لعل ذلك أن يكون سبباً في هدايته للإسلام .

وإذا كان أبو الإنسان كافراً أو أخوه أو أمه يجب عليه أن يبغضه لكفره ، وفي الوقت نفسه أن يعامله معاملة حسنة ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥] ؛ يخدمه ، يساعده ، يعاونه في مصالح دنياه لعل مثل هذا يكون سبباً لهدايته .

وأيضاً مما ينبغي أن يُعلم في هذا الباب –وكم زلَّ فيه من زل – لا يعني بُغض الكافر أن يُقتل أينما وجد ، والشريعة جاءت بتفاصيل في هذا الباب ، ومتى يكون قتله؟ وجاءت الشريعة بتحريم قتل الكافر المعاهد ، أو الكافر الذمي ، أو الكافر المستأمن ، وترتبت على ذلك في الشريعة عقوبات شديدة منها ما جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من قتل مُعَاهَداً – المعاهَد كافر – لم يرح رائحة الجنة)) .

- والمعاهَد هو : الكافر الذي كان بينه وبين المسلمين حرب ودخل ديارهم بأمان.
- والمستأمن : هو الذي دخل ديار المسلمين بأمان .
- والذمي : هو الذي في ديار المسلمين وتحت حكم المسلمين ويدفع الجزية .

هؤلاء كلهم كفار ولا يحل قتلهم . ولهذا من لا يضبط هذا الباب ولا يفهم دلائل كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وهديه في هذا الباب يقع في انحرافات لا حدَّ لها ولا عد ، وجنايات وتعديات على حدود الله تبارك وتعالى . ولهذا ينبغي على المسلم أن يعتني بهذا الباب عناية جيدة ، وأن يحرص أن يفهمه في ضوء كتاب الله تبارك وتعالى ، وأن يحرص أن يحقق هذا الأصل العظيم الذي يجب على كل مسلم أن يكون عليه وهو ألا يوالي أحداً من الكافرين وإن كان أقرب قريب .

وأيضاً مما ينبغي أن يُعلم في هذا الباب : أن أقسام الناس في الولاء والبراء والحب والبغض ينقسمون إلى أقسام ثلاثة :

- ✓ القسم الأول : وهم أهل الإيمان والصلاح والاستقامة على طاعة الله ؛ فهؤلاء لهم ولاء وحب لا بغض معه ، فإذا كان الرجل مؤمناً مطيعاً لله محافظاً على أوامر الله مبتعداً عما حرم الله فهذا يُحَب حباً لا بُغض معه .
- ✓ القسم الثاني : وهو الكافر بالله تبارك وتعالى؛ فهذا أياً كان – الكافر – يُبغض بغضاً لا حب معه .
- ✓ والقسم الثالث : من يُحب باعتبار ويُبغض باعتبار؛ يُحب باعتبار إيمانه وما عنده من صلاح وطاعة ، ويُبغض باعتبار ما عنده من فسوق وعصيان ؛ وهؤلاء عصاة الموحدين ومن أهل الإيمان والتوحيد لكن عنده معاصي لا تصل به إلى حد الكفر بالله ، فهذا يُحب على ما عنده من إيمان ويُبغض على ما عنده من فسوق وعصيان .

فإذاً الأقسام ثلاثة ؛ قسمٌ له حب لا بغض معه ، وقسمٌ بغض لا حب معه ، وقسمٌ له حب وبغض ؛ حب باعتبار إيمانه وما عنده من طاعة وبغض باعتبار عصيانه وما عنده من كبائر دون الكفر بالله تبارك تعالى .

وأختم الحديث بدعوة صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم الدعاء بها ؛ وهي قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه : ((اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذي يقربني إلى حبك))؛ وهذه الدعوة من جوامع الدعاء وعظيمه ، ومن رُزق هذه الأمور الثلاثة التي كان يدعو بها عليه الصلاة والسلام فقد جمع لنفسه الخير وفاز بالفلاح ورضا الله سبحانه وتعالى . وقوله : «أسألك حبك» لأن الواجب على كل مسلم أن يعمر قلبه بحب الله ، وأن يكون حب الله تبارك وتعالى أساسٌ في قلبه يعمر قلبه ، وأن يميل بكلية قلبه إلى الله سبحانه وتعالى حباً . وإذا ملأ قلبه بحب الله تبارك وتعالى يأتي بلازم ذلك وهو أن يحب من يحبه الله ؛ بمعنى أن يكون منطلقاً في حبه مما يحبه الله ، والذي يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه بيّنه في كتابه ، وبيَّنه نبيه عليه الصلاة والسلام في سنته «وحب من يحبك» فهذا يدخل فيه حب الأنبياء وحب الصديقين والشهداء والصالحين من عباد الله ، وأنت إذا قلت

«وحب من يحبك» جمعتَ في دعوتك هذا كله ، «والعمل الذي يقربني إلى حبك» هذا فيه حب الصالحات والطاعات والقرَب التي تقرب إلى الله سبحانه وتعالى وينال بها العبد رضاه عز وجل .

وبهذا ينتهي الحديث عن هذه المسائل الثلاث العظيمة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، وأن يعتقد مضامينها ومدلولاتها ، وأن يعمل بها ، وأن يثبت عليها مستعيناً بالله تبارك وتعالى إلى أن يتوفاه الله على خير حال وليفوز بأحسن عاقبةٍ وأحسن مآل .

والله أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله .

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :

اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، **ومعنى** ﴿يَعْبُدُونِ﴾ **يوحِّدونِ، وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] .

****

فهذه الرسالة الثالثة من الرسائل القيمة التي صُدِّرت بها الأصول الثلاثة ، وبدأها المصنف رحمه الله تعالى بهذه الدعوة؛ بقوله : ((**اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه**)) ، وعرفنا أن هذا من نصحه رحمه الله ؛ حيث كان حريصاً على بيان الخير وإيضاحه ، وفي الوقت نفسه حريصًا على الدعاء للناس بالرحمة والخير والمغفرة والرشاد والسداد ، فكثيراً ما يأتي في رسائله رحمه الله عموم الدعاء للناس لمن يبصَّرون ويرشَدون ويوجَّهون ، يدعو لهم بمثل هذه الدعوات الدالة على نصحه وحرصه رحمه الله تعالى .

قال : ((**أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيم**)) ؛ هذا عنوان هذه الرسالة وبيانٌ لمفادها وفحواها ، فهي رسالةٌ مختصرة قصد بها رحمه الله تعالى أن يبين الحنيفية التي هي ملة إبراهيم ، والله جل وعلا قد وصف نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفاً ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠] ؛ نعته بهذه النعوت ومن بينها أنه عليه السلام كان حنيفاً ، ومعنى «حنيفاً» : أي مائلاً إلى حب الله وتوحيده وإخلاص الدين له والإقبال عليه ذلاً ورجاء ورغباً ورهباً ، بعيداً عن الشرك مجانباً له. إذ الحنيف أصل معناه : المائل ، والحنف : الميل ، ومعنى كونه عليه صلوات الله وسلامه عليه حنيفاً : أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن المعصية إلى الطاعة ، فكان شأنه عليه الصلاة والسلام هو هذا كما نعته بذلك ربه . ثم بعد هذه الآية بآيات قال الله عز وجل مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي أيها النبي ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣] ؛ فأمره جل وعلا أن يتبع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة وهي الإخلاص لله

تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة والبراءة من الشرك -كما سيأتي بيان ذلك وإيضاحه- ، وقال الله جل وعلا في موضع آخر من القرآن : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠] ؛ أي أن هذه الملة الحنيفية السمحة -ملة إبراهيم- لا يرغب عنها أي لا يعدل عنها ويتركها ويذهب إلى غيرها من الملل والنِّحل إلا من حكم على نفسه بالسفه والغي .

قال : ((**أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيم**)) ؛«مِلَّةَ» بدل من الحنيفية ، والخبر -خبر أن- هو قوله رحمه الله: ((**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ فالحنيفية التي هي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام هي أن تعبد الله مخلصاً له الدين، هذه هي الحنيفية . لو قال قائل : ما الحنيفية ملة إبراهيم التي أُمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها وأمِرت أمته بذلك ؟ الجواب : الحنيفية ملة إبراهيم هي: أن تعبد الله مخلصاً له الدين ؛ هذه هي الحنيفية أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، أن تصرف العبادة كلها بجميع أنواعها لله وحده ، ولا تجعل معه تبارك وتعالى شريكاً في شيء منها .

قال : ((**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ العبادة هي غاية الذل مع غاية الحب والخضوع ، وهي حق لله تبارك وتعالى ، ليس لأحد شركة في شيء من ذلك ، فهذا التذلل والخضوع والمحبة والانكسار ونحو ذلك من العبودية هذا كله حق لله جل وعلا لا شركة لأحد فيه ، وسيأتي ذكر الدليل على ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**أنْ تعبدَ اللهَ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ أنْ تعبدَ اللهَ: أي أن تفرده وتوحده بالعبادة ، وسيأتي معنا أن الأمر بالعبادة في القرآن والسنة أمرٌ بالتوحيد ، فمعنى أن تعبد الله : أي أن تفرده تبارك وتعالى بالعبادة فلا تجعل معه شريكاً في شيء منها . ولكي يحقق المرء ذلك لابد أن يعرف العبادة ما حقيقتها؟ ليجعلها كلها لله خالصة، والعبادة أجمع ما قيل في معناها وبيان حقيقتها: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . وبهذا يُعلم أن من العبادة ما يكون بالقلب مثل : الرجاء والمحبة والخوف والتوكل والاستعانة ، ومنها ما يكون باللسان مثل : الذكر والدعاء وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذه كلها عبادات، ومنها ما يكون بالجوارح مثل: الصلاة والصيام والحج والبر ونحو ذلك من الأمور التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بها ويحبها منهم ويرضاها . فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال:((**مخلصًا له الدِّين**))؛ أي أن تقع منك العبادة خالصةً لله كما قال الله تعالى:﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] وكما قال جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] . فقوله رحمه الله: «**مخلصًا له الدِّين**» أي أن تأتي بالعبادة صافية نقية ، لأن الخالص هو الصافي النقي . ومعنى أن تكون العبادة خالصةً : أي أن تكون صافية نقية ليس فيها شائبة شرك أو رياء أو سمعة أو إرادة للدنيا بالعمل بل هي صافية نقية لم يُرد بها إلا الله جل وعلا .

والخالص في اللغة: هو الصافي النقي ، واقرأوا في معرفة معنى الخالص لغةً قول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل -سورة النعم- : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[النحل:٦٦] ؛ فهذه تبين لك معنى الخالص لغة . الخالص لغة : الصافي النقي ، وانظر في معرفة مدلول هذه اللفظة لغةً إلى اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام ؛ فقد وصفه الله بأنه يخرج من بين فرث ودم، حتى إن بعض أهل الخبرة يقولون إن خروجه من بين الفرث والدم هو وقت الحلب ، يعني يخرج لتوّه من بين الفرث والدم ، والدم معروف ، والفرث أيضاً معروف ، والحليب أو اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام يخرج حين يخرج من بين فرث ودم لكنك ماذا تراه ؟ هل ترى فيه قطرة دم؟ ولون الدم معروف والحليب لونه معروف ، هل ترى فيه قطرة دم ؟ أو ترى فيه قطعة من فرث ؟ الجواب : لا ، الجواب : تراه صافياً نقياً ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافياً نقياً ، مع أنه خرج للتو من بين فرث ودم لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث!! وهذه آية من آيات الله وعبرة من العبر ، ولهذا صدر الله سبحانه الآية بقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ، ومن العبرة والعظة في الأنعام هذه الآية من آيات الله؛ أن يخرج اللبن من بين الفرث والدم خالصاً . ثم ماذا؟ قال: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ؛ أي مع علم الناس بمصدره ومخرجه ومنبعه فإنهم يستسيغونه ، لا تنفر نفوسهم منه لكونه خرج من هذا المكان بل يستسيغونه ويستلذونه ويجدون له طعماً لذيذاً هنيئاً؛ ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لمن يشربه .

فهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى ، وهذه الآية تبين لنا معنى الخالص لغةً ؛ أي الصافي النقي .

فإذاً قول ربنا جل وعز : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] وقوله جل وعز : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] ما معنى الخالص ؟ عرفنا معنى الخالص ومدلولها ؛ الخالص : أي الصافي النقي ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي له الدين الصافي النقي ؛ بمعنى أن تُقبِل بكليتك وبقلبك وبنيَّتك وبقصدك وحبك ورجائك وذُلّك تقبِل على الله وحده ، لا تجعل مع الله شريكاً في ذلك ، لأنك إن جعلت مع الله شريكاً في ذلك أخللت بالإخلاص ، لم تكن عبادتك صافية ، إن دعا أحد الله ودعا معه غيره خدش دعاؤه لغير الله مع الله بإخلاصه ، لم يصبح مخلصاً بل أصبح مشركاً ، لأن المخلص: هو الذي يأتي بالعبادة صافية نقية لله وحده لا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً فيها ، والمشرك: هو الذي يجعل مع الله شريكاً في العبادة ؛ لأن الشرك: هو تسوية غير الله بالله وجعْل غير الله نداً لله وعِدلاً له تبارك وتعالى يُصرف له من الحقوق ما يُصرف لله تبارك وتعالى .

فإذاً قوله رحمه الله : ((**مخلصًا له الدِّين**)) أي أن يكون دينك وعبادتك وطاعتك وذُلّك وخضوعك كل ذلكم يكون خالصاً لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] أي أمرت بالإخلاص ؛ أن تكون هذه الأعمال كلها لله تبارك وتعالى خالصة ليس لأحد فيها مع الله سبحانه وتعالى مشاركة .

قال : ((**مخلصًا له الدِّين وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس**)) مر معنا الآية قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ فالله سبحانه وتعالى أمر جميع الناس بذلك ، وقال في أول أمرٍ ورد في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] فهذا أول أمر في القرآن ، وأول نهي في القرآن هو قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]؛ فأول أمرٍ في القرآن أمر بالعبادة والتوحيد والإخلاص ، وأول نهيٍ في القرآن نهي عن الشرك والتنديد واتخاذ الشركاء مع الله سبحانه وتعالى .

قال : ((**وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس**)) ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ .

((**وخلَقهم لها**)) ؛ أي لهذه الغاية خلقهم وأوجدهم ؛ فهو تبارك وتعالى خلقهم وأوجدهم لحكمة عظيمة وغاية نبيلة وهدف جليل وهو أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى مخلصين له الدين .

((**والدليل على ذلك قول الله سبحانه** في سورة الذاريات : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾)) أي إلا لغاية وهي عبادتي ، ومعنى ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «**كل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد**» . فقوله ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي وحدوا ربكم بالعبادة فأخلصوها له ، قوله : ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون ؛ أي إلا ليفردوني وحدي بالعبادة ويخلصوا الدين لي دون شريك.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أخبر جل وعلا في هذه الآية أنه تفرد بالخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ تفرد جل وعلا بالخلق والإيجاد والإنعام ، أخبر أنه تفرد بذلك وأوجد الإنسان وخلقه أوجد الثقلين ، وحدد الغاية التي لأجلها خلقهم ؛ قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فأخبر تعالى أنه فعل الأول وهو الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ ليفعلوا هم الثاني وهو العبادة ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ؛ أي إلا ليقوموا بعبادتي وتوحيدي .

فماذا كان حالهم مع هذا الذي خلقهم الله لأجله وأوجدهم لتحقيقه؟ انقسموا إلى فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦] ؛ فمنهم من هدى الله فقام بهذه الغاية ووحد الله وأفرده تبارك وتعالى بالعبادة ولم يصرف شيئاً من العبادة لغيره ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فوقع في الشرك والكفر بالله

سبحانه وتعالى. قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

قال : ((**كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ أي :يوحّدونِ**)) ؛ معنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ الذي خلق جل وعلا الخلق لأجله أي : يوحدون . فالعبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاةً إلا بالطهارة ؛ أرأيتم لو أن شخصاً صلى وأخبر عن نفسه بذلك قال "صليت بغير طهارة" ؛ يصح أن يُقال له : ما صليت ، لأن من شروط صحة الصلاة الطهارة ، فالصلاة بدون طهارة كأنها لم تكن ، ويُقال لمن صلى بدون طهارة : ما صليت . ومن عبَد الله بدون توحيد شأنه كذلك ؛ لم يعبد الله ، من عبد الله بغير توحيد هو في الحقيقة لم يعبد الله ، لأن عبادة الله لا تكون عبادة مقبولةً مشكورةً مرضية عند الله إلا بالتوحيد ، فإذا فقدت العبادة التوحيد فقدت أساس القبول ، ولهذا قال ربنا جل وعلا في الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ، فالعبادة مع الشرك لا تكون عبادةً بل تُرد على صاحبها ولا تُقبل منه ، وإن مات على ذلك عاقبه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أشد العقاب وأحل به أشد النكال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] .

ولهذا وجب على كل إنسان أن يهتم بهذا الأمر وبمعرفته أشد الاهتمام ، لأنه أساسٌ عظيم وأصل متين خُلق لأجله وأوجد لتحقيقه ، وهو في الوقت نفسه ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا ؛ ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا التوحيد ، ومن عاش هذه الحياة الدنيا وخرج منها بدون التوحيد خرج منها ولم يذق ألذ شيء فيها ، ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا توحيد الله ؛ فهو الحلاوة واللذة وقرة العين وهناءة العيش ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي موحد لله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فبالتوحيد تكون الحياة الهنيئة والعيش الطيب والسعادة واللذة والراحة وقرة العين ، وبدونه تُفقد الخيرات في الدنيا والآخرة وتحل على الإنسان الشرور تلو الشرور . ولهذا ينبغي أن يكون اهتمام العبد بالتوحيد أشد الاهتمام ، وأن تكون عنايته به أعظم العناية ، أعظم من عنايته بطعامه وشرابه ولباسه وسائر شؤونه . قال : ((ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ : يوحّدونِ)) .

((**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ**)) ؛ أي أعظم شيء أمر الله العباد به التوحيد . ويدل لذلك دلائل لا حصر لها وشواهد لا عد لها

- منها :أنه المقصود بالخلق ؛ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ .
- ومنها: أنه الغاية من بعثة الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

- ومنها: أنه أول أمرٍ في القرآن ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ .
- ومنها: أنه أول الأوامر في القرآن ؛ عندما تأتي آيات الأوامر والنواهي في القرآن تُبدأ بالأمر بالتوحيد .
- ومنها: أنه أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فإذا فُقد فقدت السعادة وفُقد الفلاح .
- وأنه أساس قبول الأعمال؛ فلا تقبل الأعمال إلا بالتوحيد، فإذا فقدت التوحيد رُدت على العامل ولم تُقبل منه.

إلى غير ذلك من الأمور الدالة على أن التوحيد هو أعظم شيء أمر الله سبحانه وتعالى عباده به . ومعنى هذا أن الله أمر عباده بأوامر كثيرة جاءت في الكتاب والسنة ، أعظم هذه الأوامر توحيد الله جل وعلا .

قال : ((**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ سبحانه وتعالى به التوحيد**)) ما هو التوحيد الذي هو أعظم شيء أمر الله سبحانه وتعالى عباده به ؟ هذه الكلمة «التوحيد» مصدر للفعل وحَّد يُوحِّد ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد ، التوحيد هو الإفراد ، ودين الإسلام سمي توحيداً: لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله ، والله جل وعلا من أسمائه الحسنى «الأحد»، ومن أسمائه الحسنى «الواحد» ، فدين الإسلام سمي توحيداً لأنه مبناه على الإيمان بوحدانية الله ، وحدانية الله في ماذا ؟ في ربوبيته جل وعلا وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته .

- في ربوبيته: بأن يُعتقد بأنه وحده سبحانه وتعالى الخالق المالك الرازق المنعم المتصرف لا شريك له .
- وحدانيته في أسمائه وصفاته : بأن تُثبت له الأسماء الحسنى والصفات العلا دون تعطيل أو تحريف ودون تكييف أو تمثيل ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].
- ووحدانيته في ألوهيته : بأن يُفرد جل وعلاوحده بالعبادة وأن يُخلص له الدين .

ولهذا قال العلماء : التوحيد أنواع ثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية . وكلٌ من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مستلزم لتوحيد العبادة ؛ بمعنى أنَّ مَن عرف أن الله جل وعلا متفردٌ بالربوبية وآمن بأسمائه وصفاته لزمه أن يفرده بالعبادة ، ولهذا ترى آيات كثيرة في القرآن فيها الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة من خلال هذين الأمرين ؛ من خلال الإقرار بالربوبية ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] ، ومن خلال الإيمان بالأسماء والصفات ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] ؛ فيأتي في القرآن آيات كثيرة فيها الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة من خلال إلزام من أقرّ بالربوبية وأقر بالأسماء والصفات أن يفرده بالعبادة ؛ أي كما أنك تقر بأنه وحده تفرَّد بالخلق والرزق والإنعام لا شريك له ، وتقر بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا الدالة على كماله وجلاله وعظمته فأفرده وحده بالعبادة ، لا تجعل معه شريكاً في العبادة ، لا تدعو إلا هو ، ولا تسأل إلا هو ، ولا تذل إلا له ، ولا تخضع إلا له ولا تصرف شيئاً من العبادة إلا له جل وعلا ؛ كما أنه تفرد بالخلق والرزق والإنعام لا شريك له فيجب أن يُفرد جل وعلا وحده بالعبادة فلا يُجعل معه شريكاً فيها .

هنا قال رحمه الله : ((**التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) فسَّر هنا توحيد الألوهية ، لأن توحيد الألوهية متضمن لنوعي التوحيد الآخرين –أعني الربوبية والأسماء والصفات– فتوحيد الألوهية متضمن للنوعين الآخرين ، أما النوعان الآخران فهما مستلزمان لتوحيد الألوهية كما سبق إيضاحه ، أما توحيد الألوهية فهو متضمن لهما بمعنى: أن من وحّد الله فتوحيده لله تبارك وتعالى فرعٌ عن إقراره بربوبيته وإيمانه بأسمائه وصفاته ، لأن عبوديته وذله له وخضوعه وانكساره له هو فرعٌ عن إقراره بأنه الرب الخالق الرازق ، وعن إقراره بأسمائه وصفاته.

وهذا هو الذي حصلت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم ؛ فالأنبياء لما قالوا للأقوام : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقعت الخصومة بينهم وبين الأقوام ، لأن الأمم كانت تقر –في الغالب الأعم– بأن الله هو الرب وأنه الخالق الرازق لكنهم جعلوا معه شركاء ووسطاء وأنداد بزعمهم تقربهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ، فاتخذوا مع الله الأنداد التي هي بزعمهم تقربهم إلى الله ، ويعتقدون في الأنداد أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا مالكة ولا متصرفة ، بل يعتقدون فيها أن لها مكانة عند الله فتشفع لهم عند الله وتكون واسطة لهم عند الله ؛ولهذا قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ما قالوا : ما نعبدهم إلا لكونهم يخلقون ويرزقون ما قالوا ذلك ، بل يعتقدون أن الخالق الرازق المنعم المتصرف الله ، وجاء في القرآن آيات كثيرة تدل على هذا المعنى، وتدل على أن انحراف هؤلاء وزيغهم في اتخاذ الأنداد هو بجعل الأنداد شركاء لله في العبادة .

فإذاً هذا الأمر هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم ؛ لما قال النبي عليه الصلاة والسلام لقومه : ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ماذا قالوا ؟ عرفوا المعنى وعرفوا المدلول وعرفوا المراد قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} أي جعل المعبودات معبوداً واحداً ؟! لأن الإله معناه في اللغة: المعبود ، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} يعني جعل المعبودات التي تُقصد ويُلجأ إليها ويُطلب منها ويخضع لها واحدة؟{هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}أمر عجيب وغريب ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ثم أيضاً تواصوا بينهم أن لا يطيعوه في هذا الأمر العجاب بزعمهم ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦] يعني تواصوا بالصبر على اتخاذ الآلهة أنداداً وشركاء يعبدونها مع الله . وإذا قيل لهم : هل هذه الأنداد التي تتخذونها شركاء مع الله هل تخلق ؟ هل ترزق ؟ هل تملك ؟ ماذا يقولون ؟ لا . إذًا لم تعبدونها ؟ قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ .

ولهذا كانوا يلبون عندما يحجون البيت ويقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ؛ يعني نحن لا نتخذ معك شريكاً إلا شريكاً هو لك تملكه ، ماذا يعنون ؟ يعني هذه الأصنام والأنداد التي يعبدونها هي لا تملك يقولون والله يملكها ، ولهذا يقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ، ولهذا لما وصف جابر رضي الله عنه حجة النبي عليه الصلاة والسلام قال : «فأهلّ النبي صلى الله عليه وسلم بالتوحيد» ، أولئك كانوا يهلون بماذا ؟ كانوا يهلون بالتنديد فأهل نبينا عليه الصلاة والسلام بالتوحيد قال : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» أي كما أنك يا ربنا تفردت بالنعمة والملك والحمد لا شريك لك في ذلك فأنت تُفرد بالعبادة لا ند لك تُفرد بالطاعة لا ند لك؛ «لبيك اللهم لبيك» هذه كلمات توحيد وإخلاص لله تبارك وتعالى ؛ ولهذا ينبغي على كل حاج أن يردد هذه الكلمات في حجه كثيراً مستشعراً ما دلت عليه من التوحيد والإخلاص لله والبراءة من الشرك ، وهي دلت على التوحيد بنوعيه: العلمي والعملي ؛ العلمي : في قوله : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك» ، والعملي : في قوله : «إن الحمد والنعمة لك والملك» النعمة لك والملك لك : هذا توحيد علمي .

فالشاهد أن قول المصنف : ((**التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) هذا تعريف توحيد الألوهية ، وهو متضمن لنوعي التوحيد الآخرين ؛ أعني توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

عرّف رحمه الله توحيد الألوهية بهذا التعريف المختصر الجامع قال : ((**إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) ؛ إفراده ما معناها ؟ أي أن تكون العبادة له وحده ، هذا معنى إفراده: أن تكون العبادة له وحده لا يُجعل معه شريك فيها .

والعبادة عرفنا معناها ؛ الصلاة عبادة ، الصيام عبادة ، الدعاء عبادة ، الذبح عبادة ، النذر عبادة ، التوكل عبادة، الاستعانة عبادة ، هذه كلها عبادات ؛ فالتوحيد هو أن يُفرد الله بأنواع العبادات لا يُجعل معه شريك فيها ،يُفرد بالعبادة كلها ، الموحد هو الذي لا يدعو إلا الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يصرف شيئاً من العبادة إلا لله تبارك وتعالى وحده ؛ فمن نذر لغير الله أو ذبح لغير الله أو توكل على غير الله أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله صار مشركاً وفارق بذلك التوحيد وخرج منه ولم يكن من أهله ، لأنه لا يكون من أهل التوحيد إلا إذا أفرد العبادة كلها لله ، لم يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء منها .

والشرك من أعفن الأشياء وأقبحها وأخسها ، وإذا دخل الشرك في العمل أفسده برمته ، أفسده كاملاً ؛ فمثلاً لو أن شخصاً أخلص في صلاته أخلص في صيامه أخلص في حجه ، أشرك في دعائه؛ شركه في الدعاء يفسد كل شيء ويدمر كل شيء ويخرب كل شيء ، فالشرك من أخس الأشياء وأعفنها وأخطرها ؛محبطٌ للأعمال كلها ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥] «عمل» مفرد مضاف فيعم كل عمل ، أي لحبطت أعمالك كلها وفسدت جميعها .

الشرك خطير جداً يحبط كل عمل ويفسد كل عمل ؛ ولهذا من لقي الله سبحانه وتعالى مشركاً به تبطل أعماله كلها وتذهب هباء وتضيع سدى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] ، ولهذا قال العلماء ناصحين : يجب على كل إنسان أن يكون خوفه من الشرك أشد الخوف ، وأن يكون دائماً حذراً خائفاً من الشرك أشد من خوفه من أي أمر آخر . مرّ النبي عليه الصلاة والسلام مرةً على الصحابة رضي الله عنهم وهم يتذاكرون فتنة المسيح الدجال التي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنها من أشد الفتن فقال لهم عليه الصلاة والسلام : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟)) قالوا : بلى يا رسول الله قال : ((الشرك الخفي)) أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال ، فتنة المسيح الدجال فتنة عظمى وبلية كبرى ، وخاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الشرك أشد من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال التي هي من أشد الفتن وأعظمها .

إمام الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه الذي حطم الأصنام بيده قال في دعائه : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] كثيراً من الناس أضلتهم الأصنام ، أكثر الناس على غير التوحيد ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] أكثر الناس على غير التوحيد ، وآيات في القرآن تقرر هذا كثيراً ، ومن ذلك قوله : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] يؤمنون بالله رباً خالقاً رازقاً منعِماً لكنهم يشركون معه غيره في العبادة ، يجعلون معه الشركاء إما في الدعاء ؛ تجد أحدهم إذا مسه الضراء ونزل به البلاء وأصيب بالمرض واللأواء فزع إلى غير الله!! "مدد يا فلان ، أدركني يا فلان ، ألحقني يا فلان ، إن لم تدركني من الذي يدركني ؟ وإن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي ؟ أنا لائذ بجنابك، وأنا عائذ بأعتابك" ، وبعضهم يقول : "وأنا عبدك الكسير بين يديك" يناجي مخلوقاً مثله، سبحان الله ! أين عقول هؤلاء؟! أين عقولهم عن هذه الغاية التي خُلقوا لأجلها ؟! أين إيمانهم بالله ربهم جل وعلا الذي خلقهم وأوجدهم ، يلجأ إلى مخلوقٍ مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا عطاء ولا منعاً ولا خفضاً ثم يقول مستغيثاً به: "مدد ؟! أدركني ؟! الشفاء ؟! العافية ؟! إن لم تدركني من الذي يدركني" ، أين عقول هؤلاء ؟! أين عقول هؤلاء عن الغاية التي خلقهم الله سبحانه وتعالى وأوجدهم لأجلها ؟!

ثم قال رحمه الله : ((**وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ**)) ؛ والشرك أقسامه ثلاثة كما أن التوحيد أقسامه ثلاثة .
عرفنا أن التوحيد: توحيد الربوبية والأسماء والصفات والألوهية ، وكذلك الشرك أقسامه ثلاثة : شرك في الربوبية ، وشرك في الأسماء والصفات، وشرك في الألوهية .

وعرَّف هنا رحمه الله الشرك في الألوهية لأنه هو الذي فيه المعترك والخصومة ؛ قال : ((الشركُ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ)) هذا هو الشرك : دعوةُ غيرِهِ معهُ ، سئل نبينا عليه الصلاة والسلام أي الذنب أعظم ؟ قال : ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) هذا هو تعريف الشرك وهو أعظم الذنوب؛ أن تجعل لله نداً وهو خلقك. لو قال قائل : ما الشرك ؟ وقلت له هذه الكلمة التي قالها نبيك عليه الصلاة والسلام «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» ، ضم إليها الحديث الآخر : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله)) ، ما هو الإشراك بالله ؟ يفسره الحديث الآخر ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) . فالشرك : اتخاذ الأنداد ؛ أن يُجعل مع الله ند في حقوقه سبحانه ، والعبادة حق لله ((أتدري ما حق الله على العباد؟)) ثم قال : ((أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)) العبادة حق لله وحده سبحانه وتعالى . فهنا فسر رحمه الله الشرك بهذا قال : ((هو دعوة غير الله معه)) .

وأصل هذه الكلمة «الشرك»: التسوية . والمعنى هنا : تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه أو شيء من خصائصه ، ولهذا المشركون إذا دخلوا يوم القيامة نار جهنم ماذا يقولون ؟ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٩)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٩-٨٠] هكذا يقول المشركون إذا دخلوا النار يوم القيامة ، يقولون : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يحلفون بالله أنهم كانوا في ضلال ، ما الضلال الذي كانوا فيه ؟ قالوا : ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشرك: التسوية ؛ أن يسوى غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائصه سبحانه وتعالى .

والدعاء أعظم أنواع العبادة وأجلها ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الدعاء هو العبادة)) وتلا قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] سمى الدعاء عبادةً ، فالدعاء أعظم أنواع العبادة وأجلها . فمن جعل مع الله شريكاً في الدعاء كأن يدعو ميتاً أو غائباً أو حجراً أو شجراً أو غير ذلك بأي حاجة أو مطلب مثل أن يقول : "مدد أو أن يقول : أدركني أو : أسألك الشفاء ، أو : ألحقني أو أنا مريض فعافني أو أنا ضال فاهدني" أو نحو ذلك فقد أشرك بالله العظيم ، قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] وقال جل وعلا : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:٥] وقال جل وعلا : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦] ، ويقول جل وعلا : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] . والآيات التي فيها الأمر بإخلاص الدعاء لله تبارك وتعالى في

القرآن كثيرة ، وفي السنة النبوية كثيرة جداً ؛ الأمر بإخلاص الدعاء لله ؛ فلا يدعى إلا الله ولا يُسأل إلا الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، الأمر كله بيد الله ، قال جل وعلا لنبيه : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم مقرراً هذه الحقيقة: ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)) ، وقال الله له في القرآن : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي على هدايتهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ، حرص على هداية عمه ولم يهتد ، الهداية بيد الله، وأنزل الله قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] .

فالشفاء بيد الله ليس بيد أحد ، نبينا عليه الصلاة والسلام كان إذا طلب الشفاء لنفسه أو لغيره قال : ((اللهم رب الناس اذهب الباس)) ، وفي رواية ((اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)) ، فكيف بإنسان يذهب إلى قبر أو قبة أو ضريح يطلب من الميت أن يشفيه ؟! أو يطلب من الميت أن يعطيه ولداً ؟ أو يطلب من الميت أن يهديه ؟ هذا الميت لو كان حياً لم يملك لنفسه هو شفاءً ، ولم يملك لنفسه هو ولداً ، ولم يملك لنفسه هدايةً ؛ هذا كله بيد الله جل وعلا فكيف يطلب من غيره ؟! كيف يلتجأ فيه إلى غيره؟! يأتي أشخاص إلى قبور أو قباب أو أضرحة أو نحو ذلك ثم يقف أمامها منكسراً خاضعاً ذليلاً طامعاً راجياً باكياً "الحقني.. أدركني.. أعطني.. أريد كذا.. أريد كذا.. أريد كذا" يا سبحان الله ! لا إله إلا الله ، والله يقول : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ، أين عقول هؤلاء عن التوحيد الذي خُلقوا لأجله والإخلاص الذي أوجدهم الله لتحقيقه؟ يذهبون هذه المذاهب وينحرفون هذه الانحرافات ويقعون في الشرك العظيم .

والشرك أظلم الظلم وأكبر الإثم ، وعرفنا ذلك في الحديث : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى، قال : الإشراك بالله)) ، فالشرك أظلم الظلم على الإطلاق وأبطل الباطل ، وهو هضمٌ للربوبية وتنقص للألوهية وسوء ظن برب العالمين ، المشرك سيء الظن بربه وإلا لو كان حسن الظن بالله لما لجأ إلا إليه وحده، ولما دعا غيره ، فالمشرك سيء الظن ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] المشرك سيء الظن بالله ، لو كان حسن الظن بالله تبارك وتعالى لما لجأ إلا إلى الله ، ولما توكل إلا على الله ، ولما صرف ذله وانكساره وخضوعه إلا لله سبحانه وتعالى ؛ لأن هذا حقه سبحانه ، فالمشرك هضم ذلك كله ، وتلوث بهذا التلوث الذي هو أشر وأشد ما يكون ضرراً على الإنسان .

قال : ((**الشركُ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ**)) ؛ دعوةُ غيره أياً كان المدعو ، لأنا عرفنا أن العبادة حقٌ لله وحده ، فمقام الإنسان والشخص ومكانته عند الله ليست مسوغاً أن يُجعل شريكاً لله ، الشخص إذا كان له مكانة عند الله مكانته تحفظ ويُقر بها ويُعترف ، لكن مكانته عند الله ليست مسوغاً أن يُجعل شريكاً مع الله جل وعلا يُدعى ويُستغاث به ويُلتجأ إليه وتصرف له أنواع العبادة؛ لأن العبادة حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن يُجعل مع الله فيها شريك أياً كان ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما كما يأتي دليل ذلك في الآية التي ساقها المصنف وهي قول الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ .

هذه الآية جمعت دلائل عديدة لما سبق ذكره عند المصنف ، وليكن حاضراً في ذهنك الأمور العديدة التي قررها : قرر رحمه الله أن التوحيد أعظم ما أمر الله به وأنه إفراد الله بالعبادة ، وأن الشرك أعظم شيء نهى الله عنه؛ وأنه دعوة غير الله معه . وهذا كله اجتمعت الدلالة عليه في هذه الآية الكريمة ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ؛ هذه الآية جاءت في سورة النساء ، وتُعرف عند بعض أهل العلم بآية الحقوق العشرة ، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر فيها عشرة حقوق، قال جل وعلا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] كم هذه ؟ عشرة ، عشرة حقوق ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بم بدأها ؟ بدأها بأعظم الحقوق وأهمها وأكبرها على الإطلاق وهو قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ .

ولهذا لما تتبع القرآن في آيات الأوامر والنواهي ويأتي في القرآن في مواضع عديدة ذكر الأوامر والنواهي متوالية في موضع واحد تجدها في جميع المواضع مبدوءة بماذا ؟ مبدوءة بهذا الأمر العظيم . مثلها تماماً قول الله سبحانه في سورة الإسراء قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٢-٢٣] ثم ذكر حق القرابة ونهى عن التبذير نهى عن الزنا نهى عن القتل ، نهى عن أشياء كثيرة لكنه صدر هذه الأوامر والنواهي بالنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد . ومثلها أيضاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١] . أيضاً مثلها قول الله تعالى في صفات عباد الرحمن قال : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] . فترى هذا في آي القرآن عندما تُذكر الأوامر والنواهي تُبدأ بالأمر بالتوحيد الذي هو أعظم ، وبالنهي عن الشرك الذي هو أخطر النواهي .

وقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هذا أمر بالتوحيد ، ومر معنا قول ابن عباس رضي الله عنهما : «كل أمر بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد» ؛ فمعنى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله ، أي أفردوا الله بالعبادة .

﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ ؛ وَلا تُشْرِكُوا : أي لا تسووا بالله غيره . الشرك : التسوية، والشرك : العدل ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] أي يعدلون به غيره، يسوُّون به غيره .

﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ «شَيْئاً» جاءت في هذا السياق نكرةً ، والسياق سياق نهي فتفيد العموم {وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} أي أيَّ شيء . مثلها مثل ما مر معنا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] أي أيُّ أحد كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما مما هو دونهما ، فالعبادة حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن يُجعل مع الله سبحانه وتعالى شريك فيها .

هذه المسألة التي تضمنتها هذه الرسالة العظيمة هي في بيان الحنيفية ملة إبراهيم ، وهذه المعاني والمضامين التي سمعتها -أيها الأخ الموفق بارك الله فيك- هذه المضامين لتكن منك دوماً حاضرة ، يومياً استذكرها ، يومياً راجعها، لا تفوت يوماً إلا وأنت تراجع هذه الحنيفية ، وليكن مراجعتك لها واستذكارك لها في الصباح الباكر في أذكار الصباح كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في حديث عبد الرحمن بن أبزى في المسند وفي غيره بسند ثابت؛ قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» .

كل يوم في الصباح يصبِّح الإنسان ويبدأ يومه باستحضار الحنيفية ، التوحيد ، الفطرة ، الإخلاص لله تبارك وتعالى ويبدأ يومه في عهد مع الله بأن يمضي يومه بالتوحيد ، «أصبحنا» على ماذا ؟ على ماذا أصبحنا ؟ تجد بعض الناس – نسأل الله العافية والسلامة – يصبح على ماذا ؟ على التوجه للقبور ، على التوجه للأضرحة ، على التوجه هنا وهناك يسأل ويستغيث ويهيئ نفسه من الليل ليذهب إلى هنا وهناك ليسأل غير الله ويصرف العبادة لغيره ، فالمسلم الحق الموحد الصادق كل يوم يصبح على التوحيد ، على الفطرة ، على الإخلاص ، على الحنيفية ، على إفراد الله تبارك وتعالى وحده بالعبادة .

ولهذا يُحفظ هذا الدعاء وهذا الذكر المبارك ويردده المسلم يأتي به في الصباح الباكر كل يوم في جملة أذكار الصباح. «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» .

هذه إن شاء الله من الصباح غداً نواظب عليها جميعنا ، ولا تكون المواظبة عليها كلام يردد لا ندري ما هو ، وإنما نواظب عليها ونستحضر هذه المعاني العظيمة التي هي الحنيفية التي هي ملة إبراهيم .

وأقول يومٌ تشرق عليك شمسه وأنت صحيح معافى تصبّح ذلك اليوم بإعلان التوحيد والبقاء على الفطرة ، البقاء على الحنيفية ، على ملة أبينا إبراهيم ؛ يومٌ أنعم به يوم وأكرم ، يومٌ مبارك عليك ، تصبح وأنت تعلن هذا الإعلان وتردد هذا الكلام معلناً بقاءك ، في الناس وفي العالمين من غيّر ومن بَّدل تبديلاً ومن تلوث بأنواع من اللوثات ، وأنت يكرمك الله وينعم عليك وتصبح هذا الصباح الكريم ، تعلن في صباحك : «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» ، وتبدأ يومك من صباحه الباكر وأنت على هذه الفطرة وعلى هذا التوحيد وعلى هذا الدين القويم وعلى هذه الملة الحنيفية السمحة ، وتمضي يومك كذلك في عهد مع الله وفي أمن وأمان وحفظ من الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] ؛ أمنٌ واهتداء في الدنيا والآخرة .

بهذا انتهت الرسائل الثلاث التي جاءت في مقدمة الأصول الثلاثة ، والأصول الثلاثة الآتي عرضها يظهر – والله تعالى أعلم – أنها رسالة مستقلة مفردة وبعض طلاب الشيخ رحمه الله وتلاميذه وضع هذه الرسائل التي هي للشيخ نفسه رحمه الله بين يدي دراسة هذه الأصول الثلاثة؛ تتميماً للفائدة وإكمالاً للنفع وجمعاً لهذه المسائل العظام في موضع واحد ، وإلى مثل هذا المعنى أشار الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالى في تعليقه على الأصول الثلاثة حيث لما بدأ بشرحها قال : «وما تقدمها من المسائل – أي في الرسائل الثلاث – فلعل بعض تلاميذه قرنها بها» ، أي بعض تلاميذ الشيخ رحمه الله قرنها بها ؛ أي بالأصول الثلاثة ، وذلك تتميماً للفائدة وجمعاً لهذا الخير العظيم في موضع واحد ليعظم انتفاع طالب العلم بهذا المجموع المختصر الجامع النافع

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟ فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فإن قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.**

فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه؛ ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما، والدليلُ قولُه تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤]. **والرَّبُّ هو المعبودُ، والدليلُ قولُه تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١-٢٢]، **قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: «الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ».**

****

بدأ رحمه الله بالكلام على الأصول الثلاثة العظيمة وهي: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأصول ينبغي ويجب على كل مسلم أن يدرك إدراكاً تاماً عظمتها وأهميتها وحاجته الملحَّة إلى معرفتها وضرورته الشديدة إلى الدراية بها والعمل بها وتحقيقها ؛ إذ إن سعادة العبد في دنياه وأخراه ونجاته لا تتحقق إلا بتحقيق هذه الأصول الثلاثة ، وقد صح في الحديث عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه من حديث البراء وغيره أن

الميت إذا أدخل القبر أتاه ملكان وسألاه عن هذه الأصول الثلاثة «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» ، كل من مات وأدرج القبر وُجهت له هذه الأسئلة الثلاثة : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

وجاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً)) ، وطعم الإيمان : أي لذة الإيمان وحلاوته ، فالإيمان له حلاوةٌ لا يمكن أن يذوقها القلب إلا بالرضا بهذه الأصول ، والرضا بهذه الأصول الثلاثة يكون: بالعلم بها ، وباعتقاد ما دلت عليه ، وبالعمل بها . فهذه حقيقة الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ؛ حقيقة الرضا بذلك أن يتعلم هذه الأصول تعلماً صحيحاً وأن يفهمها فهماً صحيحاً ، وأن يعتقد ذلك اعتقادًا راسخاً ويؤمن به إيماناً جازماً ، وأن يعمل بموجبات ذلك ومقتضياته ؛ فهذه حقيقة الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .

ومن عناية نبينا عليه الصلاة والسلام بهذه الأصول توجيهه صلى الله عليه وسلم المسلم عند سماع الآذان عندما يقول المؤذن : «أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله» يشرع للمسلم أن يقول : «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» . وورد أيضاً قول ذلك في أذكار الصباح والمساء أن يقول إذا أصبح ثلاثاً «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» وثلاثاً إذا أمسى ، على خلاف بين أهل العلم في تحسين الحديث الذي ورد في ذلك أو تضعيفه .

كل ذلكم يؤكد المكانة العظيمة لهذه الأصول الثلاثة وحاجة المسلم إليها واستذكارها وتحقيق مضامينها وترسيخ الإيمان بها وتجديد ذلك كل يوم ؛ في أذكارك وعند سماعك للآذان وأنت تستحضر هذه الأصول الثلاثة مستذكراً لها ، مجدداً الإيمان بها ، حريصاً على تتميمها وتكميلها ؛ كل ذلكم يؤكد على أهمية هذه الأصول الثلاثة وعظم شأنها وحاجة كل مسلم إلى دراستها ومذاكرتها .

وشيخ الإسلام رحمه الله تعالى أكرمه الله جل وعلا ومنّ عليه بأن أفرد هذه الأصول الثلاثة في رسائل ؛كتبها بصيغٍ تناسب طلاب العلم ، وكتبها أيضاً بصيغة تناسب العوام –عوام الناس– ، وأيضاً منّ الله سبحانه وتعالى بأن نفع بهذه الأصول نفعاً عظيماً واعتنى بها الناس عناية بالغة ؛ تدريساً ودراسة ومذاكرة وحفظاً . وعاش على هذه الأصول أقوام أكرمهم الله سبحانه وتعالى وماتوا عليها غير مغيرين ولا مبدلين ، وهذا فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فينبغي على كل إنسان أن يغنم حياته في معرفة هذه الأصول الواجب على كل مسلم أن يتعلمها ، وأن يعتني بدراسة هذه الأصول ، وأن يكثر من قراءتها ومطالعتها ومراجعتها ، وأن يسعى في نشرها بين أهله وأولاده وقرابته وجيرانه؛ نشراً للخير وتعميماً للفائدة فإن الدال على الخير كفاعله ، ((ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل

أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) ؛ ولهذا من أعظم ما يكون هديةً يقدمها الحاج لأقاربه ولزملائه هذه الأصول التي سيُمتحنون عليها عندما يُدخلون في قبورهم حيث كل واحد منهم يُقال له : «من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟»

والشيخ رحمه الله تعالى أكرمه الله ومنّ عليه بأن جمع خلاصات عظيمة وزبد مفيدة تتعلق بهذه الأصول الثلاثة جمعها من كتاب الله تبارك وتعالى . والشيخ كما يعلمه كل من اطلع على مؤلفاته ورأى مصنفاته هذا دأبه؛ يذكر المسألة مضموماً إليها دليلها "يُشرع كذا والدليل : قال الله تعالى كذا" ، فيذكر المسألة مضموماً إليها دليها من كتاب الله أو سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا هذا الكتاب «الأصول الثلاثة» هو عبارة عن مسائل عظيمة ومهمة للغاية في هذه الأصول الثلاثة مضموماً إلى كل مسألة دليلها من كتاب الله تبارك وتعالى أو سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا أقول : إن هذه الأصول الثلاثة خير زاد ليوم المعاد ، وجديرٌ بكل مسلم أن تكون عنايته بهذه الأصول واهتمامه بها أعظم من اهتمامه بأي أمرٍ آخر لأنها أساس السعادة وسبيل الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

ثم إن الشيخ رحمه الله لما أفرد هذه الأصول الثلاثة بالتأليف حرص أن يكتبها رحمه الله على صيغة سؤال وجواب ، تيسيراً للفائدة وتقريباً للمنفعة جعلها على صيغة سؤال وجواب ؛ إذا قيل لك كذا فقل كذا ، وإذا قيل لك كذا فقل كذا ..إلى آخر الرسالة . فكتبها على صيغة السؤال والجواب لأن هذه الصيغة من الصيغ البليغة القوية في تمكين الفائدة لدى المتلقي ، وكثيراً ما تأتي هذه الصيغة في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ؛ مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه : ((أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟)) ، ومثل قوله : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟)) ، ولهذا نظائر كثيرة في أحاديثه عليه الصلاة والسلام ؛ يطرح سؤالاً ويجيب عليه ، ويطرح سؤالاً آخر ويجيب عليه ؛ فهذا يكون أبلغ ، ومن ذلكم قول الله سبحانه وتعالى في آيات عديدة في القرآن : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩] ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة:٢٢٠] ويأتي البيان .

فالشاهد أن الشيخ رحمه الله تعالى حرص على كتابة هذه الأصول الثلاثة بصيغة السؤال والجواب ، ولما كتبها في رسالة أخرى غير هذه الرسالة لما كتبها للعوام أيضاً كتبها بصيغة سؤال وجواب واختصر فيها المعلومات ، وصاغها بأسلوب قريب من أساليب العامة في الحديث واللهجة ؛ كل ذلكم من حرصه رحمه الله تعالى . والتي كُتبت للعوام مشهورة بـ«الأصول الثلاثة» ، وهذه مشهورة بـ«ثلاثة الأصول» ؛ تفريقاً بين الرسالتين .

قال رحمه الله تعالى : ((**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟**)) ؛ قوله «التي يجبُ على الإنسانِ» أي على كل مكلف ، صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى . قوله «معرفتُها» أي: معرفتها واعتقاد ما دلت عليه والعمل بها . المراد بقوله «معرفتُها» : أي العلم بها واعتقاد ذلك والعمل به .

((**فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ وهنا بدأ كتابه «الثلاثة أصول» بذكر الأصول الثلاثة مجملة ، ثم شرع بعد ذلك في تفصيلها أصلاً أصلاً ، وكل أصل يذكر جملةً من التفاصيل المتعلقة به مع شيء من الدلائل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ((**فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم : «ذكر المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة مجملةً ، ثم ذكرها بعد مفصلة أصلاً أصلاً تتميماً للفائدة وتنشيطاً للقارئ ؛ فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وضبطها بقي متشوقاً إلى معرفة معانيها ، وهي المقصود بهذه النبذة» .

قال رحمه الله : ((**فإذا قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟**)) ؛ هنا شرع في التفصيل في بيان الأصل الأول من الأصول الثلاثة وهو معرفة العبد ربه ؛ إذا قيل لك من ربك ؟ ماذا تقول ؟ إذا قيل لك من ربك ؟ أي من خالقك ؟ من رازقك ؟ من المنعم عليك ؟ من المتفضل عليك ؟ من الرب الذي تعبده وتخضع له وتسجد له وتركع وتتقرب إليه بأنواع القربات وتصرف له أنواع الطاعات والعبادات وتخلص له دينك؟ من هو هذا الرب ؟

((**إذا قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ**)) ؛ هذا هو جواب هذا السؤال «من ربك ؟» ، من ربك الذي خلقك ورزقك وتفضل عليك بأنواع النعم وتقصده بأنواع العبادة وتخلص له الدين ؟ من هو ؟ قلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ .

((**قلْ: ربيَّ**))؛ الرب معناه : الملك الخالق الرازق المتصرف السيد ، الذي له التدبير لا شريك له في ذلك .

((قلْ: ربيَّ اللهُ)) ؛ و«الله» هذا اسم علم على الله جل وعلا ، وهو دال على ألوهيته وعبوديته سبحانه ؛ أنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . دال على ألوهيته ؛ أي على كماله وجلاله وعظمته وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، ودالٌ على أنه ذو العبودية على خلقه أجمعين؛ أي يجب عليهم أجمعين أن يذلوا له وحده وأن يخضعوا له وحده وأن يصرفوا له وحده جميع أنواع العبادة دون سواه .

قال : ((**قلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني**)) وهذا من معاني الربوبية ، من معاني الربوبية التربية ، والتربية هي عامة وخاصة.

❖ عامة لجميع المخلوقات؛ بالإنعام وبالصحة وبالطعام وبالشراب وبالغذاء وغير ذلك ، فالله جل وعلا رب العالمين ، فكل ما يكون في المخلوقات من إنعام وآلاء وعطاء ومنن إلى غير ذلك كله من الله سبحانه وتعالى ،

فهو رب العالمين ، ربى جميع العالمين بنعمه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] .

❖ وتربية خاصة ؛ وهي خاصة بأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين ، بأن رباهم على الإيمان ووفقهم لهذا الدين وهداهم لصراطه المستقيم ، فهذه منة الله عليهم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور:٢١] ، وقال جل وعلا : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨] ، وقال تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧] . فإذاً التوفيق للإيمان والهداية للإسلام والإعانة على طاعة الله تبارك وتعالى والسير على صراطه المستقيم هذه تربية خاصة يتفضل الله سبحانه وتعالى بها على من شاء من عباده ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقوله هنا : ((**الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ**)) المراد بالربوبية هنا العامة ، لأنه قال : «جميعَ العالمينَ»، أما التربية الخاصة ليست لجميع العالمين ، التربية الخاصة على الإيمان والطاعة والتوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى هذه التربية على من يختصهم جل وعلا بكرامته ويجتبيهم لصراطه المستقيم ويتفضل عليهم بالهداية لدينه القويم .

قال : ((**الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ**)) ؛ أي بنعمه وآلائه ومننه الظاهرة والباطنة ، وكل نعمة بالعباد فهي من الله ؛ فهو المان والمنعم والمتفضل لا شريك له ، الفضل فضل الله والإنعام إنعامه والأمر بيده تبارك وتعالى؛ يخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، يتصرف في ملكه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : ((**وهو معبودي**)) ؛ أي هذا الرب العظيم الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمته هو معبودي ، أي هو الذي أقصده وحده بعبادتي ؛ ذلي وخضوعي ورجائي ورغبي ورهبي ودعائي وذبحي ونذري وصلاتي ونسكي وغير ذلك من أنواع العبادة كل ذلكم أخصه جل وعلا به ، ولا أجعل معه شريكاً في ذلك ؛ لأنه وحده الذي خلقني ، لا شريك له في الخلق ، وهو وحده جل وعلا الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ((**فهو معبودي ليس لي معبود سواه**)) لا أعبد إلا إياه ، كما أنه سبحانه وتعالى تفرد بالخلق والرزق والإنعام وحده فأنا أفرده وحده بالعبادة ولا أصرف شيئاً من العبادة إلا له . ((**ليس لي معبودٌ سواهُ**)) أياً كان ، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو غير ذلك (ليس لي معبودٌ سواهُ) ؛ أي سوى الله ، لا أدعو إلا الله ولا أذبح إلا لله ولا أنذر إلا لله ولا أصلي إلا لله ولا

أصرف شيئاً من العبادة إلا له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

قال : ((**وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ**)) ما الدليل على ذلك ؟ الأدلة على ذلك كثيرة جداً لكن الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة يذكر المسألة ودليلاً واحداً عليها .

قال : ((**والدليلُ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلُّ من سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ**))

هذا هو الدليل ، الدليل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ؛ والحمد : هو الثناء على الله سبحانه وتعالى مع حبه سبحانه ، حمداً له على نعمائه وفضله وعطائه ، وحمداً له على أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله العظيمة سبحانه وتعالى .

قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «لله» عرفنا معنى هذا الاسم ودلالته ؛ قد قال ابن عباس رضي الله عنهما : «الله : أي ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عرفنا في كلام الشيخ قال : ((وكلُّ من سِوَى اللهِ عالَمٌ)) ؛ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؛ العالم : من سوى الله ، والله رب العالم كله ، ومعنى كونه جل وعلا رب العالمين: أي أنه مالكهم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦] ، أيضاً معناه أنه خالقهم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر:٣] ، معنى ذلك أنه تبارك وتعالى سيدهم ومولاهم المتصرف فيهم ؛ خفضاً ورفعاً ، حياة وموتاً ، عزاً وذُلاً ، ليس لأحد غير الله تبارك وتعالى ذلك ، هو وحده المتصرف في هذا الكون لا شريك له ، هو النافع الضار ، هو المعطي المانع ، هو القابض الباسط ، هو المعز المذل ، هو كما قال : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم:٤٣-٤٤] ، هو المتصرف في هذا العالم كله لا شريك له في شيء من ذلك .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالكهم ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالقهم وموجدهم من العدم ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي المتصرف فيهم والمدبر لشؤونهم ، والمخلوقات كلها طوع تصريفه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ، وإذا حكم بشيء وقضى بشيء كان ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، الملك ملكه سبحانه وتعالى والخلق خلقه والعبيد عبيده ونواصي العباد بيده جل وعز ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] في ملكه سبحانه وتعالى ، كل يوم هو في شأن يحيي ويميت ، يعزو يذل ، يعطي ويمنع ، يخفض ويرفع ، الأمر لله سبحانه وتعالى أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً ، وليس لأحد من الأمر شيء ، وفي القرآن قال الله سبحانه لنبيه محمد

صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] الأمر لله ، والملك لله ، والخلق تصريفهم بيد الله جل وعلا .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهنا أيضاً وأنت تقرأ هذه الآية ؛ وهي أول آية تواجهك في القرآن بعد البسملة ، وهي دعاء أهل الجنة إذا دخلوا جنات النعيم –نسأل الله عز وجل أن يكرمنا أجمعين بذلك– ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] ، فأنت عندما تقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتتأمل فيها وتتدبر دلالتها تعرف نفسك ، إذا قرأت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم تساءلت في ضوء هذه الآية : من أنا؟ ماذا أكون ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ العالم: كل من سوى الله . الوجود وجودان : وجود الله سبحانه وتعالى ، ووجود من سواه ، وهو جل وعلا وجوده أولٌ بلا ابتداء وآخرٌ بلا انتهاء ، ووجود المخلوقات بإيجاده سبحانه وتعالى ، العالم كله وجد بإيجاد الله ، والإنسان كان عدم ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] ، خلقه الله وجعل له السمع والبصر والحواس والقوى ومنّ عليه باللباس والغذاء والطعام. فإذا قرأت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم في ضوء ذلك تأملت وقلت: من أنا ؟ ماذا أكون ؟ العالم : من سوى الله وأنا واحد من هذا العالم ، أنا فرد من ملايين وبلايين المخلوقات التي هي خلق الله جل وعلا ، وجميع هذه المخلوقات كلها رب العالمين مطّلع عليها ، وهي مخلوقات بالملايين والبلايين لا يحصي خلق الله إلا الله جل وعلا ، لا يحصيهم إلا الذي خلقهم سبحانه ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] ، جميع هذه المخلوقات من أناس من بهائم من حشرات من غير ذلك جميعها رب العالمين يعلم بها ويحيط بها ويرى حركاتها وسكناتها ولا تخفى عليه منها خافية ، وأنت واحد من هذا العالم ، مخلوق لله مربوب أوجدك الله سبحانه وتعالى من العدم .

ثم سبحان الله عجيبٌ حال بعض الناس ! عندما ينسى نفسه ، ينسى أنه خُلق من نطفة ، وينسى أنه يحمل دوماً في بطنه العذِرة ، وينسى أنه سيكون يوماً في حفرة تأكله الديدان ، ينسى أنه خرج من مخرج البول مرتين؛ من أبيه وأمه ، ينسى ذلك ثم يمشي على الأرض متكبراً متعالياً مختالاً!! حتى يوجد في بعض الناس من يقول : أنا ربكم الأعلى ، ويقول: ما علمت لكم من إله غيري ، ويقول ويقول ويقول ، كل هؤلاء ما عرفوا أنفسهم ، ما عرفوا إلا الشيطان؛ صاروا عبيداً له مطيعين له في كل ما يأمرهم به وما يدعوهم إليه . ولهذا حقيقةً لا يعرف نفسه حقيقة إلا المسلم الذي يعرف ربه سبحانه وتعالى الذي أوجده ، ويعرف لم أوجده سبحانه وتعالى ، ويجاهد نفسه ليذل نفسه له جل وعلا وينكسر بين يديه ويخضع لجنابه سبحانه ؛ يركع له ويسجد ، ويناجيه سبحانه ويبكي بين

يديه، ويرجو رحمته سبحانه ويخاف عذابه ، ويجاهد نفسه في حياته كلها على تحقيق طاعته والذل والعبودية له سبحانه وتعالى . فلا يعرف نفسه حقيقة إلا المسلم الذي منَّ الله عليه بالإسلام وهداه لهذا الدين العظيم والصراط المستقيم . قال : ((**وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ**)) .

قال : ((**فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟**)) ؛ ما الآيات وما الدلالات وما البراهين التي بها عرفت ربك سبحانه وتعالى ؟ (بِمَ عرفْتَ ربَّك؟) ، إذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟ ماذا تقول ؟

قال : ((**فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه**)) ؛ الآيات جمع آية ، والآية : العلامة والدلالة والبرهان والحجة . والمخلوقات : جمع مخلوق وهو : ما أوجد بعد العدم .

((**إذا قيل لك : بماذا عرفت ربك ؟ فقل : بآياته ومخلوقاته**)) ، وقل في تتميمك الجواب على هذا السؤال : ((**ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما**))؛ أعرابي قيل له هذا السؤال، قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : «سبحان الله ! أرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وسماء ذات أبراج؛ ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!» ، أي هذه المخلوقات وهذه الآيات العظيمة العجيبة هذه برهان ودليل على أنه سبحانه وتعالى الرب المدبر المالك المتصرف الذي لا شريك له سبحانه وتعالى في شيء من ذلك ((**ومِنْ آياتِه**)).

ثم قال : ((**ومِنْ مخلوقاتِه**)) ، و«مِنْ» هنا للتبعيض ؛ إشارة إلى بعض الآيات العظيمة ، وإلا حقيقة الأمر كما قال القائل : وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

جميع ما تراه من المخلوقات دليل على خالقها ومبدعها ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦] ، فالخالق لهذه لمخلوقات والموجد لهذه الكائنات بهذا الانتظام البديع والخلق العجيب والتصريف والتدبير؛ هذه آيات باهرات وحجج ساطعات ودلائل بينات على أنه تبارك وتعالى الرب الذي لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه .

قال : ((**ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ**)) ؛ الليلُ والنهارُ آية من آيات الله العجيبة ، حيث إنه سبحانه وتعالى جعل هذه الآية العظيمة تمر على الناس بمر الأيام والليالي؛ ليل ونهار وشمس وقمر ، وتمشي بانتظام ودقة عجيبة كما أمرها الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] كل منهما يسير بانتظام عجيب ليس أحد منهما يسبق الآخر ، ويمشيان بانتظام عجيب ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] ، فهذه من آيات الله العجيبة؛ تصبح وتمسي وأنت ترى هذه الآية الدالة على كمال الخالق وعظمة المبدع سبحانه وتعالى .

((**والشمسُ والقمرُ**)) كل منهم يجري بحسبان وبأمر الرحمن سبحانه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٤٠] ، هذه آيات من آيات الله العظيمة جعلها أمام العباد يشاهدونها ويرونها مع تكرر الأيام والليالي ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان:٦٢] .

قال : ((**ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع**)) ؛ هذه مخلوقات عجيبة لله سبحانه وتعالى دالة على كمال ربوبيته وعظمته جل وعلا ؛ الأرضون السبع وما أبدع فيها من جبال وأنهار وأشجار وأودية ومخلوقات ، والسماوات وما جعل فيها من العبر والعظات والآيات .

قال : ((**ومَا فيهنَّ وما بينهما**)) ؛ «ومَا فيهنَّ» أي السماوات والأرضين ، «وما بينهما» أي ما بين السماء والأرض من هواء وسحاب ونحو ذلك ؛ فهذا كله من خلق الله جل وعلا الدال على أنه الرب المعبود بحق وأنه لا معبود بحق سواه .

قال : ((**والدليلُ قولُه تَعَالىٰ**)) هذا الدليل على الأول وهو الآيات ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه آيات من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على وحدانيته .

قال : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ نعم هذه آية عظيمة تشد القلوب والأبصار وحركتها عجيبة وانتظامها عجيب ؛ لكن كل ما ترونه في هذا الكون من أمور عجيبة أو عظيمة أو جميلة كل ذلكم لا شيء منه يستحق العبادة لأنها كلها مخلوقات لله تبارك وتعالى ، والمخلوق أياً كان ومهما بلغ في العظمة والحسن والجمال والقدرة ونحو ذلك لا يستحق من العبادة شيء ، العبادة لمن خلقه وأوجده ، أما المخلوق لا يستحق من العبادة ولا شيء يسير .

قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ وهذه قاعدة يستفيدها المسلم في هذا الباب ؛ يعني مهما ترى في هذه المخلوقات من الأشياء العظيمة، إما في حسنها وجمالها، أو في قوتها وقدرتها ، أو في مكانتها ومنزلتها ، أو نحو ذلك كل ما تراه لا يستحق من العبادة . الذي يستحق العبادة الخالق لهذه الأشياء الموجد لها من العدم .

قال : ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فهذه قاعدة وأصل عظيم في هذا الباب؛ أن العبادة لا تكون لأحد أياً كان ومهما كان إلا للخالق العظيم الرب الجليل ، الموجد لهذه الكائنات، المبدع لهذه

المخلوقات، الذي لا شريك له في شيء من ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

قال : ((**وقولُهُ تعالى**)) ؛ هذا الدليل الثاني لقوله «ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ ..الخ» .

قال : ((**وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**)) ؛

فهذه مخلوقات عظيمة وكبيرة دالة على أن خالقها ومبدعها هو المستحق للعبادة دون سواه .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ثم ذكر مخلوقاته الدالة عليه ؛ ذكر أولاً : خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق السماوات والأرض بهذه الهيئة العجيبة والصفة العظيمة آية من آيات الله الدالة على وحدانيته وفردانيته سبحانه وتعالى .

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ العرش المجيد العظيم الكريم أيضاً هذا من مخلوقات الله العظيمة ، والعرش سقف المخلوقات وأعلاها ، وقد وصفه الله في القرآن بأنه عرش مجيد ، وأنه عرش عظيم ، وأنه عرش كريم لحسنه وبهائه . وصفه الله جل وعلابهذه الصفات ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى؛ فإنه أعلى الجنة ووسط الجنة وفوقه عرش الرحمن)) ، فعرش الرحمن جل وعلا هو أكبر المخلوقات وأوسعها وأعظمها ، ولهذا وصفه الله بالمجيد قال : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] ، والمجيد معناه: الواسع . فالعرش أكبر المخلوقات وأوسع المخلوقات ؛ وهذا من آيات الله العظيمة ومن مخلوقاته الكبيرة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

وحتى نتفكر قليلاً ونتدبر في هذا الأمر نستذكر حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي عليه الصلاة والسلام وهو جالس في المسجد الحرام وسألته عن الكرسي ؛ قول الله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة)) يعني قطعة من حديد صغيرة ألقيت في صحراء ؛ ماذا تكون نسبة الحلقة الصغيرة من الحديد التي ألقيت في صحراء واسعة؟! قال : ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة ، وما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا مثل ذلك)) السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة ، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة ، الأرض التي أنت عليها ما نسبتها لعموم الأرض؟ وما نسبتها للأرضين السبع ؟ وما نسبتها للسماوات المحيطة بالأرضين ؟ كل هذه نسبتها للكرسي كحلقة حديد صغيرة ملقاة

في صحراء ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، والكرسي نسبته للعرش كحلقة من حديد صغيرة ألقيت في صحراء.

هذه آيات عظيمات تدل على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء ذكر الكرسي في آية الكرسي تمهيداً لذكر عظمة الله ، لأنه قال : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ، فذكر الكرسي تمهيداً لذكر عظمته سبحانه . الكرسي محيط بالسماوات والأرضون ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ، وهذا الكرسي العظيم نسبته إلى العرش كحلقة ألقيت في فلاة ، والرب جل وعز عظُم شأنه وتعالى جدُّه ولا إله غيره أخبر عن نفسه في سبع آيات من القرآن الكريم أنه استوى على العرش ؛ أي علا وارتفع عليه . ونحن نؤمن بما أخبر به ربنا عن نفسه وبما أخبر عنه رسوله عليه الصلاة والسلام ، ونقول كما قال الله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤] ، نقول كما قال الله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] . ولو قال لنا قائل : أين الله؟ نقول : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ، الجواب ما هو يا إخوان عندما يسألك سائل ويقول لك : أين الله ؟ وتقول ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ الجواب هذا ما هو ؟ آية تتلى في القرآن الكريم في سورة طه . فإذا قيل لك : أين الله ؟ اتلُ هذه الآية : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ؛ أي علا وارتفع جل وعلا . ودعك من أقاويل المبطلين وكلمات الضالين المنحرفين الزائغين ، أجب بكلام الله وبكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإياك أن تؤخَذ هنا وهناك بعيداً عن القرآن الكريم وبعيداً عن سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي علا وارتفع عليه ، الاستواء معناه في اللغة: العلو والارتفاع ، ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي علا وارتفع عليه . فإذا قال لك قائل : كيف استوى على العرش؟ ماذا تقول له ؟ الله جل وعلا أخبرنا في القرآن أنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى ، فالذي أخبرنا الله سبحانه وتعالى به نقوله ونؤمن به ونعتقده ونعلن اعتقادنا له ، والذي لم يخبرنا الله سبحانه وتعالى به لا نخوض فيه ولا نتكلم فيه بحرف واحد . ولهذا لما قال رجل للإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة ، لما قال له : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ غضب رحمه الله غضباً شديداً حتى إن جسمه تصبب عرقاً تعظيماً لله سبحانه وتعالى؛ علته الرُحضاء؛ أي تصبب عرقاً ، وقال كلمته العظيمة المشهورة ؛ قال : «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» ، «الاستواء معلوم» أي معناه معلوم أي : علا وارتفع ، «والكيف مجهول» لأنا لم نخبر بالكيفية ، أُخبرنا بالاستواء ولم نخبر بكيفيته فلا نخوض في ذلك ؛ ولهذا طريقة السلف في الصفات هي : «أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف» يعني لا تخض بالتكييف ، التكييف باطل ، التكييف

قول على الله بلا علم والله يقول : ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] ، ويقول : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] .

قال : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ هو جل وعلا مستوٍ على عرشه العظيم المجيد الكريم ويدبر مخلوقاته ويتصرف في الكائنات كيف يشاء ، وتنزل تدابيره وأوامره وأحكامه وقضاؤه سبحانه ، ولا يتخلف شيء مما قضاه وقدَّره جل وعلا .

ولهذا ينبغي على المؤمن أن يقوِّي هذه الإيمانيات في نفسه لتقوى صلته بربه . زينب رضي الله عنها ماذا كانت تقول في قصة زواجها ؟ كانت تقول لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام : «زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات»؛ ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧] زوَّجها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات فكانت تفخر بذلك ؛ فانظر إلى هذا الإيمان بالله جل وعلا وأنه من فوق سبع سماوات يقضي ويحكم ويدبر ويسخِّر ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع عز وجل سبحانه . ولهذا عندما يكون العبد ساجداً يذكر هذه العقيدة العظيمة ويسبح الرب الأعلى في سجوده قائلاً : «سبحان ربي الأعلى» ، وأقرب ما يكون العبد من ربه جل وعلا وهو ساجد .

قال : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ»: أي يغطي الليل النهار ، «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا» أي يطلبه سريعاً .

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ كل هذه المخلوقات ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي تسير وتتحرك بتسخيره وتدبيره سبحانه وتعالى ، ليس لها من الأمر شيء ، الأمر لخالقها ومالكها ومسخرها سبحانه وتعالى .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ؛ له الخلق وله الأمر ، أي هو متفرد بالخلق والأمر . والخلق عرفناه وهو : إيجاد هذه الكائنات . والأمر : هو أوامره سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ، وأمره : كلماته سبحانه وتعالى ، وكلماته نوعان: كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية دينية . فالخلق لله والأمر لله وفرّق سبحانه وتعالى بين الخلق والأمر ؛ وهذا فيه دلالة على أن القرآن وهو من كلام الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقاً ، لأن الله فرّق بين الخلق وبين الأمر جل وعلا .

قال : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تَبَارَكَ : أي تعاظم وجلّ وعز شأنه سبحانه وعظم ؛ وهذا لا يطلق إلا على الله، «تَبَارَكَ» هذه الكلمة لا يجوز أن تطلق إلا على الله، لا يجوز أن يقال في أي مخلوق «تبارك»، هذا أمر لا يطلق إلا على الله ، يمكن أن يُقال : «مبارك» ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم:٣١] ، ويمكن أن يُقال : "بارك

الله فيك" أو نحو ذلك ، أما «تبارك» هذه كلمة لا تطلق إلا على الله سبحانه . قال : {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

قال : ((**والرَّبُّ هو المعبودُ**)) ؛ أي الرب الذي خلق هذه المخلوقات وأوجد هذه الكائنات وأبدعها سبحانه وتعالى وأوجدها بعد أن لم تكن هو المعبود ؛ أي الذي لا معبود بحق سواه ، له العبادة وله الذل وله الخضوع كما قال : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢] ، قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١] .

قال : ((**والرَّبُّ هو المعبودُ**)) أي الذي يجب أن تصرف له العبادة وحده دون سواه .

((**والدليلُ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**)) ؛ هاتان الآيتان الكريمتان هما أول آيتين وردتا في القرآن في باب الأمر والنهي، فأول ما تقرأ في الأوامر في القرآن: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ، وأول ما تقرأ في النواهي في القرآن : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ ، فأول أمر في القرآن أمر بالتوحيد ، وأول نهي في القرآن نهي عن الشرك والتنديد .

قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فهذا نداء لجميع الناس أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ، وعرفنا قول ابن عباس رضي الله عنهما «كل أمر في القرآن بالعبادة أمر بالتوحيد»، ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي أفردوه بالعبادة ووحدوه سبحانه وتعالى

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي تفرد بخلقكم وخلْق من قبلكم ، أي كما أنه سبحانه تفرد بالخلق للعالمين لا شريك له في ذلك فيجب أن يُفرد وحده بالعبادة ، لا أن يكون هو الخالق والعبادة تصرف لغيره، وهذا من النبأ العظيم والأمر الغريب في حال كثير من الناس؛ تفرّد رب العالمين بخلقهم ورزقهم والتصرف فيهم ثم يفزعون إلى غيره ويلجؤون إلى من سواه!! إذا أراد حاجة ومطلباً ورغبة فزع إلى غير الله من شجر أو حجر أو ميت أو غير ذلك يفزع إليهم في حاجاته ورغباته ، فهذا من الأمر العجيب في حال بعض الناس والله يقول : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} أي أفردوه – جل وعلا – بالعبادة ولا تجعلوا معه شريكاً في ذلك .

ثم ذكر جل وعلا من آياته ومن مخلوقاته الدالة على وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة قال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي مفروشة ممتدة ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[الذاريات:٤٧] .

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل المطر من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي من أنواع الثمار والزروع رزقاً لكم ؛ وهذا كله تفرد به رب العالمين .

قال : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والخطاب هنا للمشركين الذين جعلوا مع الله سبحانه وتعالى الأنداد والشركاء ؛ يعبدونهم مع الله ويدعونهم مع الله ويستغيثون بهم مع الله ويلتجئون إليهم مع الله ، قال : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي لا تجعلوا لله شركاء ونظراء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ الخطاب للمشركين فما معنى قول الله لهم : ﴿وَأَنتُمْ﴾ أي أيها المشركون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ؟ ماذا يعلم المشركون ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما يوضح معنى الآية : «أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله» ؛ المشركون يعلمون أنه لا خالق لهم غير الله ، إذا قيل لهم : من خلقكم ؟ من خلق السماوات ؟ من خلق الأرض ؟ من خلق الجبال ؟ كل ذلكم يقولون : الله ؛ ولهذا يقول رب العالمين : ﴿فَلا تَجْعَلُوا﴾ أي أيها المشركون ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي لله شركاء في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله . وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦] ؛ أي وما يؤمن أكثرهم بالله رباً خالقاً رازقاً منعماً إلا وهم مشركون غيره معه في العبادة؛ يدعون غيره ويستغيثون بغيره ويلتجئون لغيره سبحانه وتعالى . قال : {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} .

((قالَ ابنُ كثيرٍ)) ؛ «ابنُ كثيرٍ» الحافظ الإمام المفسر صاحب التفسير العظيم الموسوم بـ : «تفسير القرآن العظيم» وهو من أنفع كتب التفسير وأنفعها وأجودها .

قال رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية : «الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ»؛ هذه خلاصة بديعة مستنبطة ومأخوذة من هذه الآية ؛ أي الخالق لهذه الأشياء ؛ أي الخالق لكم ولمن قبلكم وللسماء وللأرض وللسحاب وللنبات؛ الخالق لهذه الأشياء كلها هو المستحق للعبادة ، أي لا أحد يستحق العبادة سواه ، الذي يستحق العبادة ذلاً وخضوعاً وانكساراً ودعاءً ورجاء هو الخالق لهذه الأشياء ، أما من سوى الله من الملائكة والأنبياء وغيرهم كل هؤلاء لا يستحقون من العبادة أي شيء ، لأن العبادة حقٌ للخالق الجليل والرب العظيم الخالق لهذه الأشياء الذي لا شريك له في خلقها . وسيأتي عند المصنف رحمه الله بيان عظيم للعبادة وذِكر أفراد عديدة لها مع ذكر الدلائل على ذلك من كتاب الله عز وجل .

فهذا كلام يتعلق بالأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه ، ولا يزال لهذا الموضوع صلة في بيان أنواع العبادة ، لأنه تحصَّل لنا مما سبق أن العبادة حق لله ، لا يستحق العبادة إلا الخالق لهذه الأشياء وهو رب العالمين لا شريك له؛ وهذا يستوجب على كل مسلم أن يعرف العبادة ما هي ؟ وأن يعرف أفرادها ليفردها ويخلصها لله جل وعلا ، ولا يجعل مع الله شريكاً في شيء من ذلك .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ ومنهُ الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ، وغيرُ ذلك من أنواع العبادةِ التي أَمرَ اللهُ بها كلُّها لله تعالى، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]. **فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ، والدليلُ قوله تعالى:** ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

وفي الحديثِ « الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَة » والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

ودليلُ الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٨٥].

ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

ودليلُ التَّوَكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]، **وقوله:** ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[البقرة:١٥٠].

ودليل الإنابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[الزمر:٥٤].

ودليل الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، **وفي الحديثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».**

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، **و** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١].

ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]، **ومِنَ السُّنَّةِ:** « **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ** ».

ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

****

هنا ذكر الإمام رحمه الله تعالى جملةً من أنواع العبادة بياناً لها وتذكيراً بها ودلالةً بها على ما سواها من أنواع العبادة مما لم يذكره ، والذي ذكره رحمه الله هنا وهو سبعة عشر نوعاً من أنواع العبادة ذكرها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، مبيناً في كل نوع من هذه الأنواع وفرد من هذه الأفراد دليله من كتاب الله جل وعلا ، وعرفنا فيما سبق أن الدين كله مسائل ودلائل ، الدين كله مسائل تُذكر مع دلائلها من كتاب الله جل وعلا ؛ فالمسائل التي لا تقوم على دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وليس لها مستند من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهي مردودة، فالدين مسائل ودلائل ، ولهذا نرى الشيخ رحمه الله على طريقة أهل العلم وجادة السلف أهل السنة يذكرون المسألة مضموماً إليها دليلها إما من كتاب الله جل وعلا أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ولا يخترعون –وحاشاهم ذلك– بل يبنون كل ما يقررونه على الدلائل البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فهم أئمة هدى ودعاة حقٍ إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى صراط الله المستقيم .

وكان رحمه الله ذكر في الأصل الأول –الذي هو معرفة العبد ربه– أن معرفة العبد ربه تكون باعتقاد أن الرب الذي تفرد بالخلق والرزق والذي يُعرف بآياته ومخلوقاته لا يُعبد إلا هو كما مر كلامه رحمه الله: ((والرب هو المعبود)) وتلا قول الله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١] ، ونقل كلام الإمام المفسر ابن كثير رحمه الله قال : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» ؛ فإذا تقرر ذلك وجب على المسلم أن يعرف العبادة وأن يعرف أنواعها ويجتهد في معرفة أفرادها ليصرفها كلها لله ، ولكي لا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء منها . ولهذا أخذ يعدِّد المصنف رحمه الله أنواعاً من العبادة مستدلاً على كل نوع من هذه الأنواع بدليله من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ولهذا قال : ((**وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها**)) ولننتبه إلى قوله رحمه الله «التي أَمَرَ اللهُ بها» ؛ لأن العبادة هي شرع الله الذي أذن هو جل وعلا لعباده أن يتقربوا به إليه كما قال : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣] قال جل وعلا :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ، فالدين هو ما أذن الله به ورضيه لعباده وأمرهم به في كتابه أو في سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ**)) وهذه الأمور الثلاثة التي بدأ بها رحمه الله هي الدين كله ، كما هو مبين في حديث جبريل المشهور لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام ثم سأله عن الإيمان ثم سأله عن الإحسان ثم قال عليه الصلاة والسلام في تمام الحديث : ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ؛ فالدين يجمعه هذه المراتب الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ هذه مراتب الدين . وأعلى هذه المراتب الإحسان؛ وهو أن يعبد المسلم ربه جل وعلا كأنه يراه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان وقد فسر النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان بذكر أصوله التي عليها يبنى ، قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) . ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام ، وفسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : ((أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً)) .

فهذه الثلاثة هي الدين ؛ الدين إسلام وإيمان وإحسان ، وكلٌ من هذه الأسماء –الإسلام والإيمان والإحسان– جاء بيانها مجملاً ومفصلاً في كتاب الله جل وعلا؛ ولهذا من العبادة ومن الدين الذي نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به أن نحقق العلم بهذه المراتب الثلاثة ونجتهد تحقيق في ذلك ، وأن نحقق أيضاً العمل بهذه المراتب وما تقتضيه من ذل وعبودية وخضوع لله تبارك وتعالى . فهذا من العبادة؛ الإسلام والإيمان والإحسان ، وهو من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله جل وعلا بل هو الدين كلّه ؛ الدين كلّه يجتمع في هذه الكلمات الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان . وسيأتي ذكر الدليل على هذه المراتب الثلاثة عند المصنف رحمه الله تعالى لاحقاً .

قال : ((**ومنهُ الدعاءُ**)) ؛ من العبادة التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ويفرد به وتُخلص له سبحانه وتعالى ولا يُجعل معه شريك فيها : الدعاء ؛ بل إن الدعاء هو أعظم العبادة وأجلُّها ، وسيأتي ذكر الدليل عليه وكذلك ذكر الدليل على بقية العبادات التي ساقها رحمه الله تعالى ؛ فذكر رحمه الله من العبادة : «**الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ**»؛ قال: «وغيرُ ذلك من أنواع العبادةِ» ، وسيأتي الكلام على هذه العبادات واحداً واحداً مع ذكر الدليل الذي ساقه المصنف رحمه الله على هذه العبادات .

قال : ((**وغيرُ ذلك من أنواع العبادةِ التي أَمرَ اللهُ بها كلُّها لله**)) قال «كلُّها» أي ما ذكره رحمه الله من العبادة وما لم يذكره ، لأن الذي ذكره ذكره على سبيل المثال ، فما ذكره من العبادة : الدعاء والذبح والنذر والاستغاثة والاستعانة وغيرها هذه كلها وغيرها أيضاً مما لم يذكره العبادة كلها حق لله جل وعلا ، العبادة التي هي غاية الذل مع الخضوع والحب لله هذه لله ، لا يكون ذل الإنسان وخضوعه وانكساره وإتيانه بهذه العبوديات إلا للذي خلقه

جل وعلا وأوجده من العدم ومنَّ عليه بصنوف النعم وأنوع المنن ؛ فلا يدعو إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يصرف شيئاً من هذه العبادات ولا غيرها إلا لله تبارك وتعالى ، فإن العبادة حق له لا شريك له في شيء منها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما .

قال : ((**والدليلُ**)) أي والدليل على أن هذه العبادات كلها لله وأن أحداً ليس له شركة مع الله سبحانه وتعالى في شيء منها الدليل على ذلك :

((**قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**)) أي لا تعبدوا مع الله أحداً ، العبادة حق لله تبارك وتعالى ؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا دعاء مسألة من سؤالٍ وطلبٍ ورغبةٍ ، ولا تدعوا مع الله أحداً دعاء عبادة ؛ فلا تذلوا وتخضعوا وتصرفوا العبادة إلا لله تبارك وتعالى ، فالعبادة حق له وحده .

وقوله جل وعلا في هذه الآية : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ؛ «الْمَسَاجِد» تحتمل أحد معنيين :

١. تحتمل المساجد أي مواضع السجود؛ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أي مواضع السجود والأماكن المبنية للصلاة والسجود والعبادة لله تبارك وتعالى ، ويكون المعنى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: أي مواضع السجود وأمكنة السجود لله فلا يُعبد فيها إلا الله ، لأنها بيوت الله وأحب الأماكن إلى الله سبحانه وتعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[النور:٣٦] ، فهي أماكن لعبادة الله تبارك وتعالى فلا يُعبد فيها إلا الله ، ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) .

٢. والمعنى الثاني: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ أي أعضاء السجود وهي: الوجه الجبهة والأنف والكفين والركبتين وأطراف القدمين ﴿لِلَّهِ﴾ أي لا يسجد بها إلا لله ؛ فلا يكون من العبد سجود وركوع وخضوع وذل إلا لله تبارك وتعالى .

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ «أَحَدًا» نكرة جاءت في سياق النهي فتفيد العموم ؛ أي أيُّ أحد كان ، لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقربين ولا من الأولياء الصالحين ولا من غيرهم ؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا: أي أيّ أحد كان ، فكل أحد مهما علا قدره وعلت منزلته وعظم جاهه ليس له أحقية في العبادة وليس له مشاركة في العبادة ، العبادة ليست إلا لله وحده الذي تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعطاء والمنع والتدبير، العبادة له جل وعلا وحده فلا يُصرف شيء منها لأحد سواه .

قال : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا دليل صريح على أن العبادة كلها لله ؛من دعاء أو ذبح أو نذر أو استغاثة أو رجاء أو توكل أو غير ذلك كل ذلك لله لا يُصرف شيء منه إلا لله سبحانه وتعالى .

قال : ((**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ**)) ؛ مَنْ صَرَفَ منها أي من العبادات لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ ؛ مشرِكٌ: أي متخذ الأنداد مع الله ، وكافرٌ بالله العظيم ، وكل مشركٍ كافرٌ بالله سبحانه وتعالى ؛ الذي يتخذ الأنداد والشركاء مع الله هو كافر بالله غير مؤمن به ، لأنه لا يكون الإيمان بالله إلا بتوحيده وإخلاص الدين له ، فمن لم يخلص الدين لله جل وعلا فهو كافر بالله ، ومن كان كافراً بالله فأعماله كلها حابطة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ، وقال جل وعلا : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ﴾ [الزمر:٦٥] ؛ فجعْل الشركاء مع الله تبارك وتعالى مبطل للأعمال محبط لها ، ومن جعل مع الله الشركاء فهو مشرك كافر بالله تبارك وتعالى .

قال : ((**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغير الله فهو مشرِكٌ كافرٌ**)) ما الدليل ؟

قال : ((**والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**)) ؛ فسمى جل وعلا من يدعو غيره ويعبد غيره كافراً بالله ، والكافر أعماله كلها باطلة وعباداته كلها حابطة ولا يقبل الله سبحانه وتعالى منها شيء ، وإن مات على كفره بالله أدخله الله يوم القيامة نار جهنم مخلداً فيها أبد الآباد لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، كما قال جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦] فكل كفور هذا مآله وهذا مصيره دخول النار يوم القيامة والخلود فيها أبد الآباد .

قال : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي من يجعل مع الله آلهة أخرى أنداداً مع الله وشركاء مع الله يدعوهم كما يدعو الله ويذبح لهم كما يذبح لله وينذر لهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويتوكل عليهم ويرجوهم ويخافهم ويصرف لهم أنواع العبادة فهو كافرٌ بالله تبارك وتعالى .

قال : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ «لا بُرْهَانَ»: أي لا حجة ولا سلطان ، وهذا كما بيَّن العلماء رحمهم الله وصفُ لازم لا ينفك ؛ فكل من دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له ، فهذا وصف لازم لا ينفك عن كل من دعا مع الله تبارك وتعالى إلهاً آخر .

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي عقوبته وجزائه على شركه وكفره بالله حسابه عند ربه يوم يلقى الله جل وعلا ؛ فلا يغفر الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨] ، ويدخله النار مخلداً فيها أبد الآباد .

قال : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لا سبيل لمن مات على الكفر بالله أن يحصِّل فلاحاً ، ولا مطمع له في مغفرة الله والفوز برحمته ، لأن الله توعد سبحانه وتعالى أن من مات على الشرك بالله لا يغفر الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] ، فالذي يموت على الشرك لا مطمع له في فلاح ولا سبيل له لنيل رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا فإن الكافر يوم القيامة يطالب بأمور لا يحصِّل شيئاً منها :

- يطالب بأن يُعاد مرة ثانية للحياة الدنيا ليعمل صالحاً غير الذي كان يعمل فلا يستجاب له .
- يطالب أن يخفف عنه العذاب في النار وأن تخف عليه شدة العذاب فلا يستجاب له .
- يطالب ويتمنى أن يكون تراباً ، يُقضى عليه فيموت فلا يستجاب له .

بل يأتيه كلام يسمعه هو أشد كلام يسمعه أهل النار في النار ؛ وهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠] يعني ليس هناك موت ، وليس هناك تخفيف ، وليس هناك عودة للحياة الدنيا ، بل ليس أمامكم إلا زيادة العذاب ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ؛ فهذه حال من يكفر بالله ويشرك بالله ويجعل مع الله تبارك وتعالى الأنداد . قال : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

لما ذكر رحمه الله هذين الدليلين :

❖ الدليل الأول : على أن العبادة كلها لله سبحانه وتعالى .

❖ والدليل الثاني : على أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو كافر مشرك .

لما ذكر الدليلين على ذلك ؛ بدأ رحمه الله يذكر الأدلة دليلا دليلاً على ما ذكره من أفراد العبادة . سبق أن ذكر الدعاء والخوف والرجاء والتوكل ..الخ ، فبدأ رحمه الله يذكر الأدلة من كتاب الله جل وعلا ومن السنة الدالة على أن هذه عبادات وأنها حق لله وأنه لا يجوز صرف شيء منها ولا من غيرها من العبادات لغيره سبحانه وتعالى .

فبدأ بالدعاء ؛ وبدؤه بالدعاء: لأنه أعظم أنواع العبادة ، ولهذا بدأ بالحديث الدال على ذلك قال : ((**وفي الحديثِ « الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَة »**)) ومعنى «مُخُّ العِبَادَة » : أي خالص العبادة ولب العبادة وصفو العبادة . فهذا فيه دلالة على أهمية الدعاء ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحديث الآخر: ((الدعاء هو

العبادة)) ، وهذا فيه أن الدعاء أعظم أنواع العبادة لأن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بهذه الصيغة بضمير الفصل والخبر المعرَّف بالألف واللام ليدل على الحصر ، وهذا فيه الدلالة على عظم مكانة الدعاء في العبادة وأن له المكانة العلية والمنزلة الرفيعة . نظيره قوله عليه الصلاة والسلام : ((الدين النصيحة)) وقوله : ((الحج عرفة)) ونحو ذلك من الأحاديث .

فالدعاء عبادة عظيمة وطاعة جليلة لا تصرف إلا لله ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما: ((إذا سألت فاسأل الله)) ؛أي لا تسأل غير الله ، لا تتوجه في سؤالك وطلبك ورغباتك وحاجاتك إلا لله تبارك وتعالى ، لأنه وحده الذي بيده العطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والقبض والبسط ، والعز والذل ؛ كل ذلك بيده هو مالك الملك ، وهو جل وعلا مدبر الأمر وهو المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط فلا يدعى إلا الله سبحانه وتعالى . والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : ((الدعاء هو العبادة)) تلا قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي حقيرين صاغرين ذليلين . فالدعاء عبادة والعبادة حق لله تبارك وتعالى . والأنبياء كلهم بُعثوا بالدعوة إلى دعاء الله وحده وصرف العبادة كلها لله جل وعلا دون أن يجعل معه شريك في شيء من ذلك .

قال : ((**والدليلُ**)) على أن الدعاء عبادة قول الله تعالى : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ وهذه الآية تلاها النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال : ((الدعاء هو العبادة)) ، وهي نص صريح في أن الدعاء عبادة لأن الله قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ؛ فسمى جل وعلا من يستكبر عن الدعاء مستكبراً عن العبادة ، فالدعاء عبادة والعبادة حق لله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] ؛ فالدعاء هو من جملة العبادات بل هو من أعظم العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

ولهذا من دعا غير الله من ميت أو غائب أو شجر أو حجر وسأله وطلبه وعرض عليه حاجاته فقد أشرك بالله العظيم ، لأن الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله ولا يتوجه فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

والمصنف رحمه الله ليس المقام عنده في هذه الرسالة مقام بسط الأدلة ، ولهذا يكتفي في كل ما يذكره بذكر دليل واحد على ذلك من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلا لو تطالع القرآن في موضوع الدعاء خاصة تجد الأدلة على وجوب الإخلاص لله وبيان أن من دعا غير الله تبارك وتعالى بأنه مشرك بالله كثيرة جداً في القرآن الكريم ، ومع كثرتها وصراحتها ووضوحها فإن الدعاء أكثر العبادات التي تصرف لغير الله!! وكثيراً من الناس

ولاسيما عند الضراء وعند نزول البلاء وعند حلول الأمراض والأسقام وعند اشتداد الحاجات والطلبات يفزعون إلى غير الله سبحانه وتعالى ويلجؤون إلى غير الله ممن لا يملك له ، لا يملك لنفسه فضلاً أن يملك لغيره .

ولهذا يجب على المسلم أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعلم هذا الأمر جلياً ؛ فلا يصرف دعاءه إلا لله سبحانه وتعالى؛ لا يدعو ملكاً ، لا يقول في دعائه وحاجته : "يا جبريل أو يا إسرافيل أو يا ميكائيل أو يا ملائكة الله" لا يقول ذلك ، الملائكة لهم مكانة عظيمة ومنزلة علية لكن مع مكانتهم ومنزلتهم ما يجوز أن يُجعلوا آلهة مع الله يدعون وتصرف لهم العبادة التي هي حق لله . وكذلك لا يجوز دعاء الأنبياء، لا يقول : "يا أنبياء الله أدركوني أو الحقوني أو أنا عائذ بكم أو لائذ بجنابكم أو مستجير بكم" ، ولا يقول : "يا نبي الله أو يا رسول الله الحقني أدركني أنقذني". ولا يقول : "يا أولياء الله أو يا سيدي فلان أو يا شيخ فلان الحقني أدركني" ؛ لا يقول ذلك لأن هذا دعاء والدعاء لله ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : ((إذا سألت فاسأل الله)) .

أذكر مرة كان إلى جنبي رجل من الزائرين وكنت أقرأ القرآن وكان ماداً يديه يدعو ويبكي في دعائه ، ثم رفع صوته قليلاً في الدعاء وإذا به في دعائه وخشوعه وبكائه ومناجاته ينادي ويستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : "يا رسول الله الحقني" ينادي يستغيث بالرسول عليه الصلاة والسلام ويطلب أن يُكشف كربه من الرسول عليه الصلاة والسلام!! والله يقول : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢] فأخذت أتحدث معه قليلاً قليلا في مكانة الدعاء أولاً وفضل الدعاء ومنزلته من الدين وفضل الخشوع في الدعاء والإلحاح في الدعاء وذكرت له بعض الآيات والأحاديث في ذلك ، ثم أخذت أذكر له الآيات الخاصة بالدعاء وأنه عبادة لا تصرف إلا لله مثل قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] وقول الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥] {ومن أضل}؛ أي لا أحد أضل ، استفهام إنكاري ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ، وقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤] ، ومثل قول الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] ، ومثل قول الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] وآيات أخرى في هذا الباب . أخذت أتلوا عليه هذه الآيات وأقرأها عليه آيةً آية .

ثم أخذت أذكر له من السنة أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام في الدعاء وقلت له : النبي صلى الله عليه وسلم حاجاته كلها ينزلها بالله ويلتجئ بها إلى الله ويطلب كشفها من الله سبحانه وتعالى وهو عبد فقير إلى الله سبحانه وتعالى من كل وجه والأمر بيد الله ، قال الله له : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨] ، وقال الله له : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦] ، وقال الله له : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣] ؛ الأمر لله ، الأمر بيد الله سبحانه وتعالى . قلت له : النبي صلى الله عليه وسلم يفزع إلى الله إذا مرض هو أو مرض أحد فزع بالدعاء إلى الله يقول في دعائه : ((اللهم رب الناس مذهب الباس اشفِ أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)) ، الشفاء بيد الله والهداية بيد الله والعطاء بيد الله والفضل بيد الله كل ذلك بيد الله ولا يُطلب إلا من الله ، لا يُطلب من الأنبياء ولا من الملائكة ولا من غيرهم . فأخذت أبين له هذه المعاني مع دلائلها من كتاب الله جل وعلا وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ثم أردت أن أتأكد هل الرجل فهم أم لم يفهم ؟ هل استوعب الكلام أم لم يستوعب ؟ فقلت له : ما رأيك في هذا الكلام الذي سمعته ؟ فقال الرجل لي كلمة عظيمة جداً ؛ قال لي : "تقول لي ما رأيك وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث ؟!" يعني ما في رأي إذا جاءت الآيات والأحاديث ما في رأي لأحد ، وصدق إذا جاءت الآيات و جاءت الأحاديث فليس هناك رأي لأحد ، من الذي يقدِّم رأيه على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام؟ وهذا من فطنة ذلك الرجل ونباهته ؛ قال لي : "تقول ما رأيك وأنت تقرأ علي أحاديث وآيات؟!" أي ليس لي رأي ، هذا كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر عمرو وزيد ، الله يقول : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات:١] . قال لي : "تقول لي ما رأيك وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث؟!" فما زلت مصراً أن أطمئن أن الرجل فهم واستوعب أم لم يستوعب ؟ فقلت له : أنا سمعتك تقول في دعائك : يا رسول الله أدركني ولهذا أقول لك ما رأيك ؟ فماذا قال ؟ قال لي : " أنا من بلد كذا –سمى لي بلده– ما أحد قال لي الكلام هذا" يعني ما أحد تلا علي هذه الآيات وهذه الأحاديث من كتاب الله ، ما أحد فهَّمه أن الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله .

وكثير من الناس يبتلى في بلده أن دعاة الضلال يفهمونه أن دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله توسل ويقولون هذا واسطة بيننا وبين الله ، هذا واسطة وشفيع لنا عند الله سبحانه وتعالى ؛ فيدعون غير الله ويستغيثون بغير الله ويصرفون هذه العبادة التي هي حق لله لغيره بزعم أنه واسطة يقربهم إلى الله ، وهذا نظير ما جاء في القرآن : ﴿مَا

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[الزمر:٣] في الآية الأخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾[يونس:١٨] ؛ أي وسطاء لنا عند الله . من الذي قال لك اتخذ في باب الدعاء بينك وبين الله واسطة ؟ الله يقول : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ﴾ ماذا ؟ ﴿ ادْعُونِي ﴾ اتجهوا إلي ، التجئوا إلي ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠] من الذي قال لك اتخذ وسطاء بينك وبين الله ؟ الأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ الدين يبلغوننا دين الله ، لكن العبادة ليس بين الله وبين خلقه واسطة فيها ؛ يُعبد الله مباشرة ، يُتجه إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا يجعل العبد بينه وبين الله واسطة في دعائه أو في عبادته أو في سجوده أو في ذله أو في خضوعه ، فالذي يتخذ الوسطاء والشفعاء تكون حاله كحال من قال الله عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

فالشاهد أن الدعاء نظير سائر العبادات بل هو أهم العبادات لا يصرف إلا لله ؛ فلا يدعى إلا الله ، ولا يستغيث العبد إلا بالله ، ولا ينزل حاجاته ورغباته إلا بالله . بعض الناس يخاطب مخلوقين ويقول في مخاطبته لمخلوق : "إن لم تدركني من الذي يدركني ؟ إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي؟" ، ويقول بعضهم لبعض المخلوقين مستغيثاً به : "أنا عبدك اللائذ بجنابك، المنكسر عند بابك، الواقف بأعتابك يرجوك ويطمع في نوالك" ويبدأ يلح ويسأل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[الأعراف:١٩٤] ، العبد لا يُعبد مهما كانت مكانته ومهما علت منزلته العبد لا يُعبد ، العبادة حق لله سبحانه وتعالى ، العبد مهما عظمت مكانته وعلت منزلته لا يُعبد ، لا يُعطى شيئاً من العبادة ، نبينا عليه الصلاة والسلام قال في الحديث الصحيح : ((ما أحب أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها)) منزلة العبودية والرسالة .

فالشاهد أن الدعاء عبادة وهي حق لله سبحانه وتعالى ولا يجوز صرفها لغيره ، والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

قال : ((**ودليلُ الخوفِ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾**)) ؛ الخوف عبادة قلبية مكانها القلب ؛ وهو فزع القلب ووجله ، وهو عبادة لا تُصرف إلا لله جل وعلا ، والمراد بالخوف الذي هو عبادة ولا يجوز صرفه لغير الله: خوف السر ، الخوف الباطن الذي في القلب؛ الذي يكون في قلب الإنسان بحيث يخاف في قلبه من شخصٍ ما بأن يدَّعي فيه بأنه عنده قدرة مثلاً على زيغ القلوب أو على قبض الأرواح أو يعتقد فيه أنه عنده قدرة على إنزال الضر به أو نحو ذلك ؛ فيخافه خوف السر الذي لا يكون إلا لله جل وعلا . فالمراد

بالخوف هنا خوف السر ؛ بحيث يخاف من شخصٍ ما ويعتقد فيه أنه عنده قدرة على أن يزيغ قلبه أو أن يقبض روحه أو نحو ذلك من الاعتقادات والظنون والمخاوف التي قد ينزلها بعض الناس بغير الله جل وعلا .

مثال ذلك : أن يخاف بعض الناس من المقبورين ؛ فيكون خائفاً من صاحب القبر وتجده يترك بعض الأعمال لا يفعلها خوفاً من صاحب القبر . أحدهم قيل له احلف بالله وكان كاذباً ؛ فحلف ، فقيل له احلف بالولي فلان ؛ فامتنع خاف في باطنه وقلبه من الولي أشد من خوفه من الله سبحانه وتعالى ، لما حلّفوه بالله حلف ، ولما حلّفوه بالولي امتنع ؛ هذا خوف السر ، يخاف من الولي أن يصيبه خوف سر في باطنه أشد من خوفه من الله ؛ هذا شرك بالله .

قال لي مرة أحد التجار في إحدى الدول ؛ صاحب أموال وجاهل في الدين وناصحته فيما قال لي ، قال لي : أنا أبيع على الناس حاجات وأحياناً أبيع بالدين ، يعني يأخذون مني بالدين ويوفون فيما بعد ، قال فبعضهم يجحد أحياناً أن لي عنده شيء ، يقول : جربت إذا حلفتهم بالله يحلفون وإذا حلفتهم بالشيخ فلان ما يحلفون ، ويقول: أنا دائماً ما أحلفهم بالله أحلِّفهم بالشيخ ؛ لأنهم أبداً إذا حلفتهم بالشيخ ما يجحد يخاف من الشيخ من الولي خوف سر ، ورب العالمين لا يخاف منه هذا الخوف الذي يخافه من الشيخ . هذا العمل ما هو ؟ هذا شرك بالله ، خوف السر عبادة لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى . أحد هؤلاء قيل له : احلف بالله فحلف ، قيل له : احلف بالولي الفلاني فحلف ، فغضب صاحبه ، أنا لما قرأت هذه الكلمة «فغضب صاحبه» ظننتُ أنه غضب للشرك ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ظننت أنه غضب للشرك ، قال : "فغضب صاحبه وقال : تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب؟!" الولي ميت في قبره ، ولما حلف بالله ما قال له : تحلف بالله وأنت تعلم أن الله يعلم أنك كاذب، ما قال له هذه الكلمة ، لكن لما حلف بالولي غضب ، ولما حلف بالله لم يغضب! .

فمثل هذا التعلق -تعلق القلوب- بالأولياء والمقبورين وأن يخاف منهم هذا شرك بالله سبحانه وتعالى ، بعضهم يمتنع من أعمال مثل أن يمتنع من زنا أو .. يخوفونه بالولي ما يخفونه بالله ، فيكون هذا الخوف الذي وقع في قلبه ومنعه من الفاحشة شرك بالله سبحانه وتعالى ناقل من الملة ، الزنا ما ينقل من الملة والسرقة ما تنقل من الملة لكن الشرك بالله ينقل من الملة يخرج من الدين ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] ؛ الشرك محبط للأعمال كلها .

ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ؛ لأن الحلف بالله كاذباً ما هو ؟ كبيرة وليس شركاً ، والحلف بغيره صادقاً شرك بالله سبحانه وتعالى ، وعندما توازن بين الكلمتين تدرك فقه الصحابة ؛ يقول رضي الله عنه : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ، وفي كل من الأمرين حسنة وسيئة :

❖ الأمر الأول : الحلف بالله فيه حسنة: حسنة التوحيد ، وفيه سيئة: سيئة الكذب.

❖ والأمر الثاني: فيه حسنة الصدق وفيه سيئة الشرك .

فإذا وازنت تدرك فقه الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا قال رضي الله عنه : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ؛ لأن الحلف بالله كاذباً كبيرة ، والحلف بغيره صادقاً شرك بالله جل وعلا كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) .

الشاهد أن خوف السر عبادة لا يجوز صرفه لغير الله ، وخوف السر عرفنا معناه وهو أن يخاف من غير الله من ميت أو غائب أو نحو ذلك يخاف أن يقبض روحه ، يخاف أن يطّلع على عمله ، يترك المحرمات خوفاً منه ، يفعل الواجبات خوفاً منه أو نحو ذلك ؛ هذا يسمى خوف السر وهو عبادة لا يجوز أن تُصرف إلا لله رب العالمين وسيأتي الدليل على ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

أما الخوف الطبيعي؛ خوف الإنسان من عقرب أمامه ، أو من حية ، أو من نار مشتعلة ، أو من عدو أمامه ؛ هذا خوف طبيعي ، جاء في الحديث : «كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا خاف من قوم قال : اللهم إننا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك اللهم من شرورهم» ، وفي القرآن : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ لما ألقى السحرة بعصيهم وأصبحت حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [طه:٦٧-٦٨] ؛ فهذا خوف طبيعي ، يعني أمام الإنسان أسد أو عقرب أو حية أو نار مشتعلة أو عدو متسلط فيخاف منه هذا خوف طبيعي ولا شيء على الإنسان فيه ، لكن الخوف الذي هو عبادة هو خوف السر ؛ كأن يخاف غائباً أو يخاف ميتاً أو نحو ذلك فيترك مثلاً المحرم خوفاً منه أو يفعل الواجب خوفاً منه أو نحو ذلك ؛ هذا خوف سر لا يكون إلا لله تبارك وتعالى ، ومن صرفه لغير الله فقد أشرك .

والخوف من الله هو عبادة قلبية عظيمة تسوق الإنسان إلى فعل الطاعات واجتناب المحرمات ، لأن العبد كلما كان من الله أخوف كان لعبادته أطلب ، وقد قيل : «كل شيء تخاف منه تفر منه ؛ إلا الله سبحانه وتعالى إذا خفته فررت إليه»، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] لا ملجأ من الله إلا إليه ، ليس لك ملجأ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١] لا مفر لك ولا ملجأ إليك إلا إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فالعبد إذا خاف الله سبحانه وتعالى في قلبه ترك المحرمات وابتعد عن الآثام وعن المعاصي خوفاً من الله . فالخوف عبادة قلبية عظيمة ، والعلماء رحمهم الله يقولون : العبادات عموماً تقوم على أركان ثلاثة في القلب وهي: المحبة والرجاء والخوف ، وسيأتي ذكر الرجاء عند المصنف .

فالمحبة عبادة ، والرجاء عبادة ، والخوف عبادة ؛ وهي للعبادات كلها بمثابة الأركان ، تقوم العبادات كلها على هذه الأركان الثلاثة: الحب والرجاء والخوف . إذا قيل لك مثلاً لماذا تصلي ؟ لماذا تصوم ؟ لماذا تحج ؟ تقول : أنا أؤدي هذه الطاعات حباً لله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] فهذا شأن أهل الإيمان وأهل الطاعات يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بأنواع القرب وأنواع العبادات حباً لله ورجاءً لثواب الله وخوفاً من عقاب الله سبحانه وتعالى . وبهذا يُعلم أن هذه الثلاث -الحب والرجاء والخوف- أركان قلبية للعبادات كلها ، وبها أيضاً يُعلم مكانة الخوف من الدين ؛ الخوف من الله سبحانه وتعالى .

قال : ((**ودليلُ الخوفِ قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)) ؛ أول الآية : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥] ؛ أي يخوفكم بأوليائه ، قال : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ يعني لا تخافوا أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِي﴾ أي ليكن خوفكم من الله وحده ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي بالله سبحانه وتعالى وبما أمركم جل وعلا بالإيمان به ؛ فلا تخافوا إلا الله ، لا تخافوا الشيطان ولا تخافوا أولياء الشيطان ، لا تخافوا إلا الله جل وعلا .

قال : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جعل الخوف شرطاً في صحة الإيمان قال : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ؛ فكما أنه إذا دعا غير الله أو سأل غير الله انتفى عنه الإيمان فكذلك إذا خاف غير الله خوف السر مثل أن يخاف أن يفعل به شيئاً بسره فإن الخوف أنواع منه خوف السر ، فإذا خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر بالله سبحانه وتعالى . وهذا له أمثلة أشرت إلى بعضها، مثل لو خاف من أحد غائب أو ميت أو نحو ذلك أن يُزيغ قلبه أو أن يُضله أو أن يقبض روحه أو نحو ذلك ؛ هذا كله خوف سر وهو شرك بالله سبحانه وتعالى.

قال : ((**ودليلُ الرَّجاءِ**)) والرجاء عبادة قلبية من أجلِّ العبادات ، والرجاء: هو الطمع والأمل؛ طمع القلب وأمله بالله سبحانه وتعالى وبما عنده وطمعه في رحمة الله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] ، وهو عبادة لا تصرف إلا لله جل وعلا قال الله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:١١٠] ، ومر معنا ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ؛ فالرجاء عبادة .

قال : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات يقدمها المسلم في هذه الحياة يرجو بها لقاء الله على خير حال . فالرجاء عبادة وهي عبادة قلبية ، عبادة مكانها القلب بل هو من أركان التعبد القلبية وهي : الرجاء والخوف والمحبة .

قال : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ «أَحَدًا» نكرة في سياق النهي فتفيد العموم ، من كان يرجو لقاء الله ويطمع في ثوابه ويخاف من عقابه ويعلم أنه سيقف يوماً بين يديه يحاسبه ويجازيه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ أي ليتقرب إلى الله وليكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

وهذه الآية كما نبّه العلماء جمعت بين شرطي قبول العمل ، فإن الأعمال لا تقبل إلا بشرطين : إخلاص للمعبود ومتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ الإخلاص في قوله: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، والمتابعة في قوله : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ ، لأن العمل الصالح هو ما وافق السنة ، والله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه صواباً على وفق هدي نبيه صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جاء عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال في معنى قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢] قال : «أخلصه وأصوبه» قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص: ما كان لله ، والصواب: ما كان على السنة» .

قال : ((**ودليلُ التَّوكُّلِ**)) ؛ والتوكل أيضاً عبادة قلبية ، عبادة مكانها القلب وهو التفويض والاعتماد ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[غافر:٤٤] اعتماد القلب ، الاعتماد والتفويض لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى .

قال : ((**ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**)) إن كنتم مؤمنين فابرؤوا من حول أنفسكم وقوَّتها ومن حول الناس وقوتهم واعتمدوا في أموركم وحاجاتكم ورغباتكم وشؤونكم كلها على الله وحده ، فوضوا الأمور كلها إلى الله ، الجأوا فيها إلى الله ، اعتمدوا فيها بقلوبكم على الله سبحانه وتعالى؛ أموركم الدينية والدنيوية . ولهذا وجَّه نبينا عليه الصلاة والسلام من يخرج من بيته أن يقول : «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» ، وهذه الكلمات الثلاثة كلها كلمات استعانة وتوكل «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله » قال : ((فإذا قال ذلك قيل له : هديت ووقيت وكفيت)) أي هداك الله ووقاك الله وكفاك الله لأنك متوكل على الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦] ، من توكل على الله لو كادته السماوات والأرض ومن فيها فالله سبحانه وتعالى ناصره ومؤيده وحافظه وكافيه، ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك)) . فالتوكل عبادة ولا تكون هذه العبادة إلا على الله سبحانه وتعالى .

نبينا عليه الصلاة والسلام مرةً كان قافلاً مع أصحابه من غزوة فأدركهم التعب فناموا جميعاً ، ونام عليه الصلاة والسلام وسيفه إلى جنبه فجاء رجل من الأعداء وأراد أن يغتنم هذه الفرصة يريد قتل النبي عليه الصلاة والسلام فأخذ يتخطى بهدوء إلى أن جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ السيف وسله مصلتاً ؛ ففتح عليه الصلاة والسلام عينيه وإذا بهذا العدو واقف وبيده السيف ويريد أن يهوي به على رسول اله عليه الصلاة والسلام ؛ يد قوية وبها سيف صلت ورافعاً له ما بقي إلا أن يهوي به ، فقال الرجل مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام : "من يحميك مني؟" فقال عليه الصلاة والسلام بكل ثقة وتوكل على ربه جل وعلا: ((الله)) ، قال : " من يحميك مني؟" يعني من يخلصك ؟ من ينقذك ؟ من ينجيك مني ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((الله)) ، فلما قال عليه الصلاة والسلام ((الله)) تعطلت يده عن الحركة الرجل ، يده وساعده القوي الممسك بالسيف بقوة أصبحت يده معطلة لا تحسن تقبض على سيف ولا تحسن أن تضرب بسيف ليس فيها قوة عطلها الله سبحانه وتعالى عن ما فيها من قوة؛ فسقط السيف من يده لأن يده أصبحت ما تتحرك ، فقام عليه الصلاة والسلام وأخذ السيف وأمسك بالسيف وقال له : من يحميك مني ؟ فأخذ يترجى : أنت كريم وأنت ابن كريم ويطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يسامحه .

موسى عليه السلام لما تراءى الجمعان ماذا قال له قومه ؟ قالوا «إنا لمدركون» ؛ يرون حقيقة مفزعة ؛ البحر أمامهم وفرعون بجيشه وعتاده وجنوده وقوته وصلوهم ؛ قالوا إنا لمدركون، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]ماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢] هذا توكل على الله واعتماد على الله سبحانه وتعالى .

التوكل عبادة قلبية لا يجوز أن تصرف إلا إلى الله ، وهي عبادة تصحب المسلم في كل أموره الدينية والدنيوية ؛ إذا أردت أن تصلي تصوم تحج تتصدق تفعل أي طاعة فعليك أن تتوكل على الله سبحانه وتعالى فيها ، تعتمد فيها عليه سبحانه وتعالى . وإذا أردت أيضاً حاجاتك الدنيوية من بيع وشراء وطعام وشراب ولباس وغير ذلك أيضاً تتوكل على الله .

ولهذا ينبغي أن يُعلم أن التوكل عبادة قلبية تصحب المسلم في حياته كلها في أموره الدينية وأموره الدنيوية ، يجب على المسلم أن يكون شأنه في أموره وأعماله وشؤونه وأحواله كلها متوكلاً على الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أي كافيه ، ومن يتوكل على الله ماذا يكون له؟ ((من تعلق شيئاً وكل إليه)) ، ومن توكل على غير الله وكل إلى الخسران والحرمان في دنياه وأخراه . فالتوكل عبادة قلبية عظيمة لا يجوز أن تصرف إلا لله سبحانه وتعالى .

ولا يعني التوكل ترك الأسباب ، بل التوكل على الله حق التوكل يكون مع فعل الأسباب ؛ ولهذا إمام المتوكلين عليه الصلاة والسلام كان يفعل الأسباب ويباشرها ، الأسباب في الأمور الدينية والأمور الدنيوية كان يباشر ذلك عليه الصلاة والسلام ويأمر بذلك ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عنه قال : ((لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) ، قال: «تغدو» الطير ما جلست في أوكارها تنتظر أن يأتيها الطعام! بل تمشي وتذهب المسافات تبحث عن الشراب وعن الطعام ، ولهذا التوكل لابد فيه من فعل الأسباب ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) قال : «احرص على ما ينفعك» يعني افعل الأمور التي تنفعك واجتهد على فعلها ولا تتوكل إلا على الله ، قال : «واستعن بالله» أي توكل على الله .

الصحابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن ناقته قال : «أعقلها وأتوكل أو أتركها وأتوكل ؟» يعني هل أعقل الناقة ؟ أضع لها عقال في قدمها حتى لا تذهب وأتوكل على الله؟ أو أتركها طليقة بدون عقال وأتوكل على الله؟ إلى ماذا أرشده عليه الصلاة والسلام ؟ أرشده إلى فعل السبب قال : ((اعقلها وتوكل)) يعني ضع في رجلها العقال وتوكل على الله ؛ أرشده عليه الصلاة والسلام إلى فعل السبب .

عمر رضي الله عنه لما ذُكر له طائفة من الناس جاءوا إلى الحج بدون زاد وقالوا نحن المتوكلون ، قال : «بل هم المتواكلون» ، المتوكل هو الذي يضع بذره ويتوكل على الله ، لابد أن يفعل السبب ، أما أن يجلس معطلاً بدون سبب ويريد أن يحصّل!!

فلابد من فعل الأسباب ، ولا يُعتمد على الأسباب وإنما يُعتمد على الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا لو أن شخصاً قال : "إن كتب الله لي أولاد يكون لي أولاد لكن أنا لن أتزوج إلى أن أموت" ، أو شخص مثلاً يقول : "إن كتب الله لي أن أكون من كبار العلماء المحققين سأكون لكن لن أطلب العلم يوماً ولن أذهب إلى عالم ولن أقرأ كتاباً ولن أحفظ درساً ولن أتفقه" هذا لا يكون عالماً . النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم)) أرشد إلى فعل السبب . ولهذا قال من قال :

تمنيتَ أن تمسي فقهياً مناظراً بغير عناءٍ والجنونُ فنونُ

وليس اكتساب المال دون مشقةٍ تلقَّيتها فالعلم كيف يكونُ

يعني العلم لا يكون إلا بفعل السبب . فإذاً التوكل عبادة قلبية عظيمة جداً تصحب المسلم في أموره كلها وشؤونه جميعها الدينية والدنيوية ، وهي شرط في الإيمان ؛ قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه ، في الآية الأخرى قال : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فمعنى ﴿حَسْبُهُ﴾ أي كافيه ، الحسب هو الكافي ؛ فالذي يتوكل على الله يكون الله سبحانه وتعالى كافيه ومؤيده

وناصره وحافظه . فهذا دليل التوكل ، ذكر رحمه الله تعالى على التوكل دليلين ثم استمر رحمه الله تعالى في سوق الأدلة على بقية العبادات التي ذكرها ، وإلى هنا نقف .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة»:

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[البقرة:١٥٠].

ودليل الإنابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[الزمر:٥٤].

ودليل الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، **وفي الحديثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».**

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١].

ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]، **ومِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».**

ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

****

فإن المصنف رحمه الله تعالى يذكر هنا أنواعاً من العبادات التي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها وخلقهم لتحقيقها وأرسل إليهم رسله لبيانها وإيضاحها ، وهذه العبادات كلها صفات ذلٍ وخضوعٍ وطواعيةٍ وانكسارٍ لله تبارك وتعالى، ووظائف الشرع وطاعاته سميت عبادات لأنها هيئات يذل فيها العبد وينكسر ويخضع لربه جل وعلا . والعبادة أصلها وأصل مدلولها في اللغة: من الذل ؛ يقال طريق معبَّد: أي مذلل . والعبادات سميت عبادات لما فيها من الذل لله والخضوع له جل وعلا ، وجميع ما يقوم به العبد من قُرب وطاعات وأعمال وأقوال يحبها الله جل وعلا ويرضاها من عباده هذه كلها عبادات يذل فيها العبد لله جل وعلا .

والعبادات منها ما هو في القلب؛ مثل الخشية والإنابة والتوكل والرجاء والخوف ، ومنها ما هو في اللسان؛ كذكر الله ودعائه وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنها ما هو بالجوارح؛ كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك من العبادات المقربة إلى الله سبحانه وتعالى . والواجب على المسلم أن يعرف العبادة ما هي؛ لأمرين :

- الأمر الأول : لكي يصرفها لله وحده ذلاً وخضوعاً وطاعةً وامتثالاً ، ولكي لا يصرف شيئاً منها لغيره ؛ فصرفُها لله تبارك وتعالى وحده توحيدٌ ، وصرفُها لغيره شرك . والتوحيد قَوام الأمر ، والشرك ناقضٌ للدين وقادحٌ في الإيمان وناقلٌ من الملة ؛ ولهذا كان متأكداً على كل مسلم أن يعرف العبادة لكي يصرفها كلها لله ، يصلي لله ، يصوم لله ، يذبح لله ، ينذر لله ، يرجو رحمة الله ، يخاف عذاب الله ، يتوكل على الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾[الأنعام:١٦٢]، يجعل ذلك كله لله وحده سبحانه وتعالى .
- والأمر الثاني : لكي لا يجعل شيئاً منها لغيره ، لأنه إن جعل شيئاً منها لغير الله تبارك وتعالى صار بذلك مشركاً، وإذا صار مشركاً انتقض دينه وحبط عمله وخرج من الملة ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي وحده ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] فالعبادة حق لله وحده .

فإذاً مقام العبادة مقام عظيم ، ويجب على كل مسلم أن يعرف العبادة ما هي؛ لكي يصرفها بأنواعها وأفرادها لله جل وعلا وحده ، محققاً قوله : ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ ، ولكي لا يصرف شيئاً منها لغيره فيكون بذلك —والعياذ بالله– من المشركين ، فينتقض عليه دينه وينتقل من الملة . ولهذا كان من نصح المصنف رحمه الله تعالى هنا أن ذكر بعض العبادات على سبيل التمثيل من العبادات القلبية والعبادات البدنية والعبادات المالية ؛ نوّع رحمه الله في ذكر العبادات حتى يفقه المسلم أنواع العبادة لكي يصرفها كلها لله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ، ولكي لا يصرف شيئاً منها لغير الله تبارك وتعالى .

ولهذا ينبغي أن يكون منا على بال – ونحن نقرأ هذه العبادات مع دلائلها– لآيتين اللتين قدَّم رحمه الله الكلام على هذه الأنواع بها ؛ وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فهذه فيها الدليل على أن العبادات كلها لله ، والآية الثانية قول الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] وهي تدل على أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فإنه يكون بذلك مشركاً بالله عز وجل ويكون بذلك كافراً ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

قال هنا رحمه الله : ((**ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ**)) ؛ الرغبة والرهبة والخشوع هذه ثلاث عبادات جاءت مجتمعةً في آية واحدة وصفاً لأنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه ، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر عدداً من الأنبياء وذكر شيئاً من خبرهم وطرفاً من قصصهم ثم ختم ذلك كله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي هؤلاء الأنبياء ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] ؛ فوصفهم بأنهم راغبون إلى الله ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩] ، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧-٨] أي إليه وحده دون سواه ، فوصفهم بالرغبة إلى الله جل وعلا ، ووصفهم بالرهبة منه ؛ فهم إليه راغبون ومنه جل وعز راهبون ، وختم الآية بأنهم له جل وعلا خاشعون ؛ فذكر ثلاث عبادات امتدح بها الأنبياء وأثنى عليهم بها ، وهذا مقام ثناء ومدح ، وهذا أيضاً دليل على أن الله يحب هذه الأعمال . وعرفنا ضابط العبادة الجامع «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»؛ فالرغبة والرهبة والخشوع هذه كلها أعمال وطاعات يحبها الله، إذاً فهي عبادات لا يُتقرب بها إلا إلى الله ولا تصرف إلا له سبحانه وتعالى ، فلا تكون الرغبة إلا إلى الله ، ولا تكون الرهبة إلا من الله ، ولا يكون الخشوع إلا لله . فهذه عبادات لا تُصرف إلا لله هي حق له جل وعلا دون سواه ، صرفها له توحيد ، وصرفها لغيره شرك وتنديد . وهي عبادات قلبية ؛ الرغبة والرهبة والخشوع :

❖ أما الرغبة ففيها معنى الطلب ؛ فيها معنى طلب القلب للأعمال والطاعات والقربات التي تدني العبد من الله سبحانه وتعالى وتقربه منه ، ومر معنا قريباً ذكر الرجاء عبادة من العبادات المقربة إلى الله ، وتلا المصنف رحمه الله في ذلك قول الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:١١٠] ، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] ، الرجاء عبادة والرغبة عبادة ومعناهما متقارب لكن ثمة فرق بينهما ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : «الفرق بين الرغبة والرجاء: أن الرجاء طمع ، والرغبة طلب» ؛ الرجاء طمع يعني طمع القلب وأمله فيما عند الله سبحانه وتعالى من ثواب ومن جزاء ومن إنعام وفضل وإحسان ، والرغبة طلب فهي -أي الرغبة- ثمرة الرجاء ، فإنه إذا رجا الشيء طلبه ، يعني إذا وقع في قلبه رجاء للشيء سعى قلبه في طلب ذلك الشيء . فهذا يبين لنا الفرق بين الرجاء والرغبة: أن الرجاء طمع والرغبة طلب ، وتكون بذلك الرغبة ثمرة للرجاء بمعنى إذا وقع في القلب رجاء أي طمع فيما عند الله عز وجل من الثواب والأجر وُجدت الرغبة إلى الله سبحانه وتعالى بالجد والاجتهاد فيما يقرب إليه سبحانه ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩] ، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧-٨] .

❖ والرهبة: هي الإمعان في الهرب من الشيء ، إذا كان الإنسان راهب من شيء -يعني خائف منه- فإن هذا يعطي معنى خوف القلب ، ولهذا قال : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] أي أنهم في دعائهم لله سبحانه وتعالى

بين الرغب والرهب ؛ الرغب فيما عند الله من فضل وعطاء وخير وإنعام ، والرهبة أيضاً من سخطه ومن أن يُردَّ على الإنسان عمله أو لا يُقبل دعاؤه فيكون راغباً راهباً .

وهذان الأمران –الرغبة والرهبة– يجب على كل مسلم أن يستصحبهما في كل طاعة ، بحيث يكون في كل طاعة يأتي بها وعبادة يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها أن يكون في ذلك كله راغب وراهب ؛ راغب فيما عند الله ، وراهب أيضاً من سخط الله جل وعلا ، فتكون طاعاته بين الرغبة والرهبة وبين الرجاء والخوف ؛ وهما للعامل بمثابة الجناحين للطائر ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله كلمة عظيمة تسطَّر ، قال : «الرغبة والرهبة مادتا التوفيق» بمعنى أن العبد مادام عنده رغبة ورهبة بتوازن وماضياً حياته كذلك على هذه الحال راغب وراهب هذه مادتا التوفيق ، يعني تمده بإذن الله تبارك وتعالى ليسير سيراً حثيثاً فيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويدني من رحمته ، فرغبته تحدوه وتسوقه لفعل الصالحات وأنواع الطاعات ، وخوفه ورهبته تزجره عن ارتكاب المعاصي والخطيئات . ولهذا قال بعض السلف عن الرجاء والخوف والرغبة والرهبة: «الرجاء قائد، والخوف سائق» ، الرجاء يقود الإنسان إلى الخيرات ، والخوف يسوقه من الوراء للتقدم والمضي في الخيرات وأيضاً يمنعه إذا أراد أن يلتفت إلى شيء من الحرام أو أراد أن يدخل في شيء من الآثام يأتيه الخوف ويمنعه –خوفا من الله– ؛ يمضي في الطاعات راجياً ثواب الله مقبلاً على الله طامعاً في ثواب الله ، إذا التفتت نفسه إلى باب من أبواب الحرام جاءه الخوف ومنعه ، وجاءته الرهبة وحجزته فيمتنع خوفاً من الله .

ولهذا المؤمن كلما عظم خوفه من الله ازداد بُعده عن المعاصي والذنوب ، وكلما أحضر في قلبه الخوف من الله عندما تقبل نفسه عن المعصية امتنع منها ، لأن الخوف يمنع الإنسان ، خوفه من الله من عقابه من سخطه من بطشه يمنعه . ولهذا القرآن والسنة كلاهما قائمان على الترغيب والترهيب ؛ الترغيب بذكر آيات الرجاء والثواب والإنعام والفضل والإكرام ، والترهيب بذكر العقاب والسخط والانتقام والبطش والشدة ، ولهذا ترى في القرآن الجنة والنار يذكران معاً ، الثواب والعقاب يذكران معاً ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠] ؛ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا يحرك الرجاء، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ هذا يحرك الخوف . ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]

عندما يقرأ المسلم في آيات الرجاء يقوى في قلبه الرجاء وعندما يقرأ في آيات الخوف تحجزه عن المعاصي ؛ واقرأ هذا في السورة التي تكررها فرضاً واجباً كل يوم وليلة سبع عشرة مرة–سورة الفاتحة– ، عندما تقرأ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وتتأمل في هذين الأسمين العظيمين وما دلا عليه من ثبوت الرحمة الواسعة والواصلة ، عندما تقرأ في هذين الاسمين متدبراً ما الذي يتحرك في قلبك ؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ، فإذا انتقلت

إلى الآية التي بعدها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وذكرت أن يوم الدين يوم الحساب والعقاب ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩] فإذا قرأت : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ دخل إلى قلبك ماذا ؟ الخوف ؛ فتكون دائماً في عباداتك راجي وخائف ، الصلاة تؤديها حباً لله، وعندما تقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يتحرك في قلبك الحب ، وعندما تقرأ : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يترك الرجاء ، وعندما تقرأ : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يتحرك الخوف ؛ وبهذه الثلاثة تكون الصلاة وبها تكون كل الطاعات . ولهذا قال العلماء رحمهم الله: «الحب والرجاء والخوف أركان قلبية للتعبد» بمعنى أنها تكون مستصحَبة في كل العبادات حاضرة مع المسلم في كل الطاعات يؤديها راجياً خائفاً ، راغباً راهباً ، وبهذين الأمرين كما يقرر ابن القيم رحمه الله يتحقق التوفيق فهما مادتا التوفيق ؛ مادتا التوفيق: أي لكل خير يحبه ويرضاه جل وعلا والبعد عن المعاصي والآثام. وقلة الطاعات والقصور فيها من ضعف الرغبة ، والوقوع في المعاصي والآثام من ضعف الرهبة ؛ فإذا قويت الرغبة وقويت الرهبة وكانتا في العبد متوازنتين مضى بإذن الله تبارك وتعالى في طريق السداد والتوفيق. اللهم اهدنا وسددنا.

❖ قال : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ هذه العبادة الثالثة في هذه الآية ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ والخشوع: هو السكون والطمأنينة ، وهي عبادة عظيمة مقربة إلى الله جل وعلا ، وهي في معناها قريبة من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وأما الخشوع فإنه يكون في القلب قلب خاشع ، ويكون أيضاً في البصر ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [المعارج:٤٤] البصر يخشع ، ويكون أيضاً في اللسان ؛ فالخشوع في القلب واللسان والبصر، والخضوع في البدن يخضع أي عندما يركع لله ويسجد هذا خضوع لله جل وعلا ، والخشوع معنى أوسع من ذلك يكون بالبدن ويكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح .وهي عبادة يحبها الله ويرضاها وامتدح أنبياءه بها ، قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يكون خاشعاً لله في صلاته ، أن يكون خاشعاً لله جل وعلا في دعائه وفي طلبه وفي سؤاله ، فهي عبادة جليلة تصرف لله ولا يجوز صرفها لغيره سبحانه وتعالى . ﴿خَاشِعِينَ﴾: أي خاضعين متذللين لله جل وعلا منكسرين لجنابه .

فدلت هذه الآية على أن هذه الثلاث : الرغبة والرهبة والخشوع أنها كلها عبادات مقربة إلى الله جل وعلا، فلا تكون إلا له ولا تصرف إلا له سبحانه وتعالى . فإذا وقف إنسان أمام ضريح من الأضرحة أو موقع من المواقع متجهاً إلى مخلوق من المخلوقات وقامت فيه هذه الأمور الثلاثة متقرباً بها من هذا المخلوق، فجمع بين الرغبة والرهبة والخشوع عند ضريح أو عند مكان أحد الأموات من الأولياء أو غيرهم فقام أمامه راغباً راهباً خاشعاً

تكون جوارحه فيها ذلك ؛ قلبه فيه الرغبة وفيه الرهبة وفيه الخشوع ويتحرك لسانه أمام ذلك المخلوق في الطمع والطلب ، وبعضهم يصرّح منادياً مخلوقاً من المخلوقات "يا فلان أنا راغب فيما عندك، يا فلان أنا خاشع بين يديك" ، بعضهم بهذا اللفظ ينطق بلسانه ما قام في قلبه من ذل وخضوع وانكسار وعبودية لغير الله تبارك وتعالى!!

فإذا كانت الرغبة والرهبة والخشوع عبادات يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها لعباده وامتدحهم بها في مواضع كثيرة من القرآن ؛ فإن صرفها لغير الله شرك بالله أياً كان الذي صرفت له هذه العبادة ، سواء صُرفت لملك أو صرفت لنبي أو صرفت لولي أو لأي أحد كان كائناً من كان . أنبياء الله وصفوة عباده مدحهم الله بأنهم راغبون إلى الله راهبون من الله خاشعون لله ، وأنهم دعوا أقوامهم إلى ذلك وبينوا لهم ذلك ، فمن صرف هذه الأعمال لغير الله تبارك وتعالى فإنه يكون بذلك مشركاً . وبعض الناس ممن بلي بهذه المفاسد والعظائم ربما عندما يأتي إلى ضريح من الأضرحة يقوم في قلبه من الرغبة والرهبة والخشوع ما لا يقوم في قلبه إذا قام يصلي بين يدي الله تبارك وتعالى!! وهذه مصيبة عظمى وبلية كبرى وكارثة من أشد الكوارث وعظيمة من أشد العظائم ؛ ولهذا كان المقام مقاماً ينبغي أن يتفطن له المسلم وأن يعرف العبادات لأجل أن يصرفها كلها لله تبارك وتعالى، ولأجل ألا يجعل لغير الله سبحانه وتعالى كائناً من كان مشاركة لله في شيء منها .

قال :

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾

****

قال رحمه الله : ((ودليلُ الخَشيةِ)) الخشية أيضاً عبادة قلبية ، الخشية فعلة من خشِيه أي خافه ، وهو بمعنى الخوف إلا أنه أخص من الخوف؛ لأن الخشية عن معرفة والباعث إليها المعرفة بمن يخشاه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] ، ولهذا العبد كلما ازداد معرفة بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا ازداد خشية من الله ، وكلما عظمت فيه الخشية من الله سبحانه وتعالى انكف عن الحرام وابتعد عن الآثام ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله ما معناه في بعض كتبه: «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ؛ فمعرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته سبحانه تورث حبه وتورث أيضاً خشيته جل وعلا . وإذا قامت في قلب العبد الخشية من الله جل وعلا كانت سائقاً له إلى كل خير وفضيلة وحاجزاً له عن الوقوع في كل سوء ورذيلة.

قال : ((**ودليلُ الخَشيةِ**)) ؛ أي والدليل على أن الخشية عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تبارك وتعالى **قول الله جل وعلا** : ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾)) ؛ قول الله : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي الناس ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ أي اخشوني وحدي ، لتكن خشيتكم مني وحدي ولا تخشوا الناس ، لتكن خشيتكم من الله تبارك وتعالى وحده .

قال : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي لا تخافوا الناس ولا تخشوا الناس ولتكن خشيتكم من الله؛ لأن الأمور كلها بيده ونواصي العباد بيده وحكمه جل وعلا ماضٍ فيهم ؛ فلتكن خشيتكم من الله لأن العبد مهما أوتي من القوة والقدرة لا يستطيع أن يصل إليك بأي أذى إلا شيء كتبه الله عليك قال : ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك))، إذاً اجمع قلبك في الخشية ولتكن من الله سبحانه وتعالى وحده ؛ فهذه عبودية قلبية لا يجوز أن تصرف إلا لله لقوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ هذا نهي ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ هذا أمر ؛ نهى جل وعلا عن خشية سواه وأمر جل وعز بخشيته جل وعلا وحده ، فدل ذلك على أن الخشية عبادة من العبادات العظيمة وأن صرفها لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله .

قال : ((**ودليل الإنابةِ قوله تعالى:** ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾)) ؛ الإنابة هي : الرجوع والأوبة إلى الله تبارك وتعالى ، ومعناها أوسع من معنى التوبة ، لأن الإنابة إلى الله جل وعلا هي توبة وزيادة ، لأن التوبة : الرجوع من الذنب وتركه وعدم العودة إليه . والإنابة : رجوع عن الذنب وإقبال على الله جل وعلا وعلى طاعته وعلى ما يقرب إليه ؛ فالمنيب : الراجع إلى الله الآيب إلى الله المقبل على الله تاركاً للذنوب مقبلاً على الطاعات والعبادات وأنواع القربات .

قال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي لتكن الإنابة منكم إلى الله وحده؛ لأن الإنابة عبادة لا تكون إلا لله ولهذا أمر بها قال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي أقبلوا على الله ، ارجعوا إلى الله ، أوبوا إلى الله سبحانه وتعالى بالإقبال على الطاعات وترك الذنوب والتخلي عنها ومجاهدة النفس على فعل أنواع القرب ، فالإنابة عبادة لا تكون إلا لله تبارك وتعالى . قال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي أقبلوا عليه طاعةً وذلاً وخضوعاً وانكساراً واجتناباً لما نهى عنه جل وعلا .

قال: ((**ودليل الاستعانةِ**)) ؛ الاستعانة : طلب العون ، والسين للطلب ، عندما نقول الاستعانة الاستغاثة الاستغفار هذه كلها فيها معنى الطلب ، والسين التي في أولها للطلب ؛ فالاستعانة: طلب العون ، والاستغاثة: طلب الغوث ، والاستعاذة: طلب العوذ ، والاستسقاء: طلب الإغاثة وهكذا .

فالاستعانة عبادة والمراد بها : طلب العون ، وإذا أردت العون للقيام بأي مصلحة دينية أو دنيوية وأردت التسديد فيها فاطلب ذلك من الله ، لأن الله عز وجل هو المعين وحده وهو المستعان سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[يوسف:١٨] ، فهو وحده المستعان هو الذي يُطلب منه وحده العون ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : ((يا معاذ إني أحبك فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) ، ومن الدعاء المأثور عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه : ((اللهم أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسِّر الهدى لي وانصرني على من بغى علي ..)) إلى آخر الدعاء ، وهو دعاء عظيم بدأه بقوله : «اللهم أعني ولا تُعن علي» فالعون بيد الله والله هو المستعا، ، فالذي يريد العون في حاجاته الدنيوية أرزاقه معاشه متاعه ، ويطلب العون في عباداته وطاعاته وقرباته لا يطلب ذلك إلا من ربه سبحانه وتعالى الذي بيده أزمة الأمور ، فطلب العون الاستعانة عبادة لا تصرف إلا لله جل وعلا، ما الدليل؟ قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبدك يا الله ولا نعبد غيرك ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي نطلب منك العون يا الله ولا نطلبه من غيرك . فالأسلوب هنا أسلوب حصر؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا من أساليب الحصر في اللغة العربية ، لأن تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر ، أصل الجملة: نعبدك ، نستعين بك ؛ فقدَّم المعمول على العامل قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فحصر العبادة بأنها لله وحده ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حصر طلب العون بالله وحده ، فأفادت هذه الجملة وهي قوله﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أفادت في قوتها ودلالتها إفادة قولك «نعبدك ولا نعبد غيرك ،ونستعين بك ولا نستعين بغيرك» ، هذا معنى﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهذا أيها الأخ الموفق عهد بينك وبين الله تكرره كل يوم فرضاً واجباً عليك سبعة عشر مرة في الصلوات المكتوبة ، وهو عهد بينك وبين الله ، تعاهد الله ، ماذا تقول في عهدك مع الله ؟ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعاهد الله أنك تعبده ولا تعبد غيره وتستعين به ولا تستعين بغيره ، والواجب على كل مسلم أن يفي بهذا العهد وأن يفي بالعهود عموماً وأن يفي بهذا العهد الذي هو أعظم العهود ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾[الإسراء:٣٤] ، هذا عهد بينك وبين الله وهو أعظم عهد يجب أن تفي به وأن تؤديه على التمام لأنك تعاهد الله رب العالمين أن تعبده ولا تعبد غيره وأن تستعين به ولا تستعين بغيره .

فيا من يقول كل يوم سبع عشرة مرة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا تعبد إلا الله، لا تدعُ إلا الله، لا تستغيث إلا بالله، لا ترجُ إلا الله، لا تطمع إلا فيما عند الله، لا تطلب العون والمدد والتوفيق والسداد إلا من الله سبحانه وتعالى . ومن توجه لغير الله قائلاً : مدد يا فلان أو أغثني يا فلان أو أدركني يا فلان أو عونك فيما لا يقدر عليه

إلا الله سبحانه وتعالى فهذا نقض عهده ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل:٩١] ، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل:٩٢] . فالواجب على من عاهد الله سبحانه وتعالى هذا العهد العظيم وتكرر منه عهده هذا مرات وكرات أن يفي به ، فلا يصرف شيئاً من العبادة إلا لله تبارك وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إعلان إخلاص العبادة لله ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إخلاص طلب العون من الله ، العبادة غاية ، والاستعانة وسيلة ، فالغاية التي هي العبادة لله وحده ، والوسيلة لأداء هذه الغاية لا تُطلب إلا من الله جل وعلا وحده . وقد قدَّم جل وعز العبادة على الاستعانة لكون العبادة هي الغاية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها ، والاستعانة وسيلة لأداء هذه الغاية ؛ أنت خلقت لأجل ماذا ؟ لأجل عبادة الله ، هذه الغاية التي خلقت لأجلها ، لكن هذه العبادة هل تستطيع أن تؤدي شيئاً منها إذ لم يُعنك الله ؟ إذا لم يكن لك عون من الله لا تستطيع أن تصلي ولا تستطيع أن تحج ولا تستطيع أن تصوم ولا تستطيع أن تؤدي أي شيء ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[النور:٢١] الأمر بيده جل وعلا والتوفيق بيده العون بيده ، فالعبادة غاية والاستعانة وسيلة .

قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا تحقيق لـ «لا إله إلا الله» وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» ، وقولك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا تحقيق لـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» ، لأن «لا إله إلا الله» كلمة توحيد ، و «لا حول ولا قوة إلا بالله» كلمة استعانة ، «لا إله إلا الله» معناها نعبدك ولا نعبد غيرك ، و «لا حول ولا قوة إلا بالله» معناها نستعين بك ولا نستعين بغيرك ، «لا حول ولا قوة إلا بالله» هذه كلمة تبرأ فيها أنت من حول نفسك وقوتها تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله: أي أن ما عندي من حيلة وما عندي من قوة لا أستطيع أن أصنع بها شيئاً إلا بالله ؛ أي إلا إذا أعانني الله ووفقني ، فمعنى قولك «لا حول ولا قوة إلا بالله»: أي لا تحول من حال إلى حال من ضلال إلى هدى، من فقر إلى غنى و من مرض إلى صحة، من ضعف إلى قوة إلى غير ذلك لا يمكن أن يكون تحول من شيء إلى شيء إلا بمن ؟ إلا بالله ، لا يمكن أن يكون فيّ قوة أباشر بها أعمالي وأحقق بها مصالحي وغاياتي إلا إذا أمدني الله جل وعلا بقوة منه وعون منه سبحانه وتعالى . فـ «لا إله إلا الله» تحقيقها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، و «لا حول ولا قوة إلا بالله» تحقيقها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد قال العلماء رحمهم الله : الأذكار الشرعية لا يستفيد منها العبد إلا إذا عرف معناها وحقق مقتضاها . النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((أكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله)) ، وقال : ((إنها من كنز تحت العرش)) كلمة عظيمة جداً ويحتاج المسلم أن يكررها دائماً وأن تكون بين يدي مصالحه مثل ما أرشد عليه الصلاة والسلام من خرج من بيته أن يقول : «باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» قال عليه الصلاة والسلام : ((من

قال ذلك هدي وكفي ووقي)) ، وقال الشيطان لشيطان آخر : « كيف لك السبيل بمن هدي وكفي ووقي » ، ومعنى ذلك أن الإنسان كل مرة يخرج من بيته في أكثر من شيطان ينتظرونه لإغوائه وصده ، فإذا قال : «باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» رجعت الشياطين خاسئة ولا تجد عليه سبيلاً ، قال الله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الإسراء:٦٤-٦٥] ، قال بعض المفسرين في معنى الآية : إن عبادي الذاكرين لله جل وعلا ليس للشيطان عليهم سبيل ، إنما سبيله على الغافلين عن ذكر الله ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف:٣٦] .

الشاهد أن قوله جل وعلا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كلمتان عظيمتان لا غنى للعبد عنهما أبداً ، وهذا من الحكمة التي لأجلها تتكرر هذه الكلمات في حياتنا وتمضي في لياليا وأيامنا؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نكررها مستحضرين معناها ، متدبرين في مدلولها ، مجتهدين في تحقيق ذلك؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبدك يا الله ولا نعبد غيرك ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نطلب منك العون يا الله وحدك ولا نطلبه من غيرك .

قال : ((**وفي الحديثِ: «إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ»**)) ؛ «في الحديثِ» هذا قاله النبي عليه الصلاة والسلام في جمل عديدة قالها لابن عباس رضي الله عنهما من ضمنها قال : ((إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ)) ، وإذا أردت لنفسك ما يعينك على تحقيق هذا المطلب وتتميم هذا المقصد فأحضر ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الجملة قال : ((وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، فالأمر كله بيد الله جل وعلا ؛ فلا يطلب العون إلا منه ، لا تُطلب الهداية إلا منه ، لا يُطلب التوفيق إلا منه ، لا يُطلب الغنى إلا منه ، لا يُطلب السداد إلا منه ، لا تُطلب الذرية إلا منه ، لا تُطلب أي مصلحة دينية ودنيوية إلا منه لأن الأمر كله بيده جل وعلا .

قال : ((**إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ**)) ؛ «إذَا اسْتَعَنْتَ» ما معناها ؟ أي إذا طلبت عوناً ؛ على ماذا ؟ على أي مصلحة دينية أو دنيوية «فَاسْتَعِنْ باللهِ» أي اطلب العون في تحقيق مصالحك ونيل حاجاتك ومطالبك من الله جل وعلا ، ((إذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ)) أي ليكن طلبك للعون من الله سبحانه وتعالى وحده .

يقول ابن تيمية رحمة الله عليه : «تأملت أنفع الدعاء» يعني أخذت يوم أتأمل في الأدعية أريد أن أصل إلى ما هو أنفع دعاء للمسلم؟ يقول : «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» ؛ انتبه لكلامه رحمه الله فإنه أثمن ما يكون ، قال : «إذا هو سؤال الله العون على

مرضاته» ، الله سبحانه وتعالى رضي لك أن تكون عبداً له ذليلاً تؤدي العبودية التي خلقك لأجلها وأوجدك لتحقيقها ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] ؛ فطلب العون منه على هذا المقصد الذي خُلقت لأجله هذا أفضل الدعاء ، مهما بحثت فأفضل وأنفع شيء تطلبه من الله سبحانه وتعالى هو طلب العون على مرضاته ؛ أن يعينك على ما خلقك لأجله وأوجدك سبحانه وتعالى لتحقيقه .

ثم قال رحمه الله : ((**ودليل الاستعاذةِ**)) ؛ الاستعاذة : طلب العوذ ، أي أن يعيذك من شيء تخافه .
الاستعاذة: هي الاعتصام والالتجاء إلى من تطلب منه أن يعيذك من هذا الذي تخافه ، فالاستعاذة هي : طلب العوذ ، وهي هربٌ من شيء تخافه إلى من يخلِّصك وينجيك ويحميك ، والملجأ دائماً وأبداً إلى من ؟ والمفزع دائماً إلى من ؟ والاعتصام بمن ؟ فالمسلم دائماً يفزع ويلجأ ويعتصم بالله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١] .

فالاستعاذة التي هي طلب العوذ عبادة ؛ من كل شيء تخافه ليكن طلبك العوذ من الله وحده لأنه جل وعلا القدير على كل شيء ، ونواصي الدواب والمخلوقات كلها بيده . كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : «اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، فالق الحب والنوى ، منزلة التوراة والإنجيل والفرقان ؛ أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها» ، وفي القرآن : ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] ، الدواب كلها والنواصي كلها الله سبحانه وتعالى آخذٌ بها وهي بيده وطوع تصريفه وتدبيره جل وعلا . ولهذا المسلم دائماً في خوفه من كل من يخافه وكل من يخشاه يلجأ إلى الله . نبينا عليه الصلاة والسلام ثبت في الحديث أنه كان إذا خاف من قوم قال : «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم» . فالمسلم إذا خاف من عدو خاف من شيطان ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠] ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس] ، الشيطان وسواس خناس ؛ إذا غفل الإنسان عن ذكر الله وسوس ، وإذا ذكر المسلم ربه خنس ؛ أي ذهب وانطرد وابتعد عن الإنسان . ولهذا يكون المسلم دائماً مستعيذاً بالله لا يستعيذ إلا بالله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون:٩٧] .

فالتعوذ عبادة لا تكون إلا بالله؛ تتعوذ بالله من الشيطان ، تتعوذ بالله من شر نفسك ، تتعوذ بالله من شر سمعك، من شر بصرك ، تتعوذ بالله تبارك وتعالى من شر الشياطين ، تتعوذ بالله جل وعلا من كل دابة هو جل وعلا آخذ بناصيتها ، الاستعاذة باب عظيم من أبواب العبادة وهي عبادة لا تصرف إلا لله ، وفي كتاب النسائي رحمه الله

«السنن» كتاب عظيم جداً سماه «الاستعاذة» وجمع فيه الأحاديث الواردة في الاستعاذة جمعاً نافعاً ومفيداً وفيه التعوذات : «اللهم إني أعوذ بك من العجز ، وأعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهم وأعوذ بك من الحزن » ، «اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع» ، «اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع» كل شيء لا تريده كل شيء تخافه تعوذ بالله ، استعذ بالله ، اطلب من الله أن يعيذك منه ، أي شيء تخشاه أي شيء لا تريده أي شيء تخاف أن يضرك أي شيء تخاف أن يأتيك بما يسوءك اطلب العوذ من الله ؛ فإذا استعذت بالله أعانك فهو جل وعلا المستعاذ وإليه الملجأ ، لا ملجأ إلا إلى الله ولا مفر إلا إلى الله ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[الذاريات:٥٠] . فالاستعاذة عبادة عظيمة لا يجوز أن تصرف إلا لله .

وأورد المصنف رحمة الله عليه آيتين من خواتيم كتاب الله جل وعلا ؛ أول سورة الفلق وأول سورة الناس ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه «ما تعوذ متعوذ بمثلهما» ، فهما أعظم ما يتعوذ به الإنسان من الشرور كلها ، ولهذا المسلم يحافظ على هذه التعوذات : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى تمام السورة ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ يحافظ عليها إلى تمام السورة دبر كل صلاة مكتوبة ، وأيضاً في صباحه وفي مسائه ثلاث مرات ؛ ثلاثاً إذا أصبح وثلاثاً إذا أمسى ولا يضره شيء ، يكون محصن محفوظ محمي بحماية الله تبارك وتعالى ، ويكون في حصن حصين وفي حرز مكين لا يقربه شيطان رجيم ، يعيذه الله سبحانه وتعالى من الشياطين ومن السحرة ومن الشرور التي يخافها لأنه لجأ إلى الله واعتصم بالله واحتمى بالله جل وعلا وطلب من الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤] .

قال : ((ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١])) عرفنا معنى الاستعاذة وهي مما يكرهه الإنسان ، يعني الطلب إذا كان في جانبٍ يكرهه الإنسان يسمى «استعاذة» ، وإذا كان الطلب في جانب يريده الإنسان يسمى «لياذة»؛ ولهذا يفرقون بين العوذ واللوذ: أن العوذ مما تكره ، واللوذ فيما تحب وترغب فيه ، مثلما قال القائل : يا من ألوذ فيه فيما أؤمله ومن أعوذ به فيما أحاذره

يعني إن كان الطلب في شيء تخشى منه وتحاذره هذا استعاذة ، وإن كان في شيء تؤمله وترجوه فهذا لوذ .

قال رحمه الله تعالى : ((**ودليل الاستغاثةِ**)) ؛ الاستغاثة : طلب الغوث .

كان نبينا عليه الصلاة والسلام يخطب الناس يوم الجمعة فدخل أعرابي وأخذ يصف القحط الذي في البلاد والذي في الأرض ثم قال: ادعُ الله أن يسقينا ، فمد عليه الصلاة والسلام يديه لله وأخذ يسأله : «اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا» يطلب الغوث من الله ؛ فالاستغاثة التي هي طلب الغوث من الله ، إما طلب الغوث بنزول المطر ، أو

طلب الغوث بمجيء المدد والعون من الله لينتصر العبد على العدو ، فالاستغاثة لا تكون إلا من الله سبحانه وتعالى .

في معركة بدر لما تلاقى الجيشان؛ جيش المسلمين وهم في قلة من العدد والعتاد والسلاح ، وجيش المشركين وهم في كثرة، لما تلاقى الجيشان وتلاحم الصفان توجه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام مستغيثاً بالله؛ يطلب الغوث من الله ، يطلب النصر من الله ، لأن الغوث بيد الله والنصر بيد الله ، فاستغاث بالله ؛ أي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغيثه بأن ينصره على هؤلاء الأعداء ، فأغاثه وأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك وحياً يُتلى عبرةً للعباد وعظة وتبصرة ، قال جل وعلا : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩] ؛ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي تطلبون منه الغوث فيما حصل لكم من شدة عند ملاقاة الأعداء يوم بدر ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فاستجاب لكم بأن أدرككم رب العالمين بغوثه ومدده وعونه ونصره فأجاب الدعاء وأنزل تبارك وتعالى جنوداً من جنوده ، وكان النصر لأهل الإيمان . فهذا دليل على أن الاستغاثة لا تكون إلا بالله .

نبينا عليه الصلاة والسلام عبدٌ يستغيث بالله ولا يُستغاث به ، عبد يستغيث بالله يطلب غوثه من الله ولا يُستغاث به عليه الصلاة والسلام ، الغوث لا يُطلب إلا من الله . بعض الضُّلال ينادي في دعائه النبي عليه الصلاة والسلام ويقول : "يا غياث المستغيثين، يا مجير المستجيرين، يا ملجأ المضطرين" يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام !! النبي صلى الله عليه وسلم عبد يستغيث بربه وهذه عبوديته لله في باب الاستغاثة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ يطلب من الله الغوث ؛ الغوث بالنصر على الأعداء، الغوث بنزول المطر لا يطلبه عليه الصلاة والسلام إلا من الله ، والعبد لا يُعبد ، فهو عليه الصلاة والسلام عبدٌ يستغيث بالله ، يطلب غوثه من الله ولا يُطلب منه الغوث ، غياث المستغيثين من ؟ مجيب المضطرين من ؟ كاشف الكربات من ؟ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢] . فهذا باب تزل به أقدام وتضيع فيه أفهام ويقع فيه أقوام في الردى والهلكة —والعياذ بالله — بعدم البصيرة بالتوحيد وعدم البصيرة بضده .

قال : ((**ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾)) ؛ دلت الآية دلالة واضحة أن الاستغاثة عبادةٌ لا تُطلب إلا من الله ، ومن طلبها من غير الله تباك وتعالى فقد أشرك . يأتي بعض الناس ويلتبس عليه هذا التوحيد الذي تدل عليه الآية فيفهم أن الطلب عندما يقال أن طلب الغوث من المخلوقين شرك فيأتي ويريد أن يناقض هذا التوحيد الخالص فيأتي بآيات أو نصوص تتعلق من استغاثةٍ من مخلوق بمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق . وينبغي أن يفرق بين هذا الجائز المباح ؛ عندما يكون الإنسان مثلاً يريد أن يغرق وإلى جنبه شخص ويقول: أغثني ساعدني عاوني ؛ هذا ما هو ؟ هذا جائز ، لأنك تطلب من مخلوق قادر حاضر تقول :

أغثني ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥] هذا أمر جائز ، عندما يستغيث مخلوق بمخلوق حي حاضر قادر ، انتبه لهذا الكلمات الثلاث مهمة :

- «حي» : ليس بميت ، إن طلب من ميت فهذا لجوء إلى غير الله وتعلقٌ بغير الله تبارك وتعالى فيكون قد وقع في الشرك .
- إن طلب من غائب فهذا أيضاً فزع ولجوء إلى غير الله تبارك وتعالى .
- إن طلب من حي حاضر فيما لا يقدر عليه ، مثل –والعياذ بالله – لو قال شخص لآخر : أرجوك أن تنقذني من النار أن تجيرني من النار أو شيء من هذه الأمور التي لا يقدر عليها ، أن تثبت قلبي أو نحو ذلك فيما لا يقدر عليه إلا الله حتى لو كان حاضر حي أمامه فيكون بذلك مشركاً بالله الشرك الناقل من الملة .

فيُنتبه لهذه المعاني لأن بعض الناس يلبّس ويأتي إلى العوام يقول : ماذا فيه لو استغثنا بغير الله ؟ أليس الله يقول في القرآن : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ ؟ ماذا في هذا ؟ فيخلطون بين الجائز وبين الشرك ، يخلطون بين الجائز وهو الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه ويريدون أن ينزّلوا ذلك في ماذا ؟ في دعاء الميت أو دعاء الغائب أو دعاء الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى . ومن دعا ميتاً أو دعا غائباً أو دعا حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا فقد اتخذه نداً وشريكاً مع الله سبحانه وتعالى . مشكلة دعاة الضلال من القديم هي هذه؛ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق فيضل العوام على أيديهم ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) .

قال رحمه الله تعالى : ((**ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾)) ؛ الذبح هو : القربان الذي يُذبح من بهيمة الأنعام تقرباً لله من الضحايا والهدايا وما يقدمه الإنسان منها شكراً لله ، مثلها كذلك العقيقة ونحو ذلك فهذه عبادة .

والعبودية في الذبح من جهتين :

١. من جهة التقرب بالذبيحة ؛ فالتقرب بالذبيحة والنسك لا يكون إلا لمن ؟ إلا لله ؛ كما أنك لا تصلي إلا لله فأيضاً لا تذبح متقرباً إلا لله سبحانه وتعالى، فالذبح قربة لا يُتقرب بها إلا إلى الله سبحانه وتعالى هذا جانب .
٢. ومن جهة أيضاً الاستعانة؛ فلا يستعين في ذبحها لها إلا بالله ، ولهذا شُرع للمسلم عندما يذبح يقول بماذا ؟ باسم الله ، وهذا طلب عون .

ولهذا الشرك في الذبح يكون من الجهتين : إما بذبحها لغير الله متقرباً بها إلى غير الله ، أو يطلب العون من غيره فيذبحها باسم غير الله ، يسمي غير الله عند ذبحها ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١] .

فالذبح هذه عبادة ؛ ولهذا لاحظ قال الله : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أي لربك ؛ فكما أن الصلاة عبادة يُتقرب بها إلى الله فالذبح أيضاً عبادة لا يُتقرب بها إلا إلى الله ، وفي القرآن قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ؛ ﴿صَلَاتِي﴾ ؛ الصلاة معروفة أي صلواتي ، ﴿وَنُسُكِي﴾ المراد بالنسك: الذبح ؛ فصلاتي ونسكي أي ذبحي لله ، كما أني لا أصلي إلا لله أيضاً لا أذبح إلا لله .

إذا كان الذبح لله توحيد وعبادة يتقرب بها إلى الله ، يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها من عباده فصرفها إلى غيره ماذا يكون ؟ شرك بالله ، لأن صرف العبادة لغير الله شرك ، الآية دليل صريح على أن النسك عبادة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لمن ؟ ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ؛ فمن جعل نسيكته لله هذه عبادة تقربه من الله ومن جعلها لغيره فهذا شرك يُخرجه من دائرة الإسلام ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله تعالى حديثاً ثابتاً عن نبينا عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم وغيره عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**لعن الله من ذبح لغير الله**)) ؛ اللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، والملعون: المطرود المبعَد من رحمة الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : ((لعن الله من ذبح لغير الله)) وهذا دعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله لمن ذبح لغير الله أن يطرده الله وأن يبعده من رحمته «من ذبح لغير الله» لأن الذبح عبادة وصرفها لغير الله موجب للعنة والطرد من رحمة الله والوقوع في سخطه وعقابه جل وعلا ؛ ولهذا قال : ((لعن الله من ذبح لغير الله)).

جاء في حديث يرفع إلى نبينا عليه الصلاة والسلام مبيناً هذا الأمر قال : ((دخل الرجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب)) تعجب الصحابة؛ ذباب ! الذباب معروف بأنه طائر حقير من أخس الحيوان ومن أحقر الحيوان ، ويقول عليه الصلاة والسلام : ((دخل الرجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار في ذباب)) عجيب هذا ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : ((مر رجلان – أي ممن كانوا قبلنا – على قوم عندهم صنم ولا يأذنون لأحد يمر حتى يقرب للصنم شيء)) ما يسمحون لأحد يمر من جهتهم حتى يقرب للصنم شيء ، إن قرّب للصنم شيء جعلوه يمر ، وإن لم يقرب للصنم ذبحوه ، ((مر رجلان على قوم عندهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقولوا له قرِّب)) يعني قدِّم قرباناً لهذا الصنم ، ((فقالوا لأحدهما : قرب)) قدِّم قرباناً لهذا الصنم ، قال : «ما كنت لأقرب لأحد غير الله فقتلوه ودخل الجنة» قُتل صابراً على التوحيد محتسباً أجره وثوابه عند الله سبحانه وتعالى فدخل الجنة ، امتنع أن يقرب ذبابًا فقتلوه قال فدخل الجنة، ((قالوا للآخر: قرب ، قال : ما عندي ما أقرب))

يعني كأنه يقول مستعد لكن مثل ما ترون ما عندي شيء أقربه، قالوا : «قرب ولو ذباب» المهم ما تمر إلا وتقرب شيئاً ، تذبح شيء تقرباً لهذا الصنم «قرب ولو ذباب» فأخذ يبحث عن ذباب يطير وصاده وجاء وقطع رأسه قرباناً لهذا الصنم ؛ فمات فدخل النار .

ذبح ذباباً لصنم متقرباً به للصنم فدخل به النار ، ذباب! فكيف بمن يذهب إلى السوق ويشتري أفضل الشاة أو يشتري أفضل البقر أو يشتري أسمن الإبل ويسوقها إلى حيث من يريد أن يتقرب إليهم من الأحجار أو من المقبورين أو غيرهم ثم يذبح نسيكته وقربانه متقرباً به إلى غير الله؟! ذبح ذباباً فدخل النار فكيف بمن يذبح شاة سمينة أو بقرة أو ناقة متقرباً بها إلى غير الله سبحانه وتعالى ؟! فالذبح عبادة لا تُصرف إلا لله ولا يُستعان بذبحها إلا بالله ، فتذبح لله متقرباً بذبيحتك له وحده وتسمي الله جل وعلا تذكر اسمه عليها قائلاً : «بسم الله» .

ذكر لي أحد الأشخاص من إحدى الدول قال : إن عمتي أوقال خالتي كانت مريضة وأتعبها المرض فوصفوا لها رجل قالوا : اذهبي له وعنده علاج، ذهبت إليه وقال لها : تشترين ديكاً لونه كذا –حدد لها لون الديك– وتذبحينه ، وعندما تذبحينه لا تنطقين ولا بكلمة مطلقاً ، لا يريد أن يقول لها : لا تقولي بسم الله ، ما يريد أن يقول لها لا تسمي الله لا تذكري الله ، قال : اذبحيه ولا تنطقي بأي كلمة مطلقاً ، إذا نطقت بكلمة يلتغي العلاج ما تستفيدين، لا تنطقي بأي كلمة ، ثم ماذا ؟ ثم قال : إذا ذبحتيه تطبخينه وكلي منه قدر حاجتك فقط ، ثم خذيه واذهبي إلى الوادي الفلاني وضعيه في ذلك الوادي، لمن ؟ للشياطين، ما قال : كليه وسمي الله عليه وتصدقي به على الفقراء لعل الله بصدقتك يشفيك ويعافيك، لا ، قال : لا تسمين ، لا تذكري اسم الله، ثم أمرها أن تقدمه قرباناً للشياطين؛ لكن كل ذلك بطريقة ملتوية ، لم يقل لها لا تسمي، ولم يقل لها تقربي للشياطين، لكنه ساقها لفعل هذا الأمر دون أن تنتبه له .

وهكذا يُعبث بالعوام والجهال من دعاة الضلال وأكلة أموال الناس بالباطل، يعبثون بهم ويوقعونهم في الشرك والانحراف عن دين الله تبارك وتعالى ويغيبونهم عن القرآن؛ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ « لعن الله من ذبح لغير الله » هذه كلها يغيبونهم عن هذه المعاني ويوقعونهم في التعلق بغير الله والتقرب للشياطين والبعد عن ذكر اسم الله تبارك وتعالى ، فينصرف العوام والجهال إلى الشرك وينصرفون عن التوحيد الذي خلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه . إذاً الذبح عبادة وقربة لا يُتقرب بها إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم ختم رحمه الله ذكر هذه العبادات بعبادة النذر؛ والنذر: هو الإيجاب؛ يعني أن توجب على نفسك ما لم يوجبه الله عليك. مثلاً لو قال قائل : "إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أذبح شاة" ، في الأصل عندما يُشفى مريضه هل يجب عليه أن يذبح شاة ؟ لا، لا يجب عليه؛ إن ذبحها شكراً لله أو فعل غير ذلك من الأعمال شكراً لله له

ذلك، لكن عندما يقول "إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أذبح شاة" أصبحت الشاة واجبٌ عليه ذبحها إذا شفي مريضه ، ومن لم الذي أوجبها عليه ؟ هو الذي أوجبها على نفسه .

إذاً النذر: هو الإيجاب أن يوجب على نفسه ما لم يوجبه الله عليه . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((النذر لا يأتي بخير)) ؛ انتبه لهذه الكلمة تفيدك جداً في هذا الباب، قال : ((النذر لا يأتي بخير))؛ شفاء المريض، حصول الغنى، زوال المصيبة هذا الخير يحصل ممن ؟ يحصل من الله فضلاً ومناً ، ليس الشاة التي أوجبتها على نفسك أو العمل الذي أوجبته على نفسك هو الذي تنال به هذا الأمر ، قال : (النذر لا يأتي بخير)) يعني لن يأتيك خير ؛ صحة عافية مال من نذرك ، والنذر كما قال عليه الصلاة والسلام : «إنما يُستخرج به من البخيل»، فبعض الناس يفعل ذلك بناء على خطأ في الفهم؛ يقول : "إن شفى الله مريضي أذبح كذا" ، كأنه يظن ويتوهم أن قوله "أذبح كذا" هي التي تجلب له شفاء المريض ؛ ولهذا أزال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفهم قال : ((النذر لا يأتي بخير))؛ «خير» هنا نكرة في سياق النفي تفيد العموم يعني : شفاء صحة غنى صلاح إلى غير ذلك كل ذلك لن يأتيك بسبب النذر ، « النذر لا يأتي بخير » قاعدة في الباب افهمها واعتني بها أرشدك إليها نبيك عليه الصلاة والسلام. الخير يأتي من الله ؛ إذا أردت الشفاء ، أردت أي مصلحة من المصالح لا توجب على نفسك ما لم يوجبه الله عليك واطلبه من الله سبحانه وتعالى .

فالنذر عبادة وهو أمرٌ مكروه ؛ ولهذا جاءت الأحاديث على مثل ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إنما يُستخرج به من البخيل)) ، وجاء عنه أحاديث في هذا المعنى تفيد الكراهة . ولهذا النذر امتدح الله سبحانه وتعالى الوفاء به ، لأنه إذا أوجبته على نفسك أصبحت عبادة أوجبتها على نفسك فوفاؤك بها قربة لله ، مدح الله الموفين بالنذر قال : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ، فالنذر عبادة لا يجوز التقرب بها لغير الله ودل على كونه عبادة وقربة قوله سبحانه وتعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] أي فاشياً ومنتشراً وعاما إلا من رحمه الله سبحانه وتعالى؛ وهم أهل الإيمان .

قال : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ما هو هذا اليوم ؟ يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى يمدح في هذه الآية من يخاف يوماً كان شره مستطيراً ، إذا كنت تخاف هذا اليوم فإنك سوف تستعد له ، وإذا استعددت له بالأعمال الصالحة نجوت يوم القيامة ولهذا الناجون يوم القيامة ماذا يقولون ؟ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩-٢٠] يعني كنت أعتقد أنني سألقى الله ، فالذي يعتقد أنه سيلقى الله وأن الله سيحاسبه وأنه سيقف بين يدي الله ويخاف ذلك اليوم سيُعد له عدته بالأعمال الصالحة والطاعات الزاكية المقربة إلى الله سبحانه وتعالى .

أنهى إلى هنا المصنف رحمه الله تعالى ذكر الأمثلة على العبادات المقربة إلى الله ، ومراده من ذلك: أن يتنبه المسلم في هذه العبادات وفي غيرها إلى أمرين لابد من التأكيد عليهما واستحضارهما دائماً ، أراد من ذلك التأكيد على أمرين ما هما ؟

١. أن تصرف هذه العبادات وغيرها من العبادات لله وحده ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]

٢. والأمر الثاني : لكي لا يُصرف شيء منها لغير الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧] .

وبهذا يكون قد أنهى رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول من هذه الأصول الثلاثة العظيمة .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفريغ شرح ثلاثة الأصول وأدلتها
من الدرس (١٠) إلى (١٧)

للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
حفظه اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصلُ الثَّاني: معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ؛ وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ. وهو ثلاثُ مراتبَ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ؛ وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ. فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ.

****

لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه بأنه جل وعلا الخالق وحده لا شريك له ، المتفرد بالخلق والرزق والمن والعطاء ، وأن مَن هذا شأنه يجب أن يُفرد وحده بأنواع العبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها . ثم ذكر رحمه الله تعالى أنواعاً من العبادات المقربات إلى الله جل وعلا ، مبيناً أن تلك العبادات ونظائرها وأمثالها حق لله يجب أن يُفرد بها وحده جل وعلا ، وأن صرف شيء منها لغيره يعدُّ شركاً بالله جل وعلا واتخاذاً للأنداد .

لما أنهى رحمه الله الأصل الأول شرع في بيان الأصل الثاني وهو : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ ودين الإسلام هو الدين الذي رضيه الله جل وعلا لعباده، قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، وهو الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، وهو دين الله جل وعلا، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقد أمر الله جل وعلا الدخول فيه كافةً ، لا أن يكون دخول المرء في أمور الإسلام مبنياً على الاختيار؛ يأخذ من أمور الإسلام ما أحب ويدع ما لا تهوى نفسه! ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨] ؛ وهذا يتطلب من العبد معرفة الإسلام وشرائعه ومبانيه وما يتعلق به من أحكام، ليجاهد نفسه في هذه الحياة ليكون من أهل الإسلام حقاً وصدقاً

وهذا الأصل أراد أن يبين فيه رحمه الله تعالى الإسلام الذي هو دين الله ، الدين الذي رضيه جل وعلا لعباده ؛ قال : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ أشير هنا إلى ما سبق التنبيه عليه: وهو أن أمور الدين عموماً من عقائد وعبادات هي عبارة عن مسائل ودلائل ؛ فالإسلام هو مسائل عديدة وشرائع متنوعة مبنية على الدليل ، والدليل: «قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام مسائل وشرائع وأعمال وتكاليف مبنية على الدليل ، والدليل هو: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ . والعبد مطلوبٌ منه أن يعرف الدين بالدليل ، لا أن تكون معرفته بالدين مبنية على الهوى ، أو مبنية على الآراء ، أو مبنية على التجارب ، أو مبنية على المنامات أو الحكايات أو غير ذلك . من الأمور المؤسفة أن ترى في الناس من يتدين ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بزعمه بأعمالٍ ليست في القرآن ولا في السنة ولكنها مبنية على منام رآه ، أو تجربة فعلها ، أو حكاية سمعها ، أو رأيٍ أعجب به ، أو قصةٍ ذُكرت له ، أو نحو ذلك من الأمور التي جُعلت لدى فئات من الناس مصادر للاستدلال في أمور الدين ؛ وهذا من الغلط بمكان ، دين الله جل وعلا الإسلام منبعه ومصدره الدليل ، والدليل هو «قال الله، قال رسوله عليه الصلاة والسلام» ، ولهذا كان ابن تيمية الإمام الجليل رحمه الله تعالى –كثيراً ما يقول : «من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ » كلمة عظيمة . ويقول الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله يقول : «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول ﷺ ؟!» أي أن هذا غير متأتي ولا ممكن .

فدين الله وشرعه هو مسائل مبنية على دلائل ، والدلائل هي قال الله قال رسوله ﷺ . هذا أصل لابد أن ينتبه له المسلم ، فإذا جاءك شخص وقال لك : هذا الذكر جميل وهذا الدعاء حسن وهذه العبادة طيبة وقلت له : ما الدليل ؟ قال : الدليل أنني البارحة نمت ورأيت في المنام كذا وكذا ، قل له : دعني ومنامك ، إذا عندك آية من القرآن أو حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأهلاً وسهلاً ، حي علا . أما منام أو حكاية أو يقول : "جربت وجرب فلان وهذا بنيناه على تجارب نحن وأشياخنا أو نحن وإخواننا" ؛ كل هذا لا يُبنى عليه دين ، الدين يُبنى على الدليل، والدليل قال الله قال رسوله ﷺ ، يُبنى على الأدلة .

ولهذا بدأ رحمه الله بتقرير هذا الأصل الذي لابد أن يُقرر ، لأن هذا الأصل إن لم يُقرر ويثبت زاغ الإنسان وراغ عن الصراط المستقيم وأُخذ هنا وهناك من سبل الانحراف الكثيرة ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام:١٥٣] الذي لا يعتصم بالدليل –كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام– لابد أن يفارق السبيل شاء أم أبى ، لأن العصمة والأمَنة والسلامة والسداد مع الدليل كلام الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

والمصنف رحمه الله مثلما رأينا في هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى ماضي على جادة واحدة مضى عليها أهل السنة قاطبة في قديم الزمان وحديثه وهي: ذكر المسألة مضموماً معها دليلها ؛ يقول لك : يجوز كذا قال الله تعالى كذا ، لا يجوز كذا لقوله ﷺ كذا ، يحرم كذا لأنه ثبت في الحديث كذا وكذا .. ماضين على هذه الطريقة؛ يذكرون المسألة أو الحكم مضموماً إليه دليله . هذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب صغير الحجم، ومع صغر حجمه فيه من الأدلة ما يبلغ ستين دليلاً من القرآن والسنة ، كلما يذكر شيئاً يقول :قال الله تعالى أو يقول: قال ﷺ ، يبني كل كلمة يوردها كل حكم يسوقه كل تقرير يورده على الدليل .

وهنا تعرف الفرق بين دعاة الحق و دعاة الضلال ، والفرق بين كتب أهل السنة و كتب أهل البدع ؛ ترى في كتب أهل البدع استدلال بغير القرآن والسنة ، إما يستدل بالعقل المجرد ، أو يستدل بالتجربة، أو يستدل بالمنامات ، أو يستدل بالحكايات ، إلى غير ذلك من مصادر الاستدلال الكثيرة التي أخذت الناس إلى سبل الانحراف عن صراط الله تبارك وتعالى المستقيم . ولهذا قرر هذا الأصل من البداية ؛ قال : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ، والأدلة عنده وعند غيره من أئمة الدين وعلماء السنة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ هذه هي الأدلة ، ولهذا الكتاب كله ماضي على هذه الطريقة: إما يستدل بآية أو يستدل بحديث عن الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((**وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشّركِ وأهلِهِ**)) ؛ هذا الإسلام.

وهذا التعريف – أقول أيها الأخوة – ينبغي أن نحفظه ، تعريف عظيم جداً وجامع ، وهو من أحسن التعاريف التي بُيّن بها الإسلام . الإسلام –قال– : ((هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشّركِ)) ؛ تأمل التعريف ترى فيه فائدة عظيمة في بيان حقيقة الإسلام .

والإسلام كما قال أهل العلم هذه اللفظة تتضمن أمرين في أصل دلالتها ؛ألا وهما : الاستسلام والسلامة ؛ وكل من الأمرين قد رُوعي في هذا التعريف الذي ساقه الإمام رحمه الله .

أما السلامة ففي قوله : ((وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ)) ؛ بمعنى أن يكون دينك وعباداتك وقرباتك سالمة من الشرك ، وخالصة وصافية ونقية لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ، سالمة من مبطلات العمل ومفسداته تكون صفتها النقاء والصفاء والخلوص ، لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ؛ فتكون مستسلماً لله ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر:٥٤] أي لربكم . فالاستسلام لله: أي خالصاً ، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك فيه . ومعنى ذلك: لو أن أحداً جاء بشرائع الإسلام مثل الصلاة أو الصيام أو الصدقة أو الدعاء أو الذبح وفعَلها ولكنه في نيته في الداخل قصد بها غير الله؛ أصبح إسلامه واستسلامه لغير الله ، جعل مع الله

شريكاً فخرج من السلامة ، لأن الإسلام مبني على السلامة من الشرك ، من مبطلات الأعمال ، من نواقض الدين يكون سالماً من ذلك ، ولا يكون سالماً من ذلك إلا بصفاء العمل ونقائه وخلوصه بحيث يكون لله تبارك وتعالى وحده ، لا يُجعل مع الله فيه شريك . ولهذا بدأ رحمه الله أول ما بدأ في تعريف الإسلام قال : ((الإسلام هو الاستسلامُ لله)) أي وحده ((بالتوحيد)) معنى الاستسلام لله بالتوحيد: أي أن تخلص دينك كله لله ، لا تجعل مع الله شريكاً في شيء من الدين لا قليل ولا كثير ، لأن الدين كلّه لله سبحانه وتعالى ، فتستسلم لله لا لغيره ، يكون دينك كله لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ، فإذا لم يكن الدين بهذه الصفة؛ خالصاً لله صافياً نقياً لم يُرد به إلا وجه الله ، إن لم يكن كذلك لا يقبله الله ، لأنه سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص كما في الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) أي ردَّ عليه عمله .

فإذًا حقيقة الإسلام أن تستسلم لله وحده بالتوحيد ؛ أي تكون في أعمالك موحداً لا مشركاً ، مخلصاً لا منداداً ، لا تريد بأعمالك إلا وجه الله سبحانه وتعالى؛ هذا الإسلام ؛ الاستسلام لله بالتوحيد .

((**والانقيادِ له بالطاعةِ**)) كما أن الإسلام إخلاص وتوحيد فالإسلام أيضاً انقياد لله وطواعية وامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] ؛ فهذا جانب آخر من معنى الإسلام وهو أن تستسلم لله بمعنى تذعن وتنقاد لأمره سبحانه وتعالى ولا تعصيه جل وعلا ، يكون شأنك كما نعت الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان في خواتيم سورة البقرة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥] هذا هو المسلم يسمع ويطيع ، ينقاد يمتثل لأمر الله تبارك وتعالى ، يخضع له .

قال : الإسلام ((**هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ**)) ؛ أي أن تكون عبداً منقاداً مطيعاً ممتثلاً لأوامر ربك جل وعلا .

قال : ((**والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ**)) لا يكون مسلماً إلا من برأ من الشرك ومن أهل الشرك ، وإلا لا يكون من أهل السلامة ، إذا لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون من أهل السلامة الذين هم أهل الإسلام ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤] هذا إعلان براءة من شيئين : من الشرك ومن أهل الشرك ؛ يبرأ المسلم من الشرك ، ويبرأ المسلم من أهل الشرك متخذين الأنداد والشركاء مع الله سبحانه وتعالى . وبهذا يُعلم أن من لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون

من أهل الإسلام ، لأن من الإسلام أن تبرأ من الشرك، ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله دخل الجنة)) ؛ اشترط الكفر بما يعبد من دون الله . فإذاً البراءة من الشرك والبراءة من أهل الشرك هذه من الإسلام ومن حقيقة الإسلام .

هذا تعريف الإسلام ، وهو تعريفٌ جامع مانع عظيم ينبغي على كل مسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه وأن يطبقه .

قال : ((**الإسلام: الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ**)) ؛ والتعريف يتكون من جملٍ ثلاث ، وكل جملة من هذه الجمل أشرتُ إلى شيء من أدلتها في كلام الله تبارك وتعالى .

قال: ((**وهو ثلاثُ مراتبَ**)) والمراتب: هي المنازل والدرجات، قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٩]

قال : ((**وهو ثلاثُ مراتبَ**)) ؛ أي الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى ليس هو مرتبة واحدة بل هو مراتب، وعدد هذه المراتب تحديداً ثلاث، الإسلام ثلاث مراتب وهي : مرتبة الإسلام ، ومرتبة الإيمان ، ومرتبة الإحسان ؛ هذه مراتب الدين . وأعلى مراتب الدين: مرتبة الإحسان ، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فهذه مراتب الدين . ومن المفيد جداً للمسلم أن يعرف مراتب الدين وأن يعرف حقيقة كل مرتبة ليبدأ مع نفسه في مجاهدة وطلب عون من الله ومد بأن يبلغه جل وعلا الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، «وأن تجعل الحياة زيادة لي في كل خير» ، فيبدأ مع نفسه في مجاهدة .

فإذاً دين الإسلام مراتبه ثلاثة وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وإذا أردت أن تعرف حقيقة كل مرتبة والفرق بينها وبين الأخرى فاقرأ حديث جبريل المشهور الذي يرويه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قال : «بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد؛ حتى إذا جلس إلى النبي صلي الله عليه وسلم أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا مُحَمَّد أخبرني عن الإسلام؟ قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً. قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدِّقه ! ثم قال : يا مُحَمَّد أخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت، قال : أخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : صدقت، قال : فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : أخبرني عن أماراتها؟

قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ، فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم» ؛ جاء عليه السلام معلماً بصيغة السائل يعلِّم الناس دينهم .

انتبه جيداً لما خُتم به الحديث وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام : «يعلمكم دينكم» لتستفيد من ذلك فائدة عظمى وهي موضوعنا ألا وهي: أن ديننا ثلاث مراتب بُينت في الحديث ؛ وهي الإسلام ، وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه ، والإيمان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه ، والإحسان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه؛، فإذاً ديننا بُيّن في هذا الحديث . ولهذا يُعد هذا الحديث أجمع حديث في بيان الدين ، حتى إن بعض العلماء كان يسمي هذا الحديث «أم السنة» ، مثل ما أن الفاتحة تسمى «أم القرآن» ، وأنتم تعلمون أن الفاتحة سميت «أم القرآن» لأنها جمعت علوم القرآن ؛ بمعنى أن ما بُيّن في القرآن كله تفصيلاً قد بُيّن في الفاتحة إجمالاً ، بمعنى أن سورة الفاتحة أجملت كل تفاصيل القرآن ولذا صارت أمًا للقرآن ، وحديث جبريل المشهور جمع تفاصيل السنة وشرائع الإسلام ورتب الدين جمعها في هذا الحديث العظيم ؛ ولهذا أطلق عليه بعض العلماء «أم السنة» . وكثير من أهل العلم ينصح بحفظ هذا الحديث حتى العوام ، والذي لا يستطيع أن يحفظ يكرر الحديث عشرين ثلاثين أربعين مرة حتى يكون محفوظاً له .

بعض العوام لم يجد من يوجِّهه ، أذكر مرة كنا في مكان فيه بعض البوادي فقلت لأحدهم أقرأ سورة الإخلاص {قل هو الله أحد} لم يحسن قراءتها ، قال لي : أنا عندي قصيدة ، قلت : هات القصيدة ، ويعطينا قصيدة قرابة ستين بيت ، عنده قدرة يحفظ لكن ما وجد من يوجهه ليحفظ مثل هذه الأمور!! ، لهذا عندنا هنا أحاديث وأمور جامعة ينبغي للعامي أن يجاهد نفسه على حفظها ولا يغالط نفسه يقول أنا ما أستطيع أن أحفظ ، يتفقد نفسه سيجد أنه يحفظ أشياء أعجبته وحفظها ويرددها بين وقت وآخر حتى لا تضيع منه ، هذا أولى ؛ حديث جبريل وفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص وسورة المعوذتين هذه أولى ، هذه تجمع لك مقاصد الدين ، تجمع لك أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فيجاهد نفسه على حفظ مثل هذه الأحاديث .

الشاهد أن حديث جبريل حديث ينصح العلماء بأن يُحفظ ، ولعل في هذه المناسبة يكون تعاون يبدأ بيننا وهو موجود لكن نزيد منه؛ نحفظ الأربعين للنووي ، وأنا أنصح الحجاج والزوار أن يشتروا هدايا كتاب الأربعين للنووي، وكتاب الأصول الثلاثة ، ويبدأ في البلد يشجع العوام والصغار والنساء والأولاد يحفظون ، أليس هناك من يشغلهم في البلاد بحفظ القصائد وبحفظ التوافه وبحفظ الأمور التي لا قيمة لها ولا فائدة ؟ إذاً نحن أيضاً لابد أن نعمل مع أولادنا ، أهلينا ، جيراننا ، نبدأ نفعِّل انتشار الخير ونشجع عليه ونحفز حتى

ينتشر الخير ، لاسيما أننا في هذا الزمان ابتليت عقول كثير من الناس من خلال القنوات ومن خلال المجلات ومن خلال وسائل كثيرة التي انفتحت على الناس شُغلت العقول ، تجد كثير من الناس يعرف أشياء كثيرة إلا دينه الذي خُلق لأجله لا يعرفه ؛ أساسيات في الدين أصول قواعد مهمة في الدين لا يعرفها ، وإذا سألته عن توافه من أمور الدنيا أو توافه من المحرمات والخسائس يعرفها بالتفصيل!! شُغلت العقول . والجميع متحمل أمانة أن ينشر هذا الدين ، وأن يكون من المتعاونين على البر والتقوى وإيصال الخير للناس، ولا تُترك الساحة لدعاة الضلال وأئمة الباطل وأرباب الشهوات يصلون إلى العقول وإلى القلوب وإلى النفوس ويضيّعون الناس .

حديث جبريل حديث عظيم جداً وفيه بيّن النبي ﷺ مراتب الدين الإسلامي على الترتيب ؛ الإسلام ، ثم أعلى منه الإيمان ثم أعلى منه الإحسان ؛ بمَ عرَّف النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام ؟ لاحظ الآن ملاحظة قبل قليل نبهنا عليها وهو أن الإسلام ينتظم أمرين: سلامة واستسلام ، وأنظرهما في بيان النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً**)) ؛ فعرَّف الإسلام بذكر الأصل الذي يبنى عليه وهو التوحيد ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وبها بدأ ، ثم ثنى بالشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالرسالة وهذا معناه الطاعة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾[النساء:٦٤] ، ثم ذكر أعظم شرائع الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فإذاً الإسلام هو استسلام لله بالتوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله» هذا معناها ، وهو أيضاً انقياد لأوامر الله وأوامر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأعظم شيء في الدين يؤمر العباد بتحقيقه هذه المباني المذكورة في الحديث . ولهذا صح في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((بني الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله وإقام الصلاة وإتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ؛ فجعل هذه الخمس مباني للإسلام بمعنى أنها أعمدة ينبني عليها الإسلام ويقوم . هذا تفسير الإسلام ، وهو تفسيرٌ له من النبي عليه الصلاة والسلام بأمور وشرائع ظاهرة وهي الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ شرائع ظاهرة .

ثم بعد ذلك فسر الإيمان بقوله : ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**)) ؛ وهذه الستة ماذا ؟ أين مكانها ؟ القلب ، هذه الستة كلها اعتقادات مكانها القلب؛ ففسر الإسلام بالشرائع الظاهرة ، وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة التي مكانها القلب ؛ وفي ضوء ذلك تستطيع أن تعرف حقيقة الإسلام وحقيقة الإيمان ، وأيضاً تستطيع أن تعرف الفرق بين المسلم والمؤمن ، الآن إذا

قرأت قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] وقيل لك : ما الفرق بين مسلم ومؤمن ؟ أو قيل لك : من المسلم ومن المؤمن ؟ في ضوء حديث جبريل يتضح لك الأمر ويتبين لك .

فإذا قيل : من المسلم ؟ تقول مجيباً على هذا السؤال مستنداً على حديث جبريل المشهور تقول : المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ، لكن إلى هذا الحد التعريف لم يتم؛ لأنه يوجد من يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وفي القلب على خلاف ذلك ، فيكون في الظاهر يأتي بالشرائع وفي الباطن على خلاف ذلك هذا من هو ؟ المنافق ، المنافق هو الذي يأتي بالشرائع الظاهرة ولكن الباطن خراب تباب ليس فيه إيمان ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] ، في الآية الأخرى قال : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] ، في الآية الأخرى قال : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢] يعني كل هذه الأعمال مراءاة أما الباطن شيء آخر .

إذاً نعود للسؤال مرة أخرى : من المسلم ؟ المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القدر الذي يصحح إسلامه ؛ هذه لابد أن تضاف . المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ؛ يصلي يصوم يشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ، وعنده –أي في قلبه– من الإيمان ما يصحح إسلامه ، لا يُشترط أن يمتلئ القلب إيماناً ، بل يكفي ليكون مسلماً أن يوجد في القلب القدر الذي يصحح الإسلام ، ما هو القدر الذي يصحح الإسلام ؟ هو الإيمان الجازم بهذه الأصول؛ بمعنى أن لا يكون عنده شك في الإيمان بالله ولا بالكتب ولا بالرسل ولا باليوم الآخر ولا بالقدر ، لا يكون عنده شك في ذلك؛ لأنه إن وجد الشك ارتفع الجزم ، وإذا ارتفع الجزم انتفى الإيمان ووُجد الكفر وحبطت الأعمال ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] ؛ فلابد أن يكون عنده الإيمان الجازم ؛ أي الذي لا يكون فيه شك ولا ريب بهذه الأصول .

هناك شيء أعلى من الإيمان الجازم اسمه «الإيمان الراسخ»؛ هذا لا يشترط، هذه درجة أعلى ، وهي درجة أهل الإيمان ، أهل الإيمان هم الذين رسخ الإيمان في قلوبهم . إذاً المسلم هو الذي جاء بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه هذا المسلم .

المؤمن من هو ؟ أجب على السؤال في ضوء حديث جبريل قال : ((الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)) فتقول: المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ودخل وتمكن ورسخ؛

هذا هو المؤمن ، ومن المعلوم أن من لوازم تحقُّق القلب بالإيمان أن تصلح الجوارح بالأعمال ، ولهذا قال العلماء : «كل مؤمن مسلم» لأنه إذا تحقق القلب فعلاً بالإيمان ورسخ الإيمان في القلب الجوارح ستعمل وتنقاد وتستسلم وتذعن، ولهذا قال العلماء «كل مؤمن مسلم» ، لكن العكس : هل كل مسلم مؤمن ؟ يعني هل كل من جاء بشرائع الإسلام تحقق الإيمان في قلبه؟ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ هذه درجة أعلى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] يعني ما زلتم في درجة أقل ، درجة الإيمان لم تبلغوها ، لا تقولوا آمنا لأنكم لم تبلغوا درجة الإيمان، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ يعني أنتم ما زلتم في هذه الدرجة ، أما درجة الإيمان لم تبلغوها بعد .

سعد ﷺ كان واقفاً عند النبي عليه الصلاة والسلام وكان يعطي عطايا ؛ فقال : يا رسول الله ما لك عن فلان ؟ – يعني لم تعطه – وإني لأراه مؤمناً ؟ قال : ((أو مسلماً)) نبهه إلى هذا الأمر ، قال : ((أو مسلماً)) لأن درجة الإسلام أقل ودرجة الإيمان أعلى . وإذا عرفت أن درجة الإيمان أعلى من درجة الإسلام فمعنى ذلك: أن الدرجة العالية لا يوصل إليها إلا بتحقيق الدرجة التي دونها . ولهذا كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

إذاً من المؤمن في ضوء حديث جبريل ؟ المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ورسخ في نفسه ، ومن كان بهذا الوصف جوارحه ستصلح تبعاً لذلك ، والجوارح تبع لمرادات القلوب كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)) ؛ فالقلب إذا عُمر بالإيمان الجوارح كلها تصلح تبعاً له . ولهذا يؤثر عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : «القلب ملك والجوارح جنوده ؛ فإذا طاب الملك طاب الجند ، وإذا خاب الملك خاب الجند» ، أورد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وقال كلاماً معناه : أن كلام النبي ﷺ أدق؛ أو عبارة نحوها . لأن الملك قد يطيب ويخيب بعض الجند، والملك قد يفسد ويطيب بعض الجند ، أما القلب ليس فيه هذا الأمر ؛ إذا صلُح الجوارح كلها تصلح تبعاً له لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلوب .

وبهذا نعلم أن القلب إذا تحقق بالإيمان وعمر بالإيمان ورسخ الإيمان فيه الجوارح صلحت تبعاً له ، وهذا معنى قول العلماء رحمهم الله : «كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

ثم بعد ذلك تأتي درجة أعلى من هاتين الدرجتين وهي درجة الإحسان ، قال : ((أخبرني عن الإحسان)) والإحسان أصل هذه الكلمة في مدلولها اللغوي : الإتقان والإجادة ، فما هي درجة الإتقان والإجادة وأن تبلغ في الدين الذروة والدرجة العالية الرفيعة ؟ ما الإحسان في الدين ؟ متى يكون الإنسان أتقن دينه وجاء منه بالدرجة العليا والمنزلة الرفيعة ؟ ما الإحسان –يعني في الدين– متى يكون الإنسان محسناً متقناً مجيداً في

دينه بلغ الرتبة العليا؟ « قال : أخبرني عن الإحسان » أي في الدين ، قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) ؛ يعني أن تكون في عبادتك لله سبحانه وتعالى بهذه الحال؛ خاضعاً ، خاشعاً ، ذليلاً ، منكسراً ، مقبلاً على الله سبحانه وتعالى كأنك ترى الله ، وإن لم تكن تراه فإنه يراك ، إن لم تكن تراه ببصرك اعلم أنه يراك ويطلع عليك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] .

وعندما يصل العبد في عبوديته وذله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى إلى هذه الدرجة –يعبد الله كأنه يرى الله– يكون بلغ الاتقان والإجادة ؛ فيكون محسناً وصل إلى درجة الإحسان . وهذه الدرجة كانت في الأولين كثيرة وفي الآخرين قليلة ، كما يوضح ذلك قول الله جل وعلا في سورة الواقعة؛ لما ذكر درجة المقربين وهم المحسنون قال : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤] ، وكونهم في الآخرين قليل هذا ليس مثبطاً للإنسان بل هذا دافع للإنسان أن يجاهد نفسه ويسأل ربه تبارك وتعالى أن يعينه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] يجاهد نفسه بتحقيق الإحسان . وأعظم ما يتحقق به الإحسان : معرفة الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وبما تعرَّف إلى عباده به في كتابه وفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكلما عظمت معرفة العبد بالله زاد تحقق الإيمان في قلبه ورسوخه فيه ، وبدأ صعوداً وارتقاء إلى الإحسان والإتقان في دينه . قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

في ضوء الحديث عرفنا الإسلام والإيمان والإحسان وعرفنا أيضاً المسلم والمؤمن والمحسن . أحد العلماء من المتقدمين ضرب مثالاً توضيحياً مفيداً لهذه الدرجات ؛ وضع ثلاثة دوائر: دائرة صغيرة ، ثم تحيط بها دائرة أوسع منها، ثم تحيط بها دائرة ثالثة أوسع وقال : الإحسان هو هذه الدائرة ، يعني الدائرة الصغيرة التي في الوسط ، والإيمان: الدائرة الأوسع ، والإسلام: الدائرة الأوسع ؛ أول ما يدخل الإنسان لدائرة الدين يدخل الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ويبدأ بشرائع الإسلام ؛ أصبح مسلماً دخل في دائرة الإسلام ، تعمق في الدين وعرف حقائق الإيمان وقوي الإيمان في قلبه وتمكن في نفسه ورسخ دخل للدائرة الأخرى التي هي دائرة الإيمان ، زاد حظه وقوي نصيبه من الإيمان وترقى في رتبه ودرجاته إلى أن بلغ به الحال في تقربه إلى الله وعبادته لله وإتيانه بالطاعات والعبادات إلى أن أصبح يعبد الله كأنه يرى الله دخل في درجة الإحسان .

الذي في دائرة الإحسان هو أيضاً في دائرة الإيمان وهو أيضاً في دائرة الإسلا؛م ولهذا «كل محسن مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وليس كل مؤمن محسناً» ، فالذي في دائرة الإحسان إن خرج منها يكون

في دائرة الإيمان ، فإن خرج منها يكون في دائرة الإسلام ، فإن خرج من دائرة الإسلام ليس بعد الإسلام إلا الكفر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[يونس:٣٢] ، إذا خرج من دائرة الإسلام ليس هناك إلا الكفر بالله تبارك وتعالى؛ يكون من أهل النار. من يخرج من هذه الدوائر يكون من أهل النار ، إن مات على ذلك كان من أهل النار مخلداً فيها أبد الآباد .

فهذه مراتب الدين الإسلامي ، والمصنف رحمه الله سيتكلم عن أركان كل مرتبة .

مرتبة الإسلام أركانها خمسة –ستأتي عند المصنف ومرت معنا في حديث جبريل– شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ هذا الركن الأول ؛ الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام ؛ هذه أركان الإسلام . والدليل على أنها أركان للإسلام قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس)) ؛ بمعنى أنها للإسلام بمثابة الأعمدة للبناء

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم يرسَ أوتادُ

فهي للإسلام بمثابة الأعمدة ، قال : ((بني الإسلام على خمس)) وذكر هذه الخمس.، فهذه الخمس تعد أركانًا ينبني عليها . والإيمان أركانه ستة وستأتي عند المصنف رحمه الله تعالى . والإحسان له ركن واحد وأيضاً سيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى ؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال رحمه الله : ((**فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ : شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ**)) ثم بدأ رحمه الله تعالى يفصِّل في هذه الأركان بعض الشيء فيذكر كل ركن منها ويذكر معه دليله من كلام الله سبحانه وتعالى .

تتمة لموضوع مراتب الدين ؛ هذه المراتب جاء ذكرها في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[فاطر:٣٢-٣٣] ؛ الواو في قوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ تتناول من ؟ ذُكر في الآية أصناف ثلاثة: ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم قال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ هل قوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ تتناول الثلاثة : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ؟ أم أنها خاصة بأقرب مذكورَين وهما : المقتصد والسابق بالخيرات ؟ هل تتناول الجميع ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يدخلها الظالم لنفسه ويدخلها المقتصد ويدخلها السابق بالخيرات ؟ أو هي خاصة بالمقتصد وبالسابق بالخيرات ؟ الجواب على ذلك يحتاج إلى

أمرين : يحتاج إلى فهم السياق كاملاً ، ويحتاج أيضاً إلى فهم ما المراد بالظالم لنفسه ؟ وما المراد بظلم النفس هنا ؟ لأن الظلم إذا أطلق في القرآن :

- تارةً يراد به : الظلم الذي هو الشرك والكفر بالله .
- وتارةً يراد به : الظلم الذي هو المعاصي والذنوب التي دون الكفر .

فنرجع للآية وننظر ما المراد بالظلم هنا ؟ هل المراد بالظلم في قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ هل المراد ظلَمها بالمعصية التي هي دون الكفر ؟ أو ظلَمها بالشرك والكفر ؟ أي المعنين مراد ؟ إن كان المراد " ظلمها " أي بالشرك والكفر ليس داخل ، لا يدخل الجنة مشرك أو كافر ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ، وإن كان المراد ظلم نفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر فهل يدخل الجنة أو لا ؟ الذي ظلم نفسه بمعصية دون الكفر هل يدخل الجنة أو لا يدخلها ؟ الجواب : نعم يدخلها ، لكن لا يلزم من دخوله الجنة أن يكون دخولاً أولياً ، بل ربما مر قبل دخوله الجنة بمرحلة تعذيب في النار ،كما جاءت النصوص دالة على دخول عصاة الموحدين النار وبقاءهم فيها على قدر ذنوبهم تمحيصاً لهم وتطهيراً ثم بعد ذلك يدخلون الجنة . وقد بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام صفة خروجهم من النار في الحديث الذي في الصحيحين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إذا أذن الله عز وجل بخروجهم أماتتهم النار إماتة فكانوا فحما)) يعني مثل قطع الفحم ((ثم يخرجون من النار ضبائر ضبائر)) ما معنى «ضبائر ضبائر» ؟ أي جماعات جماعات ودفعات دفعات ، لماذا لم يخرجوا جميعاً دفعة واحدة ؟ لأن كبائرهم في الدنيا متفاوتة فلم يخرجوا من النار دفعة واحدة وإنما يخرجون على دفع ، لأن الكبائر التي أدخلتهم النار هم متفاوتون فيها ، قال : ((فيخرجون ضبائر ضبائر)) يعني جماعات جماعات (ويُلقون في نهر الفردوس)) تطرح هذه القطع المتفحمة تلقى في نهر الفردوس قال : ((فيحيون بمائه وينبتون كما تنبت الحِبّة في حميل السيل)) .

هؤلاء ظالمون لأنفسهم لكن هل ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ؟ لو ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك لكان دخولهم النار دخول تخليد وتأبيد ، أما من كان ظلمه لنفسه بالمعاصي التي دون الشرك فإن دخوله للنار لا يكون دخول تخليد وتأبيد وإنما يكون دخول تطهير وتنقية ؛ يدخل ليطهر وينقى . الكافر المشرك لا يدخل النار ليطهر وينقى لأن خبث الشرك لا تطهره النار ولهذا يدخل النار ليبقى فيها أبد الآباد ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ .

فإذاً الظالم لنفسه في قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ما المراد به ؟ هل المراد به الذي ظلم نفسه بالمعصية؟ أو الذي ظلم نفسه بالشرك؟ اقرأ الآيات ويأتيك الجواب؛ لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأقسام الثلاثة ﴿

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ذكر ثوابهم في الجنة، بعدها بقليل قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]

؛ هل قوله «الظالمين» هنا هي نفس الظالمين هناك : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ؟ لا، ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي الكافرين المشركين ، الظلم هنا المراد به: الشرك . والظلم الذي في الأول ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أي الظلم بالمعاصي والكبائر التي دون الشرك ، هذا واضح تماماً في السياق .

وعلى هذا فإن ورثة الكتاب أهل الإسلام ذُكروا في الآية أقساماً ثلاثة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ ورثة الكتاب ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مُصطفين ومن عباد الله ، وختم الآية بقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، ذكرهم أقساماً ثلاثة ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ ؛ فإذاً المراد بالظالم لنفسه هنا من هو ؟ الذي ظلم نفسه بالذنوب والمعاصي التي دون الشرك؛ بمعنى أنه ترك بعض الواجبات التي لا يكون تركها كفراً ، أو فعل بعض المحرمات التي لا يكون فعلها كفراً ؛ هذا ظالم لنفسه . المقتصد من هو ؟ الذي فعل الواجب وترك المحرم، مقتصد ؛ فعل الواجب وترك المحرم . السابق بالخيرات هو الذي إضافةً إلى فعل الواجبات وترك المحرمات نافس في الرغائب وأنواع المستحبات .

والعلماء رحمهم الله يقولون : السابق بالخيرات والمقتصد كلاهما يدخل الجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب ، ودرجتهما في الجنة متفاوتة، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل دخوله لها بمرحلة تطهير وتنقية في النار ثم يدخل الجنة .

نعود إلى السؤال السابق ؛ قول الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الواو تشمل الثلاثة أو لا ؟ تشمل الثلاثة؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، إلا أن السابق بالخيرات والمقتصد دخولهما للجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب -نسأل الله العظيم لنا أجمعين من فضله- ، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل ذلك بمرحلة تطهير وتمحيص وتنقية في النار والكل يدخل الجنة . ولهذا الإمام المفسر العلامة الشيخ الشنقيطي يعظِّم الواو هذه ، جاء في تفسيره في مواضع كثيرة إذا جاء عند هذه الواو يقف عند الواو : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعظم الواو هذه ، وهذا من بصيرته رحمة الله عليه بالقرآن ؛ يقف عند الواو ويقول : هذه الواو ينبغي أن تكتب بكذا ويعظم الواو لأنها شملت هؤلاء كلهم ؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات

، الكل يدخل الجنة ، لكن السابق بالخيرات والمقتصد يدخلون بدون حساب ولا عذاب ، والظالم لنفسه عرضة للحساب والعقاب ، عرضة لدخول النار ، وإذا دخل النار لا يخلد فيها .

وهذا يفيدك فائدة عظيمة في مكانة التوحيد؛ فالتوحيد إذا حققه العبد لم يدخل النار كان مانعاً من دخول النار ، وإذا لم يحققه العبد يعني أتى بأمور تنقِصه من المعاصي وما لا يكون كفراً فإنه يمنع من الخلود في النار ، وقد جاء في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى يقول : «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان» هذا يدلنا على مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا مُحَمَّد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ. فدليلُ الشّهادةِ قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨]، **ومعناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ ؛ «لا إله» نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ . وتفسيرُها الذي يوضّحُها قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، **وقولُه:** ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٢٦] .

****

المصنف رحمه الله تعالى قد ذكر في الأصل الثاني أن مراتب الدين الإسلامي ثلاثة وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم شرع رحمه الله في بيان أركان كل مرتبة من هذه المراتب ؛ فالإسلام أركانه خمسة ، والإيمان أركانه ستة ، والإحسان له ركن واحد ، وكلها يأتي بيانها عند المصنف رحمه الله تعالى .

وبدأ هنا ببيان ما يتعلق بأركان مرتبة الإسلام ، فذكر أن أركان الإسلام خمسة وهي : شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وصومِ رمضانَ، وحجِّ البيتِ الحرامِ لمن استطاع إليه سبيلاً. وهذا الأركان الخمسة للإسلام ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام مجتمعة في بعض الأحاديث ؛كحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ((بني الإسلام على خمس : أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقام الصلاةِ، وإيتاء الزكاةِ، وصوم رمضانَ، وحجّ البيتِ الحرامِ)) ، وفي حديث جبريل المشهور لما قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : «أخبرني عن الإسلام؟» قال : ((أن تشهد أنْ لا إله إلاّ

اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتقيم الصلاةِ، وتؤتي الزكاةِ، وتصوم رمضانَ، وتحجّ البيتِ الحرامِ إن استطعت إليه سبيلاً)) .

ثم بعد أن ذكر المصنف رحمه الله أركان الإسلام الخمسة إجمالاً شرع في ذكر شيء من التفاصيل لهذه الأنواع الخمسة ، وبدأ أول ما بدأ بـ«شهادة أن لا إله إلا الله» وهي أعظم أركان الإسلام وأعلى شعب الإيمان ،كما قال عليه الصلاة والسلام : ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان)) . و«لا إله إلا الله» هي أول شيء يُدعى إليه في هذا الدين ((ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) ، وهي أعظم الكلمات وأجلها على الإطلاق كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)) ؛ فهي كلمة عظيمة ليس في الكلمات كلمة أعظم منها ، فهي أعظم الكلمات وأجلها وأرفعها على الإطلاق .

بدأ المصنف رحمه الله ببيان ما يتعلق بالشهادة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله قال : ((**فدليلُ الشّهادةِ**)) ؛ «الشهادة» هذه الكلمة معرفةً بأل لا تنصرف عند الإطلاق إلا لأعظم الشهادات وأجلِّها وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فـ«لا إله إلا الله» أعظم شهادةٍ لأعظم مشهود به، «لا إله إلا الله» أعظم شهادة يشهد بها العبد ، العبد ربما في حياته يشهد بأمور كثيرة ، وأعظم شيء يشهد به العبد الشهادة بـ«لا إله إلا الله» ؛فهي أعظم ما يشهد به العبد لأعظم مشهودٍ به وهو توحيد الله جل وعلا ، فهي شهادة عظيمة .

ولهذا ينبغي أن تعلم أيها الأخ المسلم أن أعظم نعمة وأكبر منّة وأجلَّ عطية ينعم الله بها عليك في هذه الحياة أن يجعلك من أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أكبر نعمة وأعظم نعمة على الإطلاق ، ليس في النعم أعظم من هذه النعمة؛ أن جعلك من أهل لا إله إلا الله ، من الشاهدين بـ«لا إله إلا الله» ، ولهذا قال بعض السلف : «ما أنعم الله على عبده نعمة أعظم من أن عرَّفه لا إله إلا الله» . ودليل هذا بل دلائله في القرآن والسنة كثيرة ؛ خذ مثالاً على ذلك: أوائل سورة النحل وهي تُعرف عند أهل العلم بـ«سورة النِّعَم» لكثرة النعم التي عددها جل وعز في هذه السورة ممتناً على عباده بها ، ذكر نعماً كثيرة؛ نعمة المسكن ، ونعمة المطعم ، ونعمة الشراب واللباس ، ونِعم كثيرة عددها جل وعلا في هذه السورة ، لكنه سبحانه بدأ عدّ هذه النعم بأعظم النعم وهي نعمة لا إله إلا الله ، فأول نعمة تقرأها في هذه السورة «سورة النعم» هي نعمة لا إله إلا الله ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:١-٢] هذه أول نعمة تُذكر في سورة النعم سورة النحل .

ولهذا أكبر النعم وأجلها وأعظمها هي نعمة الشهادة بلا إله إلا الله ، وواجب على كل من أكرمه ربه سبحانه وتعالى بهذه الشهادة أن يرعى هذه الشهادة حق رعايتها ، وأن يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها والإتيان بضوابطها وشروطها في ضوء كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأن يحذر أشد الحذر من كل ناقضٍ لها أو قادح فيها أو منقِصٍ أيضا لهذه الكلمة ؛ بل يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها إلى أن يلقى الله جل وعلا وهو من أهل هذه الكلمة حقاً وصدقاً غير مغير ولا مبدل .

قال : ((**فدليلُ الشّهادةِ**)) يعني دليل شهادة أن لا إله إلا الله : **قولُهُ تعالى** ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ ؛ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لاحظ أموراً في هذه الشهادة :

- ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الشاهد هنا رب العالمين
- ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والمشهود به: توحيده سبحانه وتعالى وحدانيته ،وأنه جل وعلا وحده المستحق للعبادة .

فاجتمع في صدر هذه الآية أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به ؛ أعظم شهادة : لا إله إلا الله ، من أعظم شاهد وهو رب العالمين جل وعلا ، من أعظم مشهود به وهو توحيده جل وعلا وإخلاص الدين له .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي وملائكة الرحمن وهم خلقٌ لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وكلهم يشهد بذلك ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وهم خلقٌ من خلق الله لم نرهم لكننا نؤمن بهم ؛ نؤمن بوجودهم ، نؤمن بأسمائهم التي وردت ، نؤمن بأوصافهم ، نؤمن بوظائفهم المتنوعة الكثيرة التي جاءت مبينة في الكتاب والسنة كل ذلكم نؤمن به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧] ، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧٥] ؛ فالملائكة خلق من خلق الله سبحانه وتعالى وهم يشهدون هذه الشهادة العظيمة لا إله إلا الله . وليس في الملائكة ملك إلا وهو من أهل هذه الشهادة ينطق بها ويشهد بها جميعهم بدون استثناء ، الملائكة كلهم يشهدون هذه الشهادة من أولهم إلى آخرهم وهم خلق لا يعصي الله ، لا يوجد في الملائكة شيء اسمه معصية ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] . فذكر جل وعلا شهادة الملائكة قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي يشهدون أنه لا إله إلا الله .

﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ خص أهل العلم به سبحانه بالذكر دون غيرهم تشريفاً لهم وتعليةً لقدرهم ورفعة لشأنهم وبياناً لفضلهم على غيرهم ، ويكفي أهل العلم شرفاً وفضلاً أن ذكر جل وعلا شهادتهم بأن لا إله إلا الله مقرونةً بشهادته وشهادة ملائكته؛ فهذا شرف لأهل العلم وأيما شرف ! وفضلٌ يدل على رفعة العلماء وعلو مكانتهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ والمراد بأولي العلم: أي أولي العلم بدينه وشرعه ، وعندما يأتي الثناء على العلماء وأهل العلم في القرآن والسنة المراد به أهل العلم بشرعه ودينه؛ كقوله : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] ، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] ونظائر هذه الآيات المراد بهم: أهل العلم به وبشرعه وبدينه . وهم المراد بأهل العلم إذا أطلق هذا اللقب ؛ عندما يقال : «أهل العلم أو العلماء» المراد به أهل العلم بشرعه ودينه ، ومن سواهم ينسبون إلى العلوم التي تعلموها ، فهو وصفٌ نسبي يُقال :عالم في الطب ، عالم في الهندسة ، عالم في الزراعة ، عالم في كذا يُنسب إليه ، لكن أهل العلم أهل الشرف أهل الفضل أهل الثناء في الكتاب والسنة المراد بهم أهل العلم بالله سبحانه وتعالى وبشرعه وبدينه ، وهؤلاء هم الذين ذكر الله سبحانه وتعالى شهادتهم معلياً من شأنهم وقدرهم قال : ﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ .

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا بيان لشأنه جل وعز الموحَّد المقصود بالعبادة المفرود بالذل والطاعة؛ شأنه جل وعلا أنه قائم بالقسط ؛ أي قائم بالعدل . فذُكر في الآية التوحيد والعدل ، فالله جل وعلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يُخص بالذل والخضوع والانكسار والطاعة وهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وهو جل وعلا قائم بالقسط؛ أي قائم بالعدل جل وعلا ؛ عدلٌ في شرعه ، وعدلٌ في جزائه وقضائه وأحكامه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] .

قال : ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ؛ قَائِمًا بِالْقِسْطِ: أي قائماً بالعدل وهذه شهادة منه لنفسه جل وعلا بذلك ، شهد لنفسه بذلك أنه لا إله إلا هو ، وأنه جل وعلا قائم بالقسط ؛ أي قائم بالعدل .

وقوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذان اسمان لله ختمت بهما الآية؛ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، و«العزيز» يدل على وصفه بالعزة وهو على أنه القاهر الذي لا يغلب جل وعلا ، و«الحكيم» أي الذي له الحكم وله أيضاً الحكمة في أفعاله وأحكامه وأقضيته سبحانه وتعالى .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا دليل الشهادة ، وهو دليل يدل على مكانة الشهادة في الدين وعظم شأنها ، وأنها أعظم شهادة لأعظم مشهود به وهو وحدانية الله وتوحيده ووجوب إفراده تبارك وتعالى بالعبادة . أفادت هذه الآية فضل هذه الشهادة ومكانتها وعظم شأنها في الإسلام . والله جل وعلا ذكر أنه يشهد بها وأن الملائكة تشهد بها وأن أولوا العلم يشهدون بها ، والشهادة كما بيَّن أهل العلم لا تكون إلا عن علم بالمشهود به واعتقادٍ لذلك وتكلم به وإعلان ؛ هذه مراتب أربعة لابد من توافرها في الشهادة لتكون شهادة : العلم ، والاعتقاد ، والتكلم بهذه الشهادة –النطق بها– والإعلام يُعلِم ويعلن ذلك .

لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى الشهادة ودليلها قال : ((**ومعناها**)) ؛ أراد أن ينبه فيما سيأتي من بيان أن لا إله إلا الله ليست كلمة لا معنى لها أو لفظة لا مدلول لها ، بل هي لفظةٌ مشتملة على أعظم المقاصد وأجل الغايات وأنبل الأهداف على الإطلاق ، ليست لفظةً لا معنى لها أو لا مدلول لها ، بل هي لفظة مشتملة على أعظم المعاني وأجل المقاصد وأنبل الغايات .

وإذا عُلم هذا فليُعلم أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تكفي من قائلها إلا إذا كان عالماً بمعناها عارفاً بمدلولها محققاً لما تدعو إليه من الإخلاص والتوحيد، لابد من ذلك ؛ لابد فيها من العلم ، ولابد من العمل بما تدل عليه من التوحيد ، ولابد أيضاً من الصدق ليكون من أهلها حقاً . أما أن يشهد بأن لا إله إلا الله ولا يدري ما هي هذه الكلمة ولا يدري على أي شيء تدل!! أو يشهد أن لا إله إلا الله ويعرف معناها لكنه ينقضها بأعماله بأفعال الشرك والكفر!! أو ينطق بها وليس صادقاً من قلبه !! هذا كله لا يكفي ، لابد من العلم والعمل والصدق ، ولهذا قال العلماء في هذه الأمور الثلاثة والتنبيه على أهميتها في الشهادة قالوا: «بالعلم يخرج من طريقة النصارى ، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود ، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين» ؛ فإذا كان من أهل العلم خرج عن طريقة النصارى الذين يعملون ولا يعلمون ، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود الذين يعلمون ولا يعملون ، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون . فلابد من العلم ، ولابد من العمل ، ولابد من الصدق ليكون من شهد بهذه الكلمة من أهلها حقاً وصدقاً ، ولهذا لابد من معرفة معنى «لا إله إلا الله» وما تدل عليه من الإخلاص والتوحيد لله جل وعلا وإفراده بجميع أنواع العبادة ، ولهذا بدأ رحمه الله بقوله ((ومعناها)) ؛ لأنها لا تفيد من نطق بها إلا إذا كان عالماً بمعناها .

قال : ((**ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ**)) هذا هو معنى لا إله إلا الله ، وهو تفسير مختصر جامع ؛ لا إله إلا الله معناها : لا معبود بحق إلا الله .

لماذا قال : لا إله إلا الله أي : لا معبود بحق ؟ لأن معنى الإله في لغة العرب: المعبود. والتأله: التعبد ، والمألوه : المعبود ، والإله معناه : المعبود ، مِن أَلَه يأله إلهةً أي : عبد يعبد عبادةً ، فهو بمعنى المعبود . و «الإله» مثل المعبود في أصل دلالته وفي وزنه أيضاً : أَلَه يأْلَه عبَد يعبُد ، عبادةً إلهةً، والتأله: التعبد . فلا إله : أي لا معبود ؛ هذا معنى الإله . ولهذا إذا قال قائل : لا إله : أي لا خالق أو لا رازق أو لا منعم هذا لم يفهم معنى لا إله إلا الله ؛ لا في مدلولها اللغوي ولا أيضاً في مدلولها الشرعي . فالإله لغة : المعبود ؛ أي الذي يُذل له ويخضع ويعبد، تُصرف له العبادة .

قال : (((**لا إله إلاّ اللهُ : أي لا معبودَ بحقٍّ** إلا الله)) ؛ «بحقٍّ» هذه محذوف مقدر ، لأن لا النافية للجنس اسمها إله ، وخبرها محذوف مقدر تقديره بحق ، ولابد أن يكون هذا هو المقدَّر دون غيره . أرأيتم لو أن شخصاً جعل المحذوف المقدر "موجود"، كأن يقول : "معنى لا إله إلا الله: أي لا إله موجود إلا الله" يكون المعنى فاسداً ، لماذا ؟ لأن الآلهة الموجودة المعبودة بالباطل لا حد لها ولا عد ولا حصر لها ، فإذا قدَّر المحذوف بـ :موجود " يعطي معنى فاسداً مناقضاً لمدلول لا إله إلا الله ، فلابد أن يكون المحذوف المقدر «بحق» ، فيكون المعنى : لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ، لأن هناك معبودات كثيرة ولكن بالباطل ولهذا إذا أردت دليلاً على تقدير المحذوف بـ «حق» فاقرأه في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] وقوله جل وعلا : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج:٦٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة . فلا إله إلا الله معناها : لا معبود بحق إلا الله . والمعبود : هو الذي يُخضع له ويُذل، تُصرف له العبادة من دعاء ونذر وذبح إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي مر معنا شيئاً منها عند المصنف رحمه الله تعالى ، فهذا هو معنى «لا إله إلا الله» : لا معبود بحق إلا الله .

ثم زيادة في البيان والإيضاح قال : ((**لا إلٰه**)) الذي هو أول هذه الكلمة ((**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، إلا الله مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ**)) وبهذا تعلم أن لا إله إلا الله قائمة على ركنين : نفي وإثبات؛ نفيٌ عام في أولها وإثبات خاص في آخرها ، «لا إلٰه» نفي عام ، «إلا الله» إثبات خاص . النفي العام لكل ما يُعبد سوى الله ، «لا إلٰه» نفي لكل ما يعبد ، نفي لعبادة كل من سوى الله ، ولهذا تسمى «لا» هنا : لا التبرئة، لا البراءة ؛ فهنا تبرأ وتعلن براءتك نافياً جميع الآلهة وجميع المعبودات نفياً عاماً مستثنياً رب العالمين جل وعلا «إلا الله» وسيأتي معنا ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ [الشعراء:٧٨] .

فأولها نفي عام ، وآخرها إثبات خاص ؛ وهذا هو التوحيد ، التوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات ، إن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً ، وإن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً ، فالتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات . من أجل التوضيح فقط أضرب لكم مثالاً ، فقط للتوضيح حتى نعرف أن التوحيد في مدلوله

اللغوي وأصل معناه لا يكون إلا بالنفي والإثبات ؛ لو قال قائل : "ليس زيدٌ في البيت" نفى دون أن يثبت ، أو قال آخر : "زيد في البيت" ، أي من اللفظين لا يفيد هذا المعنى –معنى التوحيد – ؟ لكن لو قال : "ليس في البيت إلا زيد: نفى وأثبت ، عرفتَ معنى التوحيد أنه لا يوجد في البيت إلا شخص واحد هو زيد . فبالنفي وحده لا يُستفاد توحيداً ، وبالإثبات وحده أيضاً لا يُستفاد توحيداً ، فالتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات ، ولهذا «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد توحيد الله جل وعلا قائمة على ركنين : النفي والإثبات ، ولا يكون العبد موحداً إلا بهما ؛ فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً بل يكون ملحداً ، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً بل يكون مشركاً ، ولا يكون موحداً إلا بالنفي والإثبات ، «لا إله» ينفي العبودية عن كل من سوى الله ، «إلا الله» يثبت العبودية بكل معانيها لله تبارك وتعالى وحده .

ولهذا قال : ((**«لا إلٰه» نافيًا** –أي نافياً من شهد بهذه الشهادة ونطق بهذه الكلمة– جميع ما يُعبد من دون الله)) ((جميع ما يُعبد)) يدخل تحت النفي ماذا ؟ الملائكة، الأنبياء، الأولياء، الأشجار ، غير ذلك كل ما عبد أو يُعبد من دون الله يجب أن يكون داخلاً تحت هذا النفي «لا إله» نافياً للعبودية عن كل من سوى الله أياً كان مهما علا قدره وعلت مكانته ، «لا إله إلا الله» هذا توحيد لله ، ليس مع الله شريك فيه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهم .

((**«لا إلٰه» نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ**)) مثبتاً العبادة لله وحده . العبادة ما هي ؟ عرفناها وعرفنا شيء من أنواعها فمن قال «لا إله إلا الله» وذبح لغير الله ، أو قال «لا إله إلا الله» واستغاث بغير الله وطلب المدد من غير الله ، أو قال «لا إله إلا الله» ونذر لغير الله أيكون من أهلها ؟ لا ، لا يكون من أهل «لا إله إلا الله» حتى ينفي ما نفت ويثبت ما أثبتت فلا يكون من أهلها إلا بذلك ، قال : ((**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، مُثْبِتًا العبادةَ** –بجميع معانيها– **للهِ وحدَه**)) ذلاً وخضوعاً وانكساراً ودعاء ورجاء وركوعاً وسجوداً وخوفاً ورغباً ورهباً وغير ذلك كله لله ، يثبته لله ويصرفه كله لله ولا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء من ذلك .

قال : ((**وحدَهُ لا شريكَ لهُ**)) وهذه الكلمة «وحدَهُ لا شريكَ لهُ» تأتي كثيراً في التهليلات المأثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام عقب «لا إله إلا الله»؛ أليس كذلك ؟ تجد في كثير من التهليلات المأثورة في السنة يقول نبينا عليه الصلاة والسلام : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» . والعلماء يقولون : أن كلمة «وحده لا شريك له» الآتية في الذكر المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام هي تأكيد لما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي وإثبات ، لأن «لا إله إلا الله» ركنان: نفي وإثبات ؛ أكد الإثبات بقوله : «وحده» ، وأكد

النفي بقوله : «لا شريك له»، فقوله : «وحده لا شريك له» فيه اهتمام بالتوحيد وتأكيد عليه بركنيه : النفي والإثبات؛ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» .

ومن جميل النصح وعظيمه في باب ترسيخ معنى «لا إله إلا الله» وتثبيتها في القلوب المؤمنة ما وجّه إليه نبينا عليه الصلاة والسلام وأرشد إليه وكان يواظب على فعله ألا وهو التهليلات التي ثبتت عنه عليه الصلاة والسلام أدبار الصلوات الخمس؛ كان يقول دبر كل صلاة : ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)) ، هذه ثلاث تهليلات كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقولها دبر كل صلاة ، وأمته وأتباعه بإحسان يقولونها تأسياً به دبر كل صلاة ، خمس مرات في اليوم والليلة بعد أن يسلم المسلم من صلاته يأتي بهذه التهليلات ؛ ثلاث مرات يقول : «لا إله إلا الله» ؛ المرة الأولى يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله «وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» ، والمرة الثانية يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله : «ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن» ، والمرة الثالثة يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله «مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» .

ما هذا الذي تُتبع به «لا إله إلا الله» في هذه المرات الثلاث؟ وماذا يفيد؟ لابد أن ننتبه لهذا لأن هذا شيء نكرره يومياً أدبار الصلوات المكتوبة، نقول : «لا إله إلا الله» ؛ ومرة نقول عقبها : «وحده لا شريك له» ، ومرة نقول عقبها : «ولا نعبد إلا إياه» ، ومرة نقول عقبها : «مخلصين له الدين» . هذا الذي نتبع به «لا إله إلا الله» في هذه المرات الثلاث هو تثبيت لمعناها ، وترسيخ لمدلولها ، وإقامة لحقيقتها ؛ هذا هو معنى «لا إله إلا اله» .

ولهذا أيها الأخ الموفق لو قيل لك : عرِّف «لا إله إلا اله» وأردت أن تعرِّفها بتعريف جامع وشافي ووافي من خلال ما أنت تردده يومياً أدبار الصلوات المكتوبة فكيف تستخلص من هذه الكلمات المضافة إلى «لا إله إلا الله» في هذا التهليل تعريفاً جامعاً ؟ تابع معي .

في المرة الأولى قلت : «وحده لا شريك له» ، وفي المرة الثانية : «ولا نعبد إلا إياه» ، وفي الثالثة قلت : «مخلصين له الدين»، استخلص من هذا الذي تكرره كل يوم أدبار الصلوات المكتوبة تعريفاً جامعاً لـ «لا إله إلا الله» من مجموع التهليلات الثلاث ؟

ما رأيك لو قلت : «لا إله إلا الله» معناها : ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين . هذا من أجمع وأحسن ما يكون ، وتعريف أخذته من ذكرٍ نبوي يتكرر معك كل يوم ، تحفظه وتحافظ عليه ويتكرر عليك يومياً، ولهذا أنصحك أن تحافظ على هذا المعنى لـ «لا إله إلا الله » ، وإذا بليت بمبطل

يبعدك عن مدلول « لا إله إلا الله» فدعك عن باطله وحافظ على هذا التعريف الذي هو معك كل يوم يتردد على لسانك .

فإذا قيل : ما معنى «لا إله إلا الله» ؟ قل معناها : أي لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

هذا التعريف مركب من ماذا ؟ من مجموع التهليلات الثلاث ؛ لاحظ أولاً : «ولا نعبد إلا إياه» نفي وإثبات ، نحن قلنا : «لا إله إلا الله» ما معناها عند الشيخ ؟ لا معبود ، من أين لنا أن «لا إله» : لا معبود ؟ هذا الحديث أمامنا وهذا الذكر نردده كل يوم : «لا نعبد إلا إياه»؛ هذا هو معنى « لا إله إلا الله » ، فلم تأتِ هذه الكلمة من فراغ ، جاءت من اللغة ومن السنة ، وجاءت أيضاً من القرآن ، ولهذا سيأتي عند المصنف ذكر آيات من القرآن تفسر «لا إله إلا الله» وتبين معناها ؛ مثل قول إبراهيم لقومه : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] ، ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ هذا معنى «لا إله إلا الله» وسيأتي بيانه .

«لا نعبد إلا إياه» نفي وإثبات ؛ أي نخلص العبادة لله ، «وحده لا شريك له» هذه تأكيد للإثبات وتأكيد للنفي كما سبق بيان ذلك ، «مخلصين له الدين» عرفنا معنى الإخلاص وأن معنى هذه الكلمة أن تكون العبادة صافية نقية لا يُراد بها إلا الله سبحانه وتعالى .

لتثبيت الأمر والتأكيد عليه أقول : ما معنى «لا إله إلا الله» في ضوء التهليل الذي تردده كل يوم أدبار الصلوات ؟

وهذا التعريف لم نأخذه لا من زيد ولا من عبيد، أخذناه ممن ؟ من سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، من هذا التهليل الذي نردده أدبار الصلوات.

«لا إله إلا الله» معناها في ضوء هذا الذكر الذي نردده أدبار الصلوات تلخص لنا في كلمة موجزة؛ معنى «لا إله إلا الله» : أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين .

ثم هذه الكلمة أو هذه التهليلات أُتبعت بدلائل للتوحيد ، يعني ذُكر معنى التوحيد وذُكر دلائل للتوحيد:

- في التهليلة الأولى تقول : « لا إله الله وحده لا شريك له و له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» هذه كلها براهين ودلائل للتوحيد ، نحن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين لأنه وحده له الملك ، وحده له الحمد ، وحده على كل شيء قدير ؛ فهذه براهين ودلائل للتوحيد .
- في التهليلة الثانية : «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن»؛ هذه أيضاً براهين للتوحيد .

- أيضاً في الأخيرة قال : «مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» ، وأيضاً ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول مع هذه الكلمات : «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» ؛ وهذه أيضاً براهين للتوحيد ضُمت إلى كلمة التوحيد برهاناً للتوحيد ودليلاً عليه . «لا مانع لما أعطيت» أي ما كتبته يا الله من عطاء لا يمنعه أحد كائناً من كان ، «ولا معطي لما منعت» الشيء الذي تمنعه لا يستطيع أحد أن يعطيه ، فالأمر أمرك والمن منك والعطاء عطاؤك ، «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي صاحب الحظ وصاحب النصيب -لأن الجد: هو الحظ والنصيب- لا ينفعه حظه ونصيبه، «لا ينفع ذا الجد منك الجد» أي إن كان ذا حظ وذا نصيب في جاهٍ أو في مال أو في رئاسة أو في غير ذلك كل ذلك لا ينفعه ما لم يكن من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً .

فينبغي يا إخوان هذا التهليل الذي يكرر أدبار الصلوات المكتوبة أن نستحضر معه هذا المعنى الجليل ، فنحن نردد كل يومٍ أدبار الصلوات المكتوبة هذه الكلمات العظيمة والتهليلات المباركة التي ترسِّخ التوحيد في قلوبنا وتمكنه في نفوسنا وتكون عوناً للعبد ليحقق التوحيد ، أرأيتم لو أن شخصاً يقول أدبار الصلوات : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ثم يقول : «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه» ثم يقول : «لا إله إلا الله مخلصين له الدين» ، ثم بعد ذلك عرضت له حاجة وأراد أن يسأل إما شفاء من مرض أو يريد ولد أو يريد غنى أو غير ذلك ومد يديه وقال : "مدد يا فلان" ماذا يحدث حينئذ ؟ كل الذي قاله ينهدم وينتقض ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] ينهدم كله . ولهذا بعض الناس لم يتبصَّر في معنى هذه الكلمة ولم يتأمل في مدلولها ولم يوفَّق في عالم هدى يبين له ما تدل عليه هذه الكلمة من وجوب الإخلاص والتوحيد وإفراد الله تبارك وتعالى بأنواع العبادة ، «لا إله إلا الله» معناها : لا معبود بحق إلا الله ؛ أي لا نركع إلا لله ، ولا نسجد إلا لله ، ولا نذل ونخضع إلا لله ، ولا ندعو ونرجو إلا الله ، ولا نخاف إلا من الله ، ولا نتوكل إلا على الله ، ولا نذبح إلا له ، ولا ننذر إلا له ؛ هذا معنى «لا إله إلا الله» ؛ أن العبادات كلها نثبتها له ونصرفها له وننفيها عمن سواه أياً كان ومهما كان .

قال : ((**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِه**)) ؛ الله جل وعلا ليس له شريك في الملك ولا في مقدار ذرة ، لا شريك له في الملك ، تفرد جل وعلا بملك الأرض والسماوات والجبال والأشجار.. الجميع ملك الله والجميع خلق الله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] أياً كان من يدعى من دون الله لا يملك مثقال ذرة الملك كله لله ، تفرد بالملك، تفرد بالخلق، تفرد بالرزق، تفرد بالإنعام، تفرد بالعطاء ، فالذي تفرد في هذا كله يجب أن يُفرد بالعبادة .

وحال كثير من بني آدم عجب؛ يخلقهم الله ويرزقهم الله وهو المتصرف فيهم جل وعلا ثم يتوجهون في حاجاتهم ورغباتهم إلى غيره!! إلى عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ، ولا عطاء ولا منعاً ، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً ، يتجه إلى عبد من العباد!! بل بعض المضلين يخاطب العوام والجهال يقول لهم : إذا نزلت بكم معضلة "اهتف بالشيخ فلان ، اهتف بسيدي فلان ، اهتف بكذا" ، من يكون ؟! وماذا بيده هذا الذي يقول المضل اهتف به ؟! ماذا بيده ؟! الأمر كله بيد الله تفرد بالملك تفرد بالخلق تفرد بالرزق ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] .

انتبه هنا إلى فائدة جليلة في هذا الباب: المصنف يقول : ((**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ**)) يعني كما أن الله سبحانه وتعالى تفرد وحده بالملك والخلق والرزق فيجب أن يفرد بالعبادة ، ولعلنا على ذكر من كلام ابن كثير الذي أعقبه الآيتين من سورة البقرة قال : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» ، والمصنف هنا يقول : ((لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ)) ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر:٣] الجواب : لا ؛ إذاً يجب أن يُفرد وحده بالعبادة ، لا يُدعى إلا هو ، ولا يُخاف إلا منه ، ولا يُتوكل إلا عليه ، ولا يصرف شيء من العبادة إلا له وحده تبارك وتعالى ولا يصرف شيء من العبادة لأحدٍ سواه.

أهل العلم يقولون : الذي يُدعى من دون الله وتُصرف له العبادة من دون الله يستحق العبادة إن توفرت فيه أحد أمور أربعة :

❖ الأمر الأول : أن يكون مالكاً في هذا الكون ولو شيئاً قليلاً ملكاً استقلالياً ؛ ما معنى ملكاً استقلالياً ؟ أي ملَكَه هو بنفسه دون أن يملكه الله إياه ، فهل أحد من المخلوقات يملك ولو شيئاً قليلاً ملكاً استقلالياً ؟ ولو قليل! هل يوجد ؟ قال الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هذا الاحتمال الأول بطل ، لا يوجد مخلوق يملك ولا مثقال ذرة ملكاً استقلالياً ، بل الذي يملكه قلَّ أو كثر إنما ملكه بتمليك الله سبحانه وتعالى له ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦] ؛ هذا الاحتمال الأول بطل .

❖ احتمال آخر دون هذا؛ إن لم يكن مالكاً أن يكون شريكاً للمالك في هذا الملك أو في بعضه ولو في شيء قليل؛ فهل لله –تنزه وتقدس– شريك في الملك ولو في شيء قليل؟ الجواب : لا ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا

مِنْ شِرْكٍ﴾ بطل الاحتمال الثاني . ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إبطال الاحتمال الأول ، ثم بعده إبطال الاحتمال الثاني قال : ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ ؛ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي الذين يُدعون من دون الله ﴿فِيهِمَا﴾ أي السماوات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾ أي مشاركة ولو في شيء يسير . بطل الاحتمال الثاني .

❖ إن لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك هناك احتمال ثالث إن وجد استحق أن يُدعى وهو: أن يكون ظهير للمالك وعوين للمالك يستعين به المالك ويستشيره ، قال جل وعلا : ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ فنفى جل وعلا الاحتمال الثالث ؛ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ؛ ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي الله ﴿مِنْهُمْ﴾ أي الذين يُدعون من دون الله ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي من عوين ومعين ومساعد ووزير ومشير ، نفى ذلك وأبطله .

❖ إذًا لا مالك ولا شريكاً للمالك ولا عويناً للمالك بقي احتمال رابع إن وجد أيضاً استحق أن يُعبد ، فأبطله رب العالمين قال : ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣] ، الاحتمال الرابع هو: أن يكون يملك الشفاعة عند المالك ابتداءً، يعني بدون أذن المالك ، فهل أحد يشفع عند الله بدون إذن الله ؟ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ، والشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذن الله للشافع ، ورضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له ، وربنا جل وعز لا يرضى إلا عن أهل التوحيد ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة لما سأله : «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟» قال : ((من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) ، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : ((لكل نبي دعوة مستجابة، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً)) .

فهذا السياق تأمله في سورة سبأ ينفعك الله عز وجل به في باب تقرير التوحيد ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ؛ قال بعض العلماء : «هذه الآية قطعت شجرة الشرك من أصولها واجتثتها من عروقها، لأنها لم تُبقِ لمشرك متعلَّق» ، كل ما يخطر ببال المشرك أنه يتمسك به أبطل في هذه الآية إبطالاً مرتباً ؛ لا مالكاً ، ولا شريكاً للمالك ، ولا عويناً للمالك ، ولا يملك شفاعة عند المالك ؛ إذاً عبادة كل من يُدعى من دون الله باطلة، هي من أبطل الباطل وأشد الضلال وأشنعه ولا يستفيد منها صاحبها إلا الخسران ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا

﴿يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:١٤] ؛ هذه نتيجة من يلتجئ إلى غير الله ويدعو غير الله ويصرف أنواع العبادة لغير الله تبارك وتعالى .

بعد ذلك قال المصنف رحمه الله : ((**وتفسيرُها الذي يوضّحُها قولُه تعالى**)) هذا كلام عظيم . الآن المصنف يفسر «لا إله إلا الله» بماذا ؟ بالقرآن ، وذكر هنا آيتين من القرآن الكريم فيهما تفسير «لا إله إلا الله» ، ولهذا انتبه لتفسير «لا إله إلا الله» ولمعناها في ضوء الآيتين اللتين ساقهما لك المصنف رحمه الله .

ومثل هذا الصنيع صنع في كتابه المبارك كتاب التوحيد؛ قال : «بابٌ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» ماذا في هذا الباب ؟ « بابٌ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» هذا الباب مكون من أربع آيات وحديث واحد . وبهذا تدرك متانة علم هذا الرجل وإمامته ونصحه ، ف «لا إله إلا الله» تفسيرها الذي يوضحها آيات يتلوها عليك من القرآن الكريم .

قال : ((**وتفسيرُها الذي يوضّحُها قولُه تعالى** : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾)) هذا فيه تفسير «لا إله إلا الله» ؛ لأن «لا إله إلا الله» ذكرت هنا بالمعنى .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ؛ «لا» قلنا هي «لا التبرئة والبراءة » ، ولهذا بدل أن يقول : «لا إله» أتى بمعناها وهو البراءة قال : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ، هذا في الدلالة مثل دلالة «لا إله»، لأن « لا إله » فيها إعلان البراءة ، «إلا الله» فيها إثبات التوحيد والإخلاص لله جل وعلا .

قال : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي متبرئ من كل ما يُعبد سوى الله ، ولهذا استثنى الله جل وعلا قال : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثنى ومع الاستثناء ذكر برهاناً للتوحيد قال : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي إلا الذي تفرد بإيجادي من العدم وخلقي بعد أن لم أكن ؛ هذا وحده الذي له عبادتي ومن سواه أبرأ منه ، لا يستحق من العبادة ولا شيء لا قليل ولا كثير .

﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ؛ أي إلا الذي فطرني فإنني أخلص العبادة له وأفرده بالعبادة وأوحده ولا أجعل معه شريكاً .

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾ ما هي ؟ «لا إله إلا الله» التي ذُكرت في الآية بالمعنى .

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية فِي عَقِبِهِ﴾ أي جعل كلمة «لا إله إلا الله» باقيةً في نسله وذريته لتكون معتصماً ومفزعاً يفزعون إليها ويعتصمون بها ويحافظون عليها ، وهي لمن وفقه الله سبحانه وتعالى وهداه من ذريته ، قال : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ثم ذكر رحمه الله الآية الثانية قال : ((**وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**)) هذه أيضاً الآية توضح معنى «لا إله إلا الله» .

قوله : ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ ما هي الكلمة السواء المقصودة هنا والمعنية في هذا المقام ؟ وهي كلمة العدل والإنصاف ، كلمة الحق ، كلمة الهدى ؛ ما هي ؟ «لا إله إلا الله» ؛ ﴿تَعَالَوْا﴾ يعني نادي أهل الكتاب اليهود والنصارى إلى كلمة عدل، كلمة حق، كلمة هدى وهي « لا إله إلا الله ».

﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كلمة عدلٍ لا نختلف عليها ، اتفق عليها جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ فهي كلمة متفق عليها بين جميع الأنبياء ، فيقول الله جل وعلا لنبيه نادي هؤلاء اليهود والنصارى وقل لهم : تعالوا نجتمع على كلمة سواء كلمة عدل متفق عليها بين جميع الأنبياء لا خلاف بينهم فيها ؛ وهي كلمة «لا إله إلا الله» .

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لو قال لك قائل : ما معنى «لا إله إلا الله» ؟ وقلت : معنى «لا إله إلا الله» : (أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) قرأت هذا الجزء من الآية ؛ ماذا يكون هذا التفسير ؟ تفسير جامع ، ولهذا الشيخ يقول : ((وتفسيرها : قولُه تعالى)) ، فلو قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ وقلت : « لا إله إلا الله » معناها وقرأت الآية ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ الجواب تفسير جامع مانع لا مزيد عليه ، نفي وإثبات ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ . ولهذا لاحظ أنت تعيش مع « لا إله إلا الله » وتفسر «لا إله إلا الله» بالقرآن وبالسنة ؛ حافظ على هذا التفسير ، وإذا جاءتك تفسيرات من هنا أو من هناك دعك من تفسيرات الناس وعليك بهذا التفسير الذي في كتاب ربك وفي سنة نبيك صلوات الله وسلامه عليه .

فإذا قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ اقرأ القرآن لا تزد على ذلك ، اقرأ كلام الله . إذا قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ قل : ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ قف عند هذا ؛ هذا جواب وافٍ وبيان شافٍ جامع لمعنى « لا إله إلا الله » ، فـ «لا إله إلا الله» معناها : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لا نصرف شيئاً من العبادة إلا لله ؛ الدعاء الذبح النذر الاستغاثة الخوف الرجاء ، نحن مر معنا قريباً عند المصنف الأدلة على أن هذه عبادات ، فـ«لا إله إلا الله» معناها : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . أرأيتم لو أن شخصاً – أعيد هذا المعنى – أرأيتم لو أن شخصاً قال : «لا إله إلا الله» ودعا غير الله ، استغاث بغير الله ، ذبح لغير الله ، نذر لغير الله أهو من أهل «لا إله إلا الله» ؟ لا ، لأن «لا إله إلا الله» معناها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ أي لا نجعل معه شريكاً في شيء من العبادة .

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ «شَيْئًا» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم .

هاتان الآيتان في تفسير «لا إله إلا الله» لكن القرآن فيه آيات كثيرة جداً تفسر «لا إله إلا الله» ، والمؤلف رحمه الله ذكر في كتابه التوحيد قدراً طيباً من هذه الآيات ؛ فمن الآيات المفسرة لـ «لا إله إلا الله»: قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وقوله تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] وغيرها من الآيات الكريمات المفسرة والمبينة والموضحة لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» .

قال : ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله تبارك وتعالى

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «مِنْ دُونِ اللَّهِ» هذا يشمل ماذا ؟ يشمل كل أحد؛ فالطاعة لله تبارك وتعالى، والعبادة والذل والخضوع والانكسار حقٌ لله لا شركة لأحدٍ فيه لا في قليل ولا في كثير

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني امتنعوا وتولوا وأدبروا ولم يقبلوا ، إن لم يقبلوا منك ذلك ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ؛ ﴿فَقُولُوا﴾ أي أنت وأمتك –أمة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام– قولوا لهؤلاء : {اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي مخلصون لله تبارك وتعالى التوحيد ، لا نجعل معه الشركاء والأنداد ؛ تعالى وتنزه عن ذلك .

إلى هنا يكون المصنف رحمه الله أنهى الكلام على « لا إله إلا الله » ذاكراً فضل هذه الكلمة ، وذاكراً أيضاً معنى هذه الكلمة ومدلولها وما تدل عليه من وجوب إخلاص الدين لله تبارك وتعالى والبراءة من الشرك .

صلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الثاني عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]. **ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ. ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ قولُه تعالى:**﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]. **ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]. **ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

****

فهنا يتكلم ويبين المصنف رحمه الله تعالى ما يتعلق بشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ . وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ هي قرينٌ لشهادة أن لا إله إلا الله ، فالله عز وجل لا يقبل من العباد «لا إله إلا الله» إلا مقرونًا بها «مُحَمَّد رسول الله» ﷺ ، فهي قرينة كلمة التوحيد . والله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم قرن بين محبة الله ومحبته عليه الصلاة والسلام، وطاعة الله وطاعته، ومعصية الله جل وعلا ومعصيته ، وقرن الشهادة بأن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ بالشهادة أن لا إله إلا الله .

و«لا إله إلا الله» دالة على الوحدانية ؛ إفراد الله جل وعلا بالتوحيد ، و«مُحَمَّداً رسول الله» ﷺ دالة على تجريده ﷺ بالطاعة ؛ فالعبادة لله جل وعلا ،ولا يُعبد الله جل وعلا إلا بما شرع وجاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا فإن الدين كله قائم على الشهادتين ، وشهادة أن لا إله إلا الله تدل على الإخلاص ، وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ تدل على الاتباع ، والله جل وعلا لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة لوجهه موافقة لهدي نبيه ﷺ ؛ فمن جاء بالإخلاص دون المتابعة أو بالمتابعة دون الإخلاص لم يقبل الله تبارك وتعالى منه عمله ولم يقبل منه تعالى طاعته . فالدين كله قائم على الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن مُحَمَّداً رسول الله ، ولهذا بدأ النبي ﷺ بالشهادتين عندما ذكر مباني الإسلام، قال : ((بني

الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله)) ، وكذلك في حديث جبريل قال : «أخبرني عن الإسلام؟» قال : ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله)). فالشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة هي قرين للشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية .

ولهذا بعض أهل العلم بهذا الاعتبار وبهذا الملحظ قال : التوحيد نوعان: توحيد المرسِل وتوحيد المرسَل ؛ توحيد المرسِل وهو الله بأن يفرد جل وعلا بالعبادة وأن يُخلص الدين له ، وتوحيد المرسَل وهو النبي عليه الصلاة والسلام بأن لا يُعبد الله جل وعلا إلا بما جاء عنه عليه الصلاة والسلام ؛ فيكون مدلول الشهادتين : أن لا يُعبد إلا الله ، وأن لا يعبد الله جل وعلا إلا بما شرع وجاء عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ** ﷺ)) ؛ مُحَمَّد ﷺ هو النبي الكريم الذي ختم الله جل وعلا به النبوات فلا نبي بعده : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا نبي بعدي)) ؛ فبه خُتمت النبوات والرسالات فلا نبي بعده عليه الصلاة والسلام ولا رسول . وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين، سيد ولد آدم أجمعين كما قال ﷺ : ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)) . وهو عليه الصلاة والسلام أولى بكل مؤمن من نفسه كما قال جل وعلا : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] ومعنى ذلك : أن تكون محبته مقدمة على محبة النفس وأن تكون طاعته عليه الصلاة والسلام مقدمة على طاعة النفس ، لأنه أولى بنفسك منك ، وأحرص على نفسك منك ؛ فوجب عليك أن تحبه محبةً مقدمةً على محبتك لنفسك ، وأن تطيعه طاعةً مقدمة على طاعتك لنفسك ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، وقال لعمر : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)) ؛ ولهذا وجب على كل مسلم أن يقدم محبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبته لنفسه ، والله جل وعلا قرن محبة النبي ﷺ بمحبته ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة:٢٤] ، في الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)) .

والشهادة له عليه الصلاة والسلام بأنه رسول الله يأتي تقريرها وبيان معناها عند المصنف رحمه الله تعالى.

بدأ بذكر الدليل قال : ((**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾**))؛ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي أُرسل إليكم وبُعث إليكم رسول وهو مُحَمَّد ﷺ ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم تعرفونه ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو بشر مثلكم تعرفون نسبه وتعرفون حسبه وتعرفون خُلقه وأدبه عليه الصلاة والسلام . ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهو عليه الصلاة والسلام رسول من البشر لا من الملائكة ولا من الجن ، من البشر نشأ بين الناس وعاش مثل الناس يأكل الطعام مثلهم ويشرب الشراب مثلهم لكن الله سبحانه وتعالى شرَّفه على البشر بتتميم مقام العبودية وشرَّفه على البشر بأن اصطفاه واجتباه وجعله نبياً رسولاً وجعله سيد ولد آدم أجمعين؛ ولهذا قال الله في القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[الكهف:١١٠] ، فهو عليه الصلاة والسلام بشر مثله مثل البشر له أم وله أب وحاله كحال البشر لكنه يوحى إليه ، يأتيه الوحي من رب العالمين ، بعثه الله عز وجل وأرسله وجعله سراجاً منيراً وداعياً إلى الله بإذنه وجعله بشيراً ونذيراً .

قال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ؛ أي من صفته ونعته صلوات الله وسلامه عليه أنه يشق عليه الأمر الذي فيه مشقة عليكم وعنت ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه صلوات الله وسلامه عليه كل أمر فيه عنت على الناس ، ولهذا كان دينه عليه الصلاة والسلام دين السماحة واليسر ، قال عليه الصلاة والسلام : ((بعثتُ بالحنيفية السمحة)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)) ، وكان عليه الصلاة والسلام رفيقاً حليماً متواضعاً ليناً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

قال : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم وعلى ما فيه سعادتكم ونجاتكم من النار ومن سخط الجبار –عليه الصلاة والسلام– ، وجاهد عليه الصلاة والسلام في الله حق جهاده نصحاً للعباد ورحمة بالخلق ودعوةً إلى الله عز وجل واجتهاداً في إنقاذهم من النار ومن سخط الله جل وعلا ، يقابل إساءة من أساء إليه بالصفح وعدوان من اعتدى عليه بالعفو ، ويلين الجانب ويخفض الجناح ، ويناصح الناس حرصاً عليه الصلاة والسلام عليهم . ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على صلاحكم وهدايتكم واستقامتكم ونجاتكم من النار وسخط الجبار جل وعلا .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي من صفته عليه الصلاة والسلام أنه صاحب رأفة ورحمة بعباد الله المؤمنين .

لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى الدليل بيّن معنى الشهادة ، وينبغي هنا أن يُعلم أن شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ ليست نافعةً لقائلها إلا إذا عرف معناها وحقق مقتضاها ؛ فبذلك يكون من أهلها ، نظير ما سبق معنا في شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها لا تنفع صاحبها إلا إذا عرف مدلولها وحقق ما تقتضيه من الإخلاص لله جل وعلا والتوحيد والبراءة من الشرك ، وكذلك الشأن في شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ ؛ لابد من فهم ما دلت عليه من وجوب طاعته ، ولزوم ما جاء به ، وتصديق أخباره ، والبعد عن كل ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام ، وأن لا يُعبد الله جل وعلا إلا بما جاء عنه ﷺ .

فلابد من فهم معنى الشهادة أما أن يكون الإنسان ينطقها نطقاً مجرداً دون فهم ولا عمل لا يكون بذلك من أهلها ، لابد من فهم معناها ولابد من تحقيق مقتضاها ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] الرسل بُعثوا ليطاعوا ، لم يبعثوا فقط ليقال هم رسل وتنتهي القضية عند هذا الحد ، أو نحن نصدق بأنه رسول ، وكم من كافر آمن بأن النبي ﷺ مرسَل من الله وصدَّق أنه مرسل لكن لم يجب دعوته إما كبراً أو عناداً أو غير ذلك من الأغراض ، فقد يدرك الإنسان أنه رسول عليه الصلاة والسلام مرسَلٌ حقاً من ربه جل وعلا لكن قد يمتنع من الاستجابة ، وقد يعلم أن دينه دين حق ولا يستجيب ؛ مثل ما قال عمه :

ولقد علمتُ بأن دين مُحَمَّد من خير أديان البرية دينا

إذاً طالما أنك علمت لماذا لا تعلن إسلامك واستجابتك وتقبل هذا الدين الذي جاء به؟ يجيب قائلاً مبيناً المانع :

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذلك مبيناً

يقول أنا أعرف أن دينه دين حق وأنه رسول من عند الله لكن أخشى الملامة وأخشى سبة قريش لي وأخشى أن يتكلم الناس فيّ ؛ هذا الذي منعه ، وجلس النبي عليه الصلاة والسلام عند رأسه عندما حضرته الوفاة يقول له : ((يا عم قل «لا إله إلا الله» كلمة أحاج لك بها عند الله)) ، ومات وهو يقول هو على دين عبد المطلب ، وحزن النبي عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تسليةً له : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] . الشاهد أن في شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ لابد من الفهم لمعنى هذه الشهادة ، ولابد أيضاً من تحقيق ما دلت عليه.

قال رحمه الله : ((**ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ**)) ؛ عَدّها بيدك أربعة هذه معنى شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ ، ولابد من هذه الأربعة مجتمعة ، لابد أن يحققها العبد ليكون فعلاً صادقاً بالشهادة وليكون فعلاً من أهل الشهادة بأن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ .

❖ الأمر الأول : ((**طاعته فيما أمر**))؛ أمر عليه الصلاة والسلام بأوامر كثيرة ، وهذه الأوامر جاءت في القرآن وجاءت في السنة ، وأعظم شيء أمر به عليه الصلاة والسلام التوحيد ، وأعظم شيء نهى عنه الشرك بالله ، وأمر بالصلاة ، وأمر بالصيام ، وأمر بالحج ، أمر بالزكاة ، أمر ببر الوالدين إلى غير ذلك من الأوامر التي جاءت عنه وجاء بها عليه الصلاة والسلام في كتاب الله وسنته صلوات الله وسلامه عليه؛ فلابد من طاعته ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧] ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ، (صلي قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) يجب أن يطاع عليه الصلاة والسلام فيما يأمر به على قدر الاستطاعة : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦] . قال : ((**طاعتُهُ فيما أَمَرَ**)) هذا الأمر الأول .

❖ الأمر الثاني : ((**تصديقُهُ فيما أَخْبَرَ**)) أخبر بأمور كثيرة ؛ أخبر أولاً عن الله ، وذكر أسماء حسنى لله ، وذكر صفات عظيمة لله ، وذكر أفعالاً جليلة لله تبارك وتعالى ، ذكر الملائكة وذكر أسماء لهم وأخبار وأوصاف وأعمال ووظائف ، ذكر اليوم الآخر والجنة والنار وما يكون في الدار الآخرة وما يكون في القبر ، ذكر أمور كثيرة عليه الصلاة والسلام أخبر بها ، ذكر أخباراً عن الأولين وذكر أخباراً عن الآخرين وذكر أموراً بين يدي الساعة ، أشياء كثيرة عليه الصلاة والسلام ذكرها ؛ فلا يكون مؤمناً به إلا من يصدِّقه ﷺ في كل ما يخبر به .

روى عليه الصلاة والسلام للصحابة حديثاً قال : ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ..)) إلى آخر الحديث ، هذا خبر صح وثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ابن مسعود رضي الله عنه لما روى الحديث ماذا قال ؟ قال : «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق» فهو عليه الصلاة والسلام صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فكل ما يخبر به وحي من الله ؛ فيجب على من شهد أنه ﷺ رسول الله أن يصدقه في كل ما يخبر به ، وأن لا يتردد في شيء من ذلك ، وألا يشك في شيء من أخباره ، بل كل ما يخبر به عليه الصلاة والسلام يُتلقى باليقين والإيمان والجزم والتصديق ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[الحجرات:١٥] ، فإذا

وجد لدى الإنسان شيء من الريب أو الشك فيما يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام خرج بذلك من شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ، لأن من مقتضيات هذه الشهادة أن يصدِّق النبي عليه الصلاة والسلام في أخباره وأن لا يكذبه في شيء منها ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾[الزمر:٣٣] فيصدِّقه عليه الصلاة والسلام . هذا الأمر الثاني .

❖ الأمر الثالث : قال ((**واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ**)) ؛ اجتناب: أي البُعد والحذر مما نهى عنه وبَيَّن حرمته وذكر عقوبته والوعيد عليه ؛ فيجب على من آمن بأنه رسول من عند الله أن يجتنب ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه ، قال جل وعلا : ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧] ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا)) ولم يقل "ما استطعتم" لماذا ؟ في الأمر قال : «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» ،وفي النهي قال : «وما نهيتكم عنه فانتهوا» ولم يقل "ما استطعتم" لماذا ؟ لأن النهي ترك ، والترك مستطاع ، لأن الأمر يحتاج إلى فعل والفعل قد يكون فيه استطاعة عليه وقد يكون ليس هناك استطاعة عليه ، مثل لو كان هناك صخرة وقيل للإنسان : احملها ، لابد أن يقال : إن استطعت ، لأنه إن لم يكن عنده استطاعة على حملها لم يقم بحملها ، لكن لو قيل له : لا تحملها هل يقال : إن استطعت؟ لأن النهي ترك والترك مستطاع ، ولهذا قال : ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ، ولهذا قال في الحديث : ((صلي قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) ، وفي الحج قال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ ﴾[آل عمران:٩٧] الحج فريضة لا تجب في العمر كله إلا مرة واحدة ولا تجب إلا على المستطيع ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ، والنهي قال : ((وما نهيتكم عنه فانتهوا)) .

ولهذا يجب على من شهد أنه رسول الله ﷺ أن يتعرف على الأمور التي نهى عنها ليجتنبها ، وإذا لم يتعرف عليها كيف يجتنبها ؟ كما قال من قال : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!» ، ولهذا كما أننا مطالبون بمعرفة الأوامر لنفعلها فإننا كذلك مطالبون بمعرفة النواهي لنجتنبها ، ولهذا ألف جماعة كبيرة من أهل العلم كتب في النواهي ، كتب في المحرمات ،كتب في الكبائر لماذا ؟ لتجتنب ، كتب في البدع ؛ من أجل أن يعرفها الناس ليجتنبوها ، ومن لا يعرف الشر ربما وقع فيه ، ولهذا كما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليفعله ويكون من أهله فإنه أيضاً مطالب بمعرفة النواهي والمحرمات ليجتنبها وليتقيها وليبتعد عنها وليتوب إلى الله جل وعلا إن وقع في شيء منها ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور:٣١].

❖ والأمر الرابع : ((**وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ**)) أي لا بالأهواء والبدع ، لا يعبد الله بالأهواء ، ولا يعبد الله بالبدع ، ليست العبادة كلٌ يركب رأسه ويعبد بما شاء ، لا يعبد الله إلا بما شرع . الأهواء والبدع لا تقرب من الله بل تُرد على صاحبها ، قال عليه الصلاة والسلام : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) أي مردود على صاحبه وغير مقبول منه .

ولهذا الطرق إلى الله جل وعلا كلها مسدودة إلا طريق واحد ، الطرق التي يُدَّعى أنها توصل إلى الله جل وعلا كلها مسدودة ، لا يوصل إلى الله جل وعلا إلا طريق واحد ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] ، خط عليه الصلاة والسلام خطاً مستقيماً وخط على جنبتيه خطوط وقال : ((هذا صراط الله المستقيم ، وقال هذه سبل؛ وعلى رأس كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)) ، فالسبل كثيرة وكلها توصل إلى النار وإلى سخط الجبار ، وأما الطريق إلى الله سبحانه وتعالى فهو طريق واحد وهو طريق النبي مُحَمَّد ﷺ ، لا يقبل الله عز وجل ديناً سوى الدين الذي جاء عنه ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥] ، وقال تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] ، فالدين الذي يرضاه الله ويقبله من العباد ولا يرضى ديناً سواه هو الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

ولهذا من مقتضيات الشهادة ولوازمها ألا يُعبد الله إلا بما شرع ؛ أي بما جاء عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، أما أن يخترع الإنسان أعمالاً أو تخترع له أعمال ثم ينشغل بها فهي لا تقربه من الله ، ولهذا الطرق المحدثة التي أحدثها الناس وأنشأوها وزعموا أنها توصل السائرين فيها إلى الله هي في الحقيقة لا توصلهم إلى الله ، لا يوصل إلى الله تبارك وتعالى إلا طريق مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ؛ فمن أراد لنفسه النجاة والفوز ونيل رضا الله تبارك وتعالى فليلزم نهج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وليتمسك بهديه وليعتصم بسنته وليهتدي بهداه ؛ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يؤكد على هذا المعنى كثيراً ، وكان في كل مرة يخطب الناس يوم الجمعة يقول : ((أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى مُحَمَّد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) ، يحذِّر من الضلالات والبدع ولأهواء التي تحرف الناس عن الجادة السوية وعن صراط الله المستقيم . قال : ((وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ)) .

فهذه أمور أربعة ؛ من شهد أن مُحَمَّداً ﷺ رسول الله لن يكون من أهل هذه الشهادة حقاً وصدقاً إلا إذا كان من أهل هذه الأمور الأربعة . وإذا تأملت في هذه الأمور التي ذكر رحمه الله ، وتأملت في الشيء

الذي جاء به ﷺ وهو مرسل من الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤] فهو مُرسَل مبعوث ، ما خلاصة ما بُعث به عليه الصلاة والسلام ؟ لو تتأمل في جميع ما جاء عنه ﷺ تجده يتلخص في أمور ثلاثة : أوامر ، ونواهي، وأخبار. فإذا قال الإنسان : أشهد أن مُحَمَّداً رسول الله ؛ فليعلم أنه جاء بأوامر ، وجاء بنواهي ، وجاء بأخبار . فالأوامر تُفعل ، والأخبار تُصدق ، والنواهي يُنتهى عنها وتجتنب . ومن أراد أن يعبد الله ويتقرب إليه فليكن تقربه إلى الله بما جاء عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا هذا التعريف للشهادة هو أجمع تعريف ، ويُنصح كل مسلم أن يحفظ هذا التعريف ، ليس فقط يحفظه بل يحافظ عليه ؛ يحفظه ويحافظ عليه ويجتهد حياته بأن يحقق ذلك ؛ قال : ((طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ)).

ثم بعد ذلك انتقل رحمه الله تعالى للكلام على الركنين الآخرين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة فقال : ((**ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ**)) ؛ لما كان الدليل الذي ساقه دليلاً للصلاة والزكاة ومشتملاً على تفسير للتوحيد نبه على ذلك، مع أنه سبق أن أشار رحمه الله إلى بعض الآيات التي اشتملت على تفسير التوحيد، أشار إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:٦٤] ؛ فهذه آية ثالثة تفسر التوحيد إضافةً إلى دلالتها على ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة .

قال : ((**ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾**)) ؛ قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي ما أمر الله جل وعلا الكفار والمشركين إلا بإخلاص الدين لله وإفراده بالعبادة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أمر المشركين بذلك . ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هذه الكلمة هي مدلول «لا إله إلا الله» وفيها تفسير لـ «لا إله إلا الله» ، لأن «لا إله إلا الله» معناها : أن لا نعبد إلا الله مخلصين له الدين . وبالأمس وقفنا على هذا المعنى في التهليل الذي يقوله المسلم دبر كل صلاة «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه» ثم بعدها قال: «لا إله إلا الله مخلصين له الدين» . فـ «لا إله إلا الله» هي أن نعبد الله مخلصين له الدين حنفاء ، هذا هو معنى «لا إله إلا الله»: ألا نعبد إلا الله مخلصين له الدين.

قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي ما أمروا إلا بأن تكون عبادتهم لله خالصة؛ أي صافيةً نقيةً لا يراد بها إلا الله ، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك في شيء منها .

وقوله : ﴿حُنَفَاءَ﴾ الحنيف عرفنا معناه سابقاً وهو: المائل . وإبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء ، والحنيفية ملة إبراهيم؛ وهي أن نعبد الله مخلصين له الدين . فقوله ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن الشرك وعن الضلال والباطل إلى التوحيد والإخلاص وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى .

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أُمروا إضافةً إلى التوحيد بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة داخل تحت قوله : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أليس كذلك ؟ لأن الصلاة عبادة والزكاة عبادة فهما داخلان تحت قوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ، ومع ذلك ذُكرا وخُصا بالذكر تعظيماً لشأن هاتين العبادتين ، وهما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)) . وإيتاء الزكاة قرينٌ لإقام الصلاة في كتاب الله ، ففي الغالب كلما يُذكر في القرآن إقام الصلاة يذكر معه إيتاء الزكاة ، فهي قرينة الصلاة في كتاب الله جل وعلا ، فتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر هنا مع أنهما داخلتان في عبادة الله اهتماماً بهاتين العبادتين اللتين هما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

قال : ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر بإقامة الصلاة ، لم يقل "يصلُّوا"! قال: «وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» ، وإقامة الصلاة يتناول المحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها كل ذلكم من إقام الصلاة المحافظة على أوقاتها . ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي يأتوا بالصلاة محافظين عليها مؤدين لها مواظبين على ذلك ، مؤدين لشروطها وأركانها وضوابطها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد صح عنه في الحديث أنه قال : ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) .

والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المفروضة وهي خمس صلوات افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده في اليوم والليلة؛ الفجر : ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر : أربع ، والمغرب : ثلاث ، والعشاء : أربع ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] فالله جل وعلا افترض على عباده وكتب عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، وهذه فريضة مكتوبة على العباد ، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين .

ولهذا ينبغي أن تنتبه؛ أعظم شيء تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به بعد التوحيد: الصلوات الخمس المكتوبة؛ تقيمها محافظاً على أوقاتها على أركانها على شروطها ، وهذه الصلاة جُعلت محكًّا وميزاناً ، من حافظ عليها كانت عوناً له على المحافظة على غيرها من الطاعات ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، ولا حظ في الإسلام لمن ضيَّع الصلاة ، ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين : «إذا أردت أن تعرف قدر الإسلام عندك فانظر إلى قدر الصلاة عندك» ؛ ميزان الصلاة ، إذا أردت أن تنظر إلى قدر الإسلام ومكانة الإسلام عندك فانظر إلى مكانة الصلاة هل أنت من أهلها ؟ هل أنت من المحافظين عليها ؟ هل أنت من المواظبين عليها ؟ من ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع . قال عليه الصلاة والسلام كما في المسند عندما ذُكرت عنده الصلاة قال : ((من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة ، وحشر مع قارون وفرعون وهامان وأمية بن خلف)) ؛ يعني يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل .

فالصلاة محك وميزان ، وهي صلة بين العبد وبين الله تبارك وتعالى ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة لا تأخذ من الإنسان وقتاً طويلاً لكنها بركة على الإنسان في حياته وفي يومه ، اقرأ بركة الصلاة في الأحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ، واقرأ أيضاً خطورة التهاون في الصلاة وتركها : ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)) ؛ فالصلاة محك وميزان .

وإذا نظرت إلى واقع كثير من الناس تجده يُغلب على الصلاة ، والأمور التي تغلب على الصلاة كثيرة جداً ، والنبي عليه الصلاة والسلام حذَّر من أن يغلب الإنسان على صلاته قال : ((إن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا)) في حديث الرؤية ، فالإنسان يُغلب على صلاته ؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يتقي الله جل وعلا في هذه الصلاة وأن يحرص أن يكون من أهلها ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[البقرة:٤٣] يحافظ عليها في المساجد حيث ينادى بهن مع جماعة المسلمين كما أمره الله ، محافظاً على الشروط على الأركان على الواجبات ، لا يضيع هذه الصلاة ، يجتهد أن يكون في الصلاة من أولها من تكبيرة الإحرام ، لا يُغلب على صلاته ، لا يغلب على هذه الفريضة ، أعظم ما تتقرب إلى الله به الصلاة بعد التوحيد ، إذا ضاعت الصلاة ما سواها يضيع، وإذا حوفظ على الصلوات أعانته﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] .

فلهذا ينبغي على المسلم أن يعظم الصلاة وأن يكون لها في قلبه مكانة ومنزلة ، وإذا نودي للصلاة يجيب النداء ؛ «حي على الصلاة حي على الفلاح» يجيب النداء ولا يرده عن الصلاة أي شيء ، والآن كثير من الناس يغلب على صلاته! بعض الناس يغلبه على صلاته فنجان الشاي ، يكون أمامه الشاي ويشرب

والصلاة ينادى لها وتقام ويصلي المسلمون في المساجد وهو مغلوب محروم . وهناك من يغلبه على الصلاة المحرمات؛ يغشى المحرمات ويفعل المعاصي والآثام وينادى للصلاة فلا يجيب ، والذين يدخلون النار يوم القيامة –نار جهنم– يسألون : لمَ ؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر:٤٣] .

فالشاهد أن الصلاة فريضة من فرائض الإسلام ، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين ، ويجب على المسلم أن يتقي الله جل وعلا في صلاته ، وأن يحافظ عليها في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها كما أمره الله وكما جاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي ويؤدوا الزكاة المفروضة ، والزكاة المفروضة هو جزء يسير جداً من شيء كثير أعطاك إياه الله وتفضل الله سبحانه وتعالى عليك به ، وهي مالٌ يؤخذ من الأغنياء وصدقة تؤخذ من الأغنياء وتُرد على الفقراء . لما بعث الرسول معاذاً إلى اليمن قال : ((إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)) ، فالزكاة هي جزء قليل وقدر يسير من المال افترضه الله سبحانه وتعالى على الأغنياء الذين بلغت أموالهم النصاب ، ويُخرج هذا الجزء طيبةً به نفوسهم بنفس طيبةٍ سمحة ويؤدى إلى الفقراء المحتاجين ، ويكون بركة للمال ، وبركة أيضاً في المزكي نفسه عليه وحياته زكاة له ، ولا ينقص من ماله «ما نقصت صدقة من مال» ؛ هذه الزكاة المفروضة .

قال : ﴿وَذَلِكَ﴾ أي الذي أمروا به في هذه الآية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ﴾ الإشارة هنا إلى ما أمروا به هنا في هذه الآية ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الدين القويم المستقيم الواضح البين الموصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى وجنات النعيم .

قال : ((**ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**)) والصيام : هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في شهر رمضان المبارك . فشهر الصيام هو شهر رمضان ؛ افترض الله سبحانه وتعالى على العباد صيامه ، وهو شهرٌ يصام في كل سنة ، هذه عبادة مفروضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ؛ يصومون شهراً في السنة عن الطعام وعن الشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان المبارك.

قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم الصيام وأوجب عليكم فريضة

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهذا فيه تنبيه أن من قبلنا أمروا بالصيام ، كان الصيام معروفاً في الأمم السابقة في الرسالات السابقة .

قال : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذه ثمرة عظيمة للصيام؛ وهي أن الصائم يفوز وينال بصيامه تقوى الله ، فهو يثمر نيل تقوى الله جل وعلا ، يعين على كل خير ويحجز عن الرذائل والشرور كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الصيام جُنة)) يستجن به من النار ، من سخط الله ، من المعاصي والآثام .

قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تفوزون بأدائكم لهذه الطاعة وقيامكم بهذه العبادة بالتقوى التي هي أساس كل خيرٍ وفلاحٍ وسعادةٍ في الدنيا والآخرة .

قال : ((**ودليلُ الحجِّ**)) وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، والحج: هو قصد مكة لأعمالٍ مخصوصة في أوقاتٍ مخصوصة ، وهو فريضةٌ على العباد في العمر كله مرةً واحدة . الصلاة في اليوم والليلة خمس صلوات ، والزكاة ليست على كل أحد وإنما من يبلغ ماله النصاب إذا حال عليه الحول ، والصيام في شهر رمضان في كل سنة شهرٌ واحد ، والحج في العمر كله مرة واحدة أيضاً في حق المستطيع ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

وبهذا تعلم أن الدين دين يسر ، لا عنت فيه ولا مشقة ، مثل ما مر معنا في الآية الكريمة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨] ، بُعث بالحنيفية السمحة ، قال : ((إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)). فهذه فرائض عدها النبي ﷺ مرة لأحد الأعراب ؛ سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الفرائض فعدَّد عليه هذه الفرائض فأمسك الأعرابي بيده وقال : «لا أزيد عليها ولا أنقص»؛ يعني سأحافظ على هذه الفرائض ولا أزيد عليها ولا أنقص ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أفلح إن صدق)) ، وفي رواية : ((دخل الجنة إن صدق)) يعني إن مسك هذه الفرائض وحافظ عليها دخل الجنة . ففرائض الإسلام هي هذه ومباني الإسلام التي عليها يبنى . ولهذا ينبغي على المسلم هذه الخمس التي هي مباني الإسلام أن يحافظ عليها أشد المحافظة، وأن يرعاها أشد الرعاية ، وأن يجاهد نفسه على أن يكون من أهلها إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى ، مسك بيده وقال : «والله لا أزيد عليها ولا أنقص» يعني تأكيد للمحافظة على هذه الفرائض .

مرةً –وهذا أورده ابن كثير في تفسيره وجوَّد إسناده– جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقطع مفاوز ومسافات إلى أن وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وكان راكباً على بعيره ، فلما لقي النبي عليه الصلاة

والسلام سأله بم أرسل ؟ بم بعثه الله ؟ فذكر عليه الصلاة والسلام هذه المباني -مباني الإسلام- ، فالرجل كان فوق البعير قال : «أقررتُ» ، لما قال هذه الكلمة ساخت رجل بعيره في حفرة جرذان فسقط من البعير على رأسه واندقت عنقه ومات ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((إذا أردتم أن تروا الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فهذا منهم)) ، وهذا الحديث أورده ابن كثير عند هذه الآية من سورة الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((قوموا إلى صاحبكم)) وجاء في بعض الروايات أنه قال : ((إني رأيت الملائكة تدس الفاكهة في فيه)) ، ربما كان جائعاً في ذلك الوقت فعُجِّل له قراه ، قال : «أقررت» .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يقر بهذه الفرائض حقاً وصدقاً وأن يكون من أهلها حقاً وصدقاً ؛ يقر ، يلتزم ، يذعن، ينقاد ، يحافظ على هذه الفرائض محافظة تامة . هذا رجل أقر ، ومن حين أقر مات لم يتمكن من العمل لكن التزم به فكان من أهل الجنة . ولهذا ينبغي أن يقر الإنسان بهذه الفرائض وأن يُلزم نفسه بها وأن يحافظ عليها محافظة تامة إلى أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى غير مغيّر ولا مبدل .

قال : ((**ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**)) ؛ وتأمل لهذه الخاتمة التي خُتمت بها الآية قال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وتنبه لهذا ؛ الله سبحانه وتعالى غني عن طاعاتك ، غني عن حجك ، غني عن صيامك ، غني عن دعائك ، غني عن صلاتك ، لا تنفعه جل وعلا طاعة من أطاع ،ولا تضره معصية من عصى ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥] ، جاء في الحديث القدسي حديث أبي ذر في صحيح مسلم أن الله تبارك وتعالى يقول : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً)) ، فهو جل وعلا غني عن العالمين ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] ؛ غني عن العباد وغني عن طاعاتهم وعن عباداتهم وعن دعواتهم وعن صلواتهم وعن حجهم وعن صيامهم وعن كل ما يتقربون به إلى ربهم غنيٌ عن ذلك . والمعاصي التي يقارفها العباد ويباشرونها لا تضر الله سبحانه وتعالى شيئاً ولا تُنقص من ملكه شيئاً جل وعلا . فالذي يطيع الله ويمتثل أمر الله سبحانه وتعالى طاعته له ، والذي يعصي الله تبارك وتعالى معصيته عليه ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥] .

ولهذا يجب على المسلم أن يأخذ نفسه في هذا الأمر بالحزم والعزم والجد والاجتهاد والمرابطة والمصابرة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠] ، ويأخذ نفسه بالمجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩] ، وفي هذا كله يطلب عون الله وتوفيقه وتسديده وهدايته ، لأن الهداية والتوفيق بيد الله تبارك وتعالى ، ولا سبيل للقيام بأي من الطاعات إلا بتوفيق الله جل وعلا ؛ فيلجأ دوماً وأبداً إلى الله يرجو منه التوفيق والعون والتسديد والهداية ، ويرجوه العبد ألا يكله إلى نفسه «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ، «اللهم لا تكلني إلا إليك» ، يسأل الله دائماً وأبداً أن يكون له مؤيداً وموفقاً ومعيناً ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

المرتبةُ الثانية : الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إله إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ. وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ . والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة:١٧٧]، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

****

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**المرتبةُ الثانية : الإيمانُ**)) ؛ المرتبةُ الثانية أي من مراتب الدين ، وقد مر معنا قريباً أن ديننا ثلاث مراتب وهي: الإسلام ، والإيمان، والإحسان . ومر معنا أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام قد جمع هذه المراتب كلها في حديث جبريل ، وذكر عليه الصلاة والسلام أركان كل مرتبة ، وأن الإسلام أركانه خمسة، والإيمان أركانه ستة ، والإحسان ركنٌ واحد ، وسيأتي بيانه عند المصنف رحمه الله تعالى . وهنا شرع رحمه الله تعالى في بيان أركان الإيمان الستة .

وأركان الإيمان: أي أصول الإيمان وقواعده التي لا يقوم إلا عليها ؛ فانتفاؤها أو انتفاء شيء منها محبطٌ للإيمان ومبطلٌ للأعمال ،كما قال الله جل وعلا : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] .

أصول الإيمان أساسٌ يقوم عليها الدين قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]. فالإيمان أصوله وأركانه ستة وعليها قيام الإيمان ، ولابد من هذه الأصول كاملة ، لابد منها جميعاً ؛ فمن آمن ببعض هذه الأصول وكفر ببعضٍ بطل دينه ، لا بد منها جميعاً فهي أصولٌ متلازمةٌ مترابطة لا ينفك بعضها عن البعض الآخر ، الإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها ، والكفر ببعضها كفر بها جميعها .

وهي أصول عظيمة ، وهي للدين بمثابة الأصول للأشجار والأسُس للبنيان كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ ؛ هذا مثل ضرب الله جل وعلا للإيمان ، وأن أصول الإيمان كأصول الأشجار لابد أن تكون ثابتة في القلوب مستقرة في النفوس ؛ لكي تقوم شجرة الإيمان وأعماله على أساس راسخ وقواعد مستقيمة ، وأركان الإيمان ستة سيأتي بيانها عند المصنف رحمه الله .

قال : ((**المرتبةُ الثانيةِ : الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إلـه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ**)) ؛ بدأ رحمه الله حديثه عن الإيمان بهذا الحديث ، وهو معروف عند أهل العلم بـ«حديث الشُّعب» ، وقد أفرده بعض العلماء بمصنفات خاصة في شرح هذا الحديث وبيانه ، لأن هذا الحديث جمع الدين كله .

قال : ((**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شعبَة**)) البضع : ما زاد على الواحد وما دون العشرة ؛ «بضعٌ وسبعونَ شعبَة» أي أكثر من سبعين شعبة ، والشعبة : هي الطائفة من الشيء ، ومن المعلوم أن الطائفة من الشيء تتناول أفراداً ، فالإيمان شعبٌ كثيرة ، وكل شعبة من هذه الشعب تحتها من الأفراد من خصال الإيمان وما هو داخل فيه أيضاً شيء كثير ، فيكون الحديث فيه دلالة على كثرة خصال الإيمان وتعدد شعبه ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن العدد في الحديث لا مفهوم له وأن المراد به التكثير نظير قوله : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] العدد لا مفهوم له ، لأنه لو استغفر لهم مئات المرات لا ينفعهم ، لكن هذا العدد السبعين والسبعمئة ونحوه يؤتى به للتضعيف والكثرة ، فقوله «الإيمان بضعٌ وسبعونَ شعبَة» عند بعض أهل العلم المراد به أن الإيمان شعبه كثيرة جداً، وبعض العلماء قالوا لا؛ العدد له مفهوم والعدد مراد ، ولهذا اجتهد بعض العلماء في جمع خصال الإيمان وشعب الإيمان في حدود هذا العدد «بضعٌ وسبعونَ» ، وفي رواية للحديث : ((بضع وستون)) ، فبعض العلماء جمع في حدود هذا العدد المعين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ((**بضعٌ وسبعونَ شعبَة، أعلاها قولُ لا إلـه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) ؛ «أعلاها» : أي أعلى شعب الإيمان وأرفعها ، «وأدْناها» فيه إشارة إلى أن الإيمان له أعلى وأدنى وأن شعبه ليست بمستوى واحد ولا بمنزلة واحدة بل متفاوتة ؛ لها أعلى ، وأعلى الإيمان «قولُ لا إله إلاّ الله» ، ولها أدنى ، وأدنى الإيمان «إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ» . فإذاً شعب الإيمان متفاوتة .

وإذا نظرت في حال الناس مع هذه الشعب هل هم مستوون في القيام بها أو متفاوتون؟ ولهذا قال العلماء : الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف بحسب حال الإنسان مع شعب الإيمان ؛ فكلما ازداد حظاً ونصيباً

من شعب الإيمان زاد إيمانه ، وكلما نقص نقص ، فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه على رتبة واحدة ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤] ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] الإيمان يزيد وينقص؛ ((المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)) ، ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه سواء بل متفاوتون . وإذا نظرت إلى شعب الإيمان الكثيرة وأن الإيمان له أعلى وله أدنى ، ثم نظرت إلى حال الناس مع شعب الإيمان وجدتهم متفاوتون ؛ فهذا من أبين الأدلة على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف .

قال : ((**أعلاها قولُ لا إله إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) قوله : «أعلاها قولُ لا إله إلاّ الله» أي أعلى شعب الإيمان ؛ وهذا فيه فضل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وأنها أفضل الدين ، وأعلى شعب الإيمان ، وأعظم مباني الإسلام ، وأساس السعادة ، وسبيل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ، وهي أجل الكلمات وأحسن الحسنات وأعظم القربات ، قال أبو ذر ﷺ للنبي ﷺ : «أفمن الحسنات لا إله إلا الله؟» قال : ((هي أحسن الحسنات)) ، وهي أفضل الكلمات على الإطلاق كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) ، فهي أعظم الكلمات على الإطلاق ؛ ولهذا عدها نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث –حديث الشعب –أعلى شعب الإيمان قال : ((أعلاها قول : لا إله إلا الله)) .

وما المراد بقوله : لا إله إلا الله ؟ هل المراد قولها باللسان مجرداً ؟ أهل العلم يقولون : القول إذا أطلق في الكتاب والسنة يشمل قول القلب ويشمل قول اللسان؛ مثلاً قول الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [البقرة:١٣٦] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت:٣٠] القول إذا أطلق المراد به قول القلب وقول اللسان ، أما إذا قُيد فهو بحسب ما قيد به ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [المجادلة:٨] ، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٧] إذا قيد فهو بحسب ما قيد به ، أما إذا أطلق القول فإنه يتناول قول القلب اعتقاداً وقول اللسان نطقاً وتلفظاً .

وعليه فإن قول النبي ﷺ : ((أعلاها)) أي أعلى شعب الإيمان ((قولُ لا إلـه إلاّ الله)) أي قولها بالقلب عقيدة وباللسان نطقاً وتلفظاً ، أما من قالها بلسانه دون اعتقاد لمضمونها بقلبه فليس هذا من الإيمان . والمنافقون يشهدون أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله لكن بماذا ؟ بطرف اللسان ، أما القلب خراب تباب ، ولهذا «لا إله إلا الله» قولها لابد أن يكون بالقلب عقيدةً وباللسان نطقاً وتلفظاً .

قال : ((**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) ؛ إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ : أي تنحيته عن الطريق ، بحيث إذا رأى المسلم في طريق إخوانه المسلمين أذى يحمله عن طريقهم لئلا يؤذيهم ؛ هذا العمل إيمان —من شعب الإيمان— والحديث صريح الدلالة في دخول الأعمال في الإيمان ، وأنها جزء من الإيمان وليست خارجة من مسماه كما يقول أهل البدع ، العمل داخل في الإيمان جزء من الإيمان . قال : ((وأدْناها)) أي أدنى شعب الإيمان ((إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ)) ، فإماطة الأذى عن الطريقِ سماه النبي ﷺ إيماناً ، وهو عمل يقوم به الإنسان بيده ، فهو داخل في الإيمان وجزء منه ويتناوله اسم الإيمان . ولهذا قال العلماء رحمهم الله في تعريف الإيمان: «الإيمان قول واعتقاد وعمل» ، ليس الإيمان قول فقط ولا قول واعتقاد فقط بل الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ هذه كلها تدخل في الإيمان .

قال : ((**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) قد يستهين بعض الناس بهذا العمل! لكن الحديث يدل على شرفه وفضله وعظيم شأنه وأنه شعبة من شعب الإيمان وجزء من الدين ، ولهذا جاءفي صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((مر رجل على غصن شجرة فيه شوك فقال : والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم؛ فنحاه عن طريقهم ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة)) . إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان ، وفيه دلالة على ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من تراحم وتعاطف وتكاتف وسعي في مصالح بعض ، وأن مثل هذا جزء من إيمانهم يشكره الله لهم ويثيبهم عليه عظيم الثواب .

والناس في هذه الشعبة – أعني إماطة الأذى عن الطريق – أقسام ثلاثة :

١. قسم يميط الأذى عن الطريق .
٢. وقسم يضع الأذى في الطريق .
٣. وقسم يدع الأذى في الطريق ؛ أي لا يميطه .

وخير الناس من كان على هذه الشعبة العظيمة ، قال : ((وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ)) ، وإذا كان من يميط الأذى عن الطريق يؤجر ، فإن من يتعمد وضع الأذى في الطريق يؤزر ويأثم ، لأن هذا إيذاء للناس ولا يجوز له أن يؤذي المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] والإيذاء متفاوت .

قال : ((**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ**)) والحياء خلَّة عظيمة وخصلة مباركة من نُزعت منه فارقه الخير ، و((مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت)) ، فالحياء إذا فارق الإنسان فارقه الخير – والعياذ بالله – ، وإذا كان عنده حياء فحياؤه يحجزه ، ولهذا قال العلماء : الحياء خصلة كريمة تحجز عن الرذائل وتمنعه من الخسائس وتسوقه إلى الخيرات .

رأى النبي ﷺ رجلاً يعظ أخاه في الحياء يقول له : لا تستحي، يعظه في الحياء ، فقال النبي ﷺ : ((دعه؛ الحياء لا يأتي إلا بخير)) وفي رواية قال : ((الحياء خير كله)) ؛ إذا كان الإنسان يستحي فحياؤه يجلب له الخيرات ويحجزه بإذن الله عن المعاصي والشرور والآفات .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن ينمّي الحياء في قلبه ويقوّيه في نفسه ، وأعظم الحياء وأكبره وأجلُّه أن تستحي ممن خلقك جل وعلا ؛ الذي يراك حين تقوم ، يراك أينما تكون لا تخفى عليه منك خافية ، يطلع عليك ، يرى سرك وعلنك ، يعلم ما يخفي صدرك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وهو الذي أمدك بالسمع وأمدك بالصحة وأمدك بالقوة وأمدك بالجسم وأمدك بالمال وأمدك بالمسكن ، أمدك بكل النعم ؛ فأعظم الحياء أن تستحي من الله ، قال عليه الصلاة والسلام : ((استحيوا من الله حق الحياء)) قالوا : «إنا نستحي من الله» قال : ((الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وأن تذكر الموت والبلى)) ؛ هذه حقيقة الحياء من الله؛ يكون حافظاً لرأسه حافظاً لبطنه ، الرأس فيه الحواس فيه السمع ، تحفظ بصرك ، تحفظ سمعك ، تحفظ لسانك ، تحفظ بطنك من أن يدخل فيه الحرام هذا هو الحياء من الله. من السهل على الإنسان أن يقول : أنا أستحي من الله ، هذه الكلمة سهلة على اللسان وليست العبرة بالدعاوى، ولهذا ينبغي على العبد أن يكون في كل وقت وحين على حياء من الرب العظيم والخالق الجليل ، وإذا دعته نفسه إلى معصية أو إلى حرام أو إلى إثم فعليه أن يستحي من الله ، بعض الناس يترك المعصية حياء من الناس وإذا خلا فعلها ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨] . وإذا عمِر القلب بالحياء من الله سبحانه وتعالى صلحت الأعمال وزكى العبد بالطاعات وأنواع القربات .

قال : ((والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ)) ؛ الحياء عمل ومكانه القلب وتظهر آثاره على الإنسان ، وأشد عباد الله تبارك وتعالى حياءً نبينا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، ونعته بعض الصحابة في ذكر حيائه عليه الصلاة والسلام قال : «كان أشد حياء من العذراء في خدرها» ، والعذراء التي في الخدر مضرب المثل في الحياء ، وفي كثير من الناس في مثل هذا الزمان العذراء الصغيرة المقبلة على الزواج مضرب المثل في قلة الحياء الآن في كثير من الأماكن إلا من رحم الله ، بينما التي قاربت الزواج تستحي حتى من والدها ، شديدة الحياء ولا يخطر ببالها أن ترى الرجال أو يراها الرجال من شدة حيائها ، والآن ترفع صوتها فوق صوت الرجل ولا تبالي! وتخاطب الرجال والكبار والصغار كأنها رجل .

قال : ((**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ**)) هذا فيه أن الحياء إيمان وهو عمل قلبي ، فأفاد الحديث أن أعمال القلوب أيضاً داخلة في مسمى الإيمان ، أعمال القلوب مثل : الحياء والتوكل والخشية والخوف

والرجاء ونحو ذلك هذه أعمال في القلب وهي من الإيمان وداخلة في مسماه ؛ ولهذا الإيمان يتناول العقائد والأعمال التي تكون في القلب ، ويتناول الأقوال التي تكون باللسان ، ويتناول الأعمال التي تكون بالجوارح .

وهذه الشعب للإيمان أشرت أنها ليست على درجة واحدة ، ولهذا قسَّمها بعض العلماء إلى أقسام ثلاثة من حيث تأثيرها على الإيمان وجوداً وعدماً ، وزيادة ونقصاً ؛ فذكروا أنها تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

- قسم إذا ذهب ذهب الإيمان كليةً وأصبح الإنسان كافراً بالله .
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان الواجب .
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان المستحب.

فهي تنقسم في تأثيرها على الإيمان إلى أقسام ثلاثة : قسم منها إذا فُقد أو انتفى انتفى الإيمان ، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان الواجب ، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان المستحب . والواجب على العبد والمطلوب منه أن يجاهد نفسه في تكمل دينه وتتميم إيمانه والمحافظة عليه عقيدةً وقولاً وعملاً .

قال : ((**وأركانُهُ سِتَّة**)) ؛ الإيمان شعب كثيرة كما تقدم في حديث الشعب ، لكن هذه الشعب الكثيرة للإيمان تقوم وتنبني على أركان ستة ، وهي كما قدمت للإيمان بمثابة الأصول للأشجار والقواعد للبنيان ، وهي : ((**أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**)) ، ثم ذكر الدليل على هذه الأركان الستة من القرآن قال : ((**والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾** ، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**)) .

❖ قوله رحمه الله : ((**وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله**)) هذا الأصل الأول من أصول الإيمان ، وهو أصل أصول الإيمان وأعظمها على الإطلاق ، وبقية أصول الإيمان تبع لهذا الأصل ،كما قال الله تعالى : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، قوله ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ هذا دليل على أن هذه الأصول تبع لأصل الأصول وهو الإيمان بالله جل وعلا . والإيمان بالله: هو الإيمان بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته ؛ ولهذا قال العلماء : أركان الإيمان بالله ثلاثة :

الأول : الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته ؛ بأن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله جل وعلا رب العالمين ، لا رب لهم سواه ولا خالق إلا إياه ولا مدبر إلا هو ، المتصرف، المعطي المانع ، الخافض الرافع، القابض الباسط ، الذي بيده أزمة الأمور .

والركن الثاني للإيمان بالله : الإيمان بوحدانيته في أسمائه وصفاته ؛ بأن تثبت لله جل وعلا الأسماء الحسنى والصفات العلى الثابتة في كتابه وسنة رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وأن تنفي عنه جل وعلا ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ على حد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

❖ والأصل الثاني من أصول الإيمان : الإيمان بالملائكة ؛ ملائكة الله وهم جند لله خلقهم من نور لا يعصون الله جل وعلا ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والواجب الإيمان بهذا الخلق وإن لم نرهم ، واعتقاد وجودهم ، والإيمان بأسمائهم وأوصافهم ووظائفهم ؛ نؤمن بذلك كله في ضوء كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل . ومن حيث الجملة يجب علينا فيما يتعلق بالإيمان بالملائكة أن نؤمن بأربعة أشياء وهي: الأسماء ، والأعداد ، والأوصاف ، والوظائف . فهذه الأربعة إليها يرجع ما يُطلب من العبد الإيمان به تجاه الملائكة ؛ فنؤمن بأسماء الملائكة ، وأعداد الملائكة، ووظائف الملائكة ، وأوصاف الملائكة إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل . يعني إذا فصِّلت لنا أسماء نؤمن بها ؛ جبريل، إسرافيل، ميكائيل . فصلت لنا أعداد نؤمن بها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] هذا عدد نؤمن به . فصلت لنا أوصاف نؤمن بها يقول عليه الصلاة والسلام : ((رأيت جبريل وقد سد الأفق وله ستمئة جناح)) ، ((أذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تخفق فيه الطير سبعمئة سنة)) أي أنه لو طار طير من العاتق إلى شحمة الأذن يحتاج إلى سبعمئة سنة طيران إلى أن يصل إلى شحمة الأذن ، فهذه الأوصاف نؤمن بها .

الوظائف –وظائف الملائكة – نؤمن بها إجمالاً وتفصيلاً ؛ إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل ، وأنهم لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويقوم كل ملك بما وكل إليه على التمام والكمال ؛ فهذا كله نؤمن به ، والإيمان به ركن من أركان الإيمان وأصل من أصول الدين .

❖ والركن الثالث : الإيمان بالكتب؛ أي المنزلة على الرسل، «بالكتب» أي كلها ما علمناه منها وما لا نعلمه، ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥] أي بكل كتاب أنزله الله على أي رسول، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥] فنحن نؤمن بالكتب المنزلة ، نؤمن بأنها وحي الله وتنزيله ، نؤمن بأن الذي تكلم بها هو ربنا جل وعلا ، هي كلامه سبحانه ، نؤمن بها بأنها اشتملت على هداية الخلق وبيان الحق وإرشاد الناس للخير ونهيهم عن الشر والضلال ، نؤمن بأن من آمن بالكتب وحقق ما

جاءت به فهو السعيد ، ومن لم يؤمن بها فهو الخاسر، نؤمن بأن كتب الله جل وعلا متفقة مؤتلفة ليست مختلفة؛ يؤيد بعضها بعضاً ويشهد بعضها لبعض وكلها تدعو إلى الإيمان بالله والإيمان بوحدانية الله جل وعلا أنه المعبود بحق وتدعو إلى هذه الأصول العظيمة والأسس المتينة وقد يكون بينها شيء من الفروقات في الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] ، ونؤمن بأن الكتب المنزلة ختمت بالقرآن ، وكما أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين فالقرآن خاتم الكتب المنزلة ، وكما أنه لا نبي بعده فلا كتاب منزل بعده عليه الصلاة والسلام ، ختمت الكتب بالقرآن الكريم كما أن النبوات ختمت بنبوته عليه الصلاة والسلام .

ونؤمن بالقرآن إيماناً خاصاً ؛ فهو كتاب الهداية لهذه الأمة ، ولا يجوز العمل بالكتب الذي قبله لأنه نسخها ، وهو المهيمن عليها وهو الشاهد لما قبله والمصدق لما بين يديه والناسخ للكتب التي قبله ، وبعد نزول القرآن لا يُعمل إلا بالقرآن ، وبعد بعث مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام لا يُتبع إلا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، قال : ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان حقاً على الله أن يدخله النار)) . نؤمن بالقرآن أنه كتاب هداية ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] نصدق بأخباره ونعمل بأوامره وننتهي عن نواهيه ونهتدي بهداه ، وهو كتاب عز للأمة وسعادة ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] أي بل أنزلناه لتسعد ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] .

❖ والأصل الرابع : الإيمان بالرسل الكرام ؛ رسل الله جل وعلا ، وهم صفوة الخلق وخيارهم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] فهم صفوة الناس اختارهم الله على علم ، وهم صفوة عباد الله وخيارهم ؛ بعثهم الله جل وعلا بالرسالة وجعلهم مبشرين ومنذرين، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

نؤمن بالرسل كلهم بدأ من أولهم إلى خاتمهم نبينا مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه ، نؤمن بأنهم رسل الله وأنهم دعاة الحق والهدى ، وأنهم قادة الأمة وأئمة الهدى ، وأن من اتبعهم وسار على نهجهم سعد في الدين والآخرة ، ومن لم يتبعهم خسر خسراناً مبيناً ، ونؤمن بأنهم ختموا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونؤمن بأنهم متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وأفضل الأنبياء الرسل ، وأفضل

الرسل أولو العزم من الرسل وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، وأفضل أولو العزم من الرسل: مُحَمَّد ﷺ ؛ فهو سيد الأولين والآخرين .

والرسل إنما بعثوا ليطاعوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ؛ ولهذا الإيمان بهم : طاعتهم فيما يأمرون ، والانتهاء عما عنه ينهون ، وتصديقهم فيما يخبرون به ؛ هذا معنى الإيمان بالرسل ، وهو الركن الرابع من أركان الإيمان .

❖ الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر ؛ والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت ، لأن من مات قامت قيامته وبدأت مراحل الدار الآخرة في حقه ، ولهذا أول ما يدرج القبر يبدأ النعيم أو العذاب ، أول ما يدخل قبره يأتيه ملكان ويجلسانه ويقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ، اسمهما المنكر والنكير لأنهما يأتيان على هيئة منكرة غير معهودة ، ويسألان أسئلة محددة ثلاثة : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ ، ولأجل هذا ولأجل النصح في هذا الباب كتب المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة في بيان هذه الأصول : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ نصحاً للعباد ومعذرة إلى الله جل وعلا .

فالإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت ؛ بدً من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، النفخ في الصور ، البعث والنشور ، القيام لرب العالمين ، الحشر ، الميزان ،، الصراط ، الجنة ، النار ؛ كل التفاصيل التي جاءت في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت الإيمان بها هو من الإيمان باليوم الآخر . ومن لم يؤمن باليوم الآخر أو شك فيما يكون فيه من بعث أو نشور أو جنة أو نار أو حساب أو غير ذلك فهو كافر ، قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]، فالبعث والقيام والجزاء والحساب والصراط والدواوين والميزان والجنة والنار كل ذلك حق والإيمان به هو من الإيمان باليوم الآخر وهو ركن من أركان الإيمان .

وكثيراً ما يقرن الله جل وعلا بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر في آيات ، وأيضاً يأتي في السنة ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)) ؛ يُقرن بينهما لأن الله عز وجل هو المقصود ، واليوم الآخر هو اليوم الموعود يوم الجزاء والحساب والعقاب ، فالمقصود هو الله بالعبادة ، ويوم القيامة هو يوم الجزاء والحساب على ذلك .

والناس في الإيمان باليوم الآخر على درجتين : درجة الإيمان الجازم ، ودرجة الإيمان الراسخ . الإيمان الجازم هي الدرجة التي ليس بعدها إلا الشك والكفر ، والإيمان الراسخ هو الإيمان المتمكن بالقلب الذي عُمر القلب به ومليء به وثبت في القلب ثبوتاً ورسخ رسوخاً ، وهذا الإيمان الراسخ هو الذي يؤثر التأثير القوي

في العبد صلاحاً في أعماله واستعداداً ليوم لقائه لربه جل وعلا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧] . فالعبد أعماله وأموره وطاعاته كلها يلقى الله بها ، فإن كان مستحضراً لليوم الآخر زاد في العمل ، قال علي ﷺ : «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة ، ولكل منهما بنون» يعني في أبناء للدنيا وفي أبناء للآخرة « فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغد حساب ولا عمل» .

الحج يذكر باليوم الآخر ولاسيما الوقوف في صعيد عرفة واجتماع الخلق من أنحاء الدنيا وعلى صعيد واحد وفي أرض واحدة أرض منبسطة ؛ فهذا يذكر باليوم الآخر ، يذكر بالوقوف يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا ، والذين يقفون على صعيد عرفات تركوا دنياهم في بلدانهم ، والذين يقفون أمام الله جل وعلا ليس معهم من الدنيا شيء ، ولهذا الذي يرجع من بلده بعد الحج عليه أن يستفيد من هذا الدرس وأن يكون دائماً على ذكر للإيمان باليوم الآخر ، وهذه وصية الله جل وعلا لعباده عند الفراغ من الحج ، عندما تقرأ آيات الحج في سورة البقرة تجد أنها ختمت بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:٢٠٣] ، خذوا هذا الدرس معكم إلى بلدانكم بعد فراغكم من الحج ؛ اعلموا أنكم إليه تحشرون ، مثلما اجتمعتم على صعيد واحد جمعكم رب العالمين من أنحاء الدنيا ستحشرون إلى الله وتقفون أجمعين الأولين والآخرين على صعيد واحد ، وستسألون عما قدمتم في هذه الحياة .

❖ قال رحمه الله : ((**وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**)) وهذا الأصل السادس من أصول الإيمان ، الأصل السادس من أصول الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره ، والقدر قدرة الله ، القدر هو إيمانك أن الأمور بتقدير الله وتدبيره ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:٤٠] ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] ، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:١-٣] ، فالأمور كلها بتقدير الله جل وعلا؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، أحاط علماً بكل شيء ووسعت قدرته كل شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . فمن أصول الإيمان أن تؤمن بالقدر ، قال عليه الصلاة والسلام : ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذقنك» هكذا – وضع كفه على ذقنه – ﷺ قال : حتى وضعك كفك على ذقنك هذا بقدر يعني قدّره الله عليك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف

سنة ، اجتماعنا هذا قدّره الله قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ، كل ما يكون في هذا الكون من حركة وسكون وقيام وقعود وذهاب ورواح وكفر وإيمان وطاعة وعصيان كل ذلك كُتب ((إن الله كتب مقادير الخلائق)) ، وفي القرآن : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، فالله عز وجل كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣] ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] .

فيجب على العبد أن يؤمن بهذا الأصل ومن لم يؤمن بالقدر فهو كافر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «القدر نظام التوحيد» يعني لا ينتظم التوحيد إلا بالإيمان بالقدر ، قال : «الإيمان بالقدر نظام التوحيد ؛ فمن وحد بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» بمعنى أنه لا يكون مؤمناً بالله إلا إذا آمن بأقدار الله سبحانه وتعالى ، ولما قيل لابن عمر رضي الله عنهما عن أقوام يقولون : الأمر أُنف ولا قدر ؛ قال ابن عمر : «أخبرهم أنني بريء منهم وأنهم مني برءاء ، والذي نفسي بيدي لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما تقبله الله منه ما لم يؤمن بالقدر» ، الأعمال كلها لا تقبل؛ الصدقات لا تقبل ، الصلوات لا تقبل ، الحج لا يقبل إذا لم يؤمن بالقدر ، القدر أصل من أصول الإيمان لا يقوم الإيمان إلا عليه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

والعلماء رحمهم الله يقولون : الإيمان بالقدر مراتبه أربعة؛ بمعنى أن من لم يؤمن بهذه المراتب ليس مؤمناً بالقدر . الإيمان بالقدر مراتبه أربعة :

- الأولى : أن تؤمن إيماناً جازماً أن الله أحاط بكل شيء علماً ؛ علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] ، تؤمن بعلم الله المحيط بالمخلوقات كلها دقيقها وصغيرها سرها وعلنها، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] ، خلْقه للمخلوقات دليل على إحاطة علمه بها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] خلقه لهذه المخلوقات دليل على إحاطة علمه تبارك وتعالى بها، فمن لم يؤمن بعلم الله المحيط ليس مؤمناً بهذا الأصل العظيم وليس مؤمناً بالله .

- المرتبة الثانية : الإيمان بالكتابة؛ أن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق كلها في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فجرى القلم كتابةً بما هو كائن إلى يوم القيامة)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) كل مقادير الخلائق كُتبت ، فيؤمن بالكتابة بأن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ .
- المرتبة الثالثة : الإيمان بالمشيئة النافذة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[آل عمران:٤٠] ، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩] ، نؤمن بأن مشيئة الله نافذة في هذا الكون ، وأن قدرته تبارك وتعالى شاملة ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .
- المرتبة الرابعة : الإيمان بأن الله خالق كل شيء ،كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢] وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦] ؛ خالق الذوات والأشخاص وخالق الأفعال والحركات والسكنات ، فأفعال العباد مخلوقة لله مثل ما أن العباد أنفسهم مخلوقون لله تبارك وتعالى ، فالله تبارك وتعالى خالق كل شيء.

هذه مراتب الإيمان بالقدر ومن لم يؤمن بهذه المراتب لا يكون مؤمناً بالقدر . جمعها أحدهم في بيت فقال :

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلْقه وهو إيجاد وتكوين

فهذه مراتب الإيمان بالقدر . قال : ((**وأن تؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ من الله تعالى**)) أي أن الله قدر كل شيء .

الصحابة ﷺ جال في أذهانهم سؤال ، ثار في أذهانهم سؤال ؛ لما علموا هذه الحقيقة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام قالوا : « إذا كانت الأمور كتبت وقدِّرت وكتب الله كل ما قدر ما هو كائن إلا يوم القيامة ففيم العمل؟» في بعض الأحاديث قالوا : «ألا نتكل على الكتاب ؟» مادام كل شيء مكتوب لماذا نعمل ؟ فيم العمل؟ هذا السؤال استفهام واستعلام واستيضاح وطلب للحق . وبعض الناس سؤاله في هذا المقام للاعتراض والانتقاد ، وهذا عين الضلال قال الله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣] إذا كان الإنسان يسأل ويعترض على الله فهذا عين الضلال والعياذ بالله ، أما إذا كان الإنسان يسأل ليستوضح ويتبين ليسير على بينة وعلى هدى فهذا لا بأس به . قالوا : «ففيم العمل ؟» يستفسرون ، قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ فمن كان من أهل السعادة يسَّره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل

الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) . قال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ذكر أمرين والله لا يسعد الإنسان إلا بهما ؛ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

قال : « اعمل » وهذا فيه إشارة إلى أن عندك مشيئة تختار بها طريق الحق وطريق الباطل ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠] ، لك مشيئة ومشيئتك تحت مشيئة الله ، فإذاً ماذا يطلب منك ؟ قال : « اعمل » يعني تحرك ببذل الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية والقربات والبعد عن المحرمات ، واستعن بالله لأنك ميسر لما خلقت له ، اطلب عونك من الله .

ولهذا سعادتك بالأمرين : أن تجاهد نفسك بالأعمال الصالحة ، وفي الوقت نفسه تطلب العون والتوفيق والسداد والهداية والرشاد من الله، لأن الأمر كله بيد الله ، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل)).

فالواجب على العبد أن يكون مؤمناً بهذا الأصل العظيم وبهذا الركن المتين، وأن يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات ، وأن يسأل ربه تبارك وتعالى أن يهديه وأن يثبته وأن يعيذه من زيغ القلوب، كان أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قالت أم سلمة ﵂ قلت : يا رسول الله أو أن القلوب لتتقلب ؟ قال : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)) . ولهذا يجب على العبد أن يكون دائم السؤال لربه أن يثبته ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧].

لما أنهى المصنف رحمه الله ذكر هذه الأركان الستة للإيمان ذكر دليلها من القرآن قال : ((**والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾**)) كم ركن ؟ خمسة أركان ذكرت في هذه الآية ، ولم يذكر القدر لأنه داخل في الإيمان بالله ؛ القدر قدرة الله فهو داخل في الإيمان بالله ، ونُص عليه مفرداً في بعض الآيات كالآية التي ساقها المصنف وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ .فهذه أصول الإيمان اجتمعت في الآية .

قال : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ليس حقيقة البر في التوجه إلى الأمكنة ، حقيقة البر في الطواعية لله والامتثال بحيث إذا وجهك لشيء أو أمرك بشيء امتثلت هذه هي حقيقة البر ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البر طاعة الله وامتثال أمره وتصديق أخباره والإيمان به وبكل ما أمر بالإيمان به ؛ هذه هي حقيقة البر.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فذكر الله تبارك وتعالى أصول الإيمان في هذه الآية مجتمعة ، كما أنه جل وعلا ذكرها مجتمعة في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦] ، وجمعها في الآية ما قبل الأخيرة من سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] كم أصل ذُكر ؟ خمسة أركان ذكرت ، والإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى ، لأن القدر كما قال الإمام أحمد قدرة الله ، والإيمان بالله جل وعلا إيمان بعلمه وإيمان بقدرته وإيمان بمشيئته وإيمان بأنه الخالق جل وعلا ، فالإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ثم أورد رحمه الله تعالى دليلاً مفرداً للإيمان بالقدر من القرآن وهو قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي كل شيء أوجدناه فهو مقدَّر؛ قدره الله وكتبه سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله أنهى الكلام على المرتبة الثانية من مراتب الدين وهي مرتبة الإيمان ، فذكر حديث الشعب ، وذكر أصول الإيمان وذكر الأدلة عليها من كتاب الله تبارك وتعالى .

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله ؛صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ وهو ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١] **الآية.**

****

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، وهو ركنٌ واحدٌ**)) ؛ «المرتبةُ الثالثةُ» أي من مراتب الدين ، وعرفنا سابقاً أن الدين ثلاث مراتب وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وهذه المرتبة هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ثم يليها مرتبة الإيمان ، ثم يليها مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فمرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، فهي مرتبة عليّة ومنزلة رفيعة لا يبلغها كل أحد ، وإنما يبلغها من يسر الله تبارك وتعالى له ووفقه لبلوغ هذه المرتبة .

والإحسان المراد به: الإجادة والإتقان ، وهذه المرتبة – مرتبة الإحسان – المراد بها إيقاع العمل والعبادة على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال في الظاهر والباطن والسر والعلن ؛ فالمحسنون من عباد الله –أهل الإحسان من عباد الله– هم الذين اتقنوا العبادة بحيث أتوا بها ووقعت منهم كاملة من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً سراً وعلناً ؛ وذلك لعظم مراقبتهم لله سبحانه وتعالى في عبادتهم وتقربهم إلى الله جل وعلا ، فهم حالهم في عبادة الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرون الله ، وهذا فيه أنهم بلغوا الرتبة العلية في المراقبة – مراقبة الله في أعمالهم – بحيث تكون قلوبهم حاضرة وشاهدة بعيدة عن الغفلة .

قال : ((**وهو ركنٌ واحدٌ**)) يعني هذا الركن أو هذه المرتبة – مرتبة الإحسان – ركن واحد ، مرّ معنا الإسلام خمسة أركان ، والإيمان ستة أركان ، والإحسان ركن واحد .

((**وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**)) هذه مرتبة الإحسان ؛ أي أتقنوا عملهم وعبادتهم إلى أن صار حالهم في العبادة بهذا الصلاح «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ، وهذا وإن كان ركناً واحداً إلا أن بعض أهل العلم يعدُّه مقامين هي الاستحضار والمراقبة :

- الأول : أن تعبد الله كأنك تراه؛ وهذا أعلى المقامين ، أن يكون في عبادته لله سبحانه وتعالى كأنه يرى الله ، كأنه ينظر إلى الله جل وعلا .
- والمقام الثاني وهو دون هذا المقام وهو من الإحسان في قوله : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ؛ يعني إن لم تبلغ هذه الدرجة أن تعبد الله كأنك تراه فاعبده مستحضراً رؤيته لك وإطلاعه سبحانه وتعالى عليك .

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأدلة من القرآن الكريم على هذه المرتبة ؛ فذكر جملةً من الأدلة بدأها بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ ؛ «اتَّقَوْا»: أي ابتعدوا واجتنبوا كل ما يسخط الله ويغضبه جل وعلا من المعاصي والذنوب ، فكانوا من الذنوب على حذر ، متقين ومبتعدين عن كل أمر يسخط الله جل وعلا . «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» أي في عبادتهم لله ومراقبتهم له جل وعلا وإصلاح حالهم في السر والعلن والغيب والشهادة ، وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى عبادة من يراقبُ الله ويخشاه جل وعلا .

قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ ؛ والآية دلت على فضل الإحسان وعلو مقامه من جهة إثبات معية الله الخاصة للمحسنين ، لأن المعية في مقام المدح والثناء يراد بها المعية الخاصة ؛ وهي تعني : الحفظ والتأييد والنصر والعون ، قال الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠] ، قول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:٤٦] . فالمعية في مثل هذه الآيات معية خاصة ؛ وهي لا تكون إلا لأنبياء الله وعباده المتقين ، وهي تقتضي الحفظ والنصر والعون والتأييد . وفي الحديث القدسي يقول الله جل وعلا : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)) ، معنى : « كنت سمعه ، كنت بصره ، كنت يده» : أن الله يؤيده في سمعه وفي بصره ويكون حافظاً له في حواسّه جل وعلا .

فهذه الآية فيها دلالة على فضيلة الإحسان ، وعظم ثواب المحسنين ، وأن الله سبحانه وتعالى معهم حافظاً وناصراً ومعيناً ومؤيداً .

ثم ذكر رحمه الله الآية الثانية وهي قول الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قوله «وَتَوَكَّلْ»: أي فوض أمورك كلها إلى الله ، واعتمد عليه سبحانه وتعالى وحده في جلب النعماء وفي كشف الضر والبلاء؛ فلا تلجأ إلا إليه ولا تعتمد إلا عليه.

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وفي آيةٍ أخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وهنا قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ .

في الآية الأخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لأن التوكل لجوءٌ واعتماد ولا يكون هذا اللجوء إلا لواحد وهو الحي الذي لا يموت ، أما الحي الذي يموت ، والحي الذي قد مات ، والجماد الذي لا حياة له أصلاً كل هؤلاء لا يُتوكل عليهم ، لا يتوكل إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين لا شريك له ، ومن سوى الله إما حيٌ سيموت أو حيٌ قد مات أو جماد لا حياة له ، وكل هذه الأصناف لا يتوكل عليها ، التوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين سبحانه . وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» ؛ فهذه فائدة عظيمة في باب التوكل والالتجاء والاعتماد والاعتصام لا يكون شيء من ذلك إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت والحي الذي قد مات والجماد الذي لا حياة له كيف يُتوكل على هؤلاء ؟! وكيف يعتمد على هؤلاء ؟!

وهنا في هذه الآية قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ذكر هذين الاسمين في مقام الأمر بالتوكل عليه وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ وذلك لأن المتوكل إما متوكلٌ في دفع ضراء ، أو متوكلٌ في جلب نعماء ، فلا يكون توكله في شيءٍ من ذلك إلا على العزيز الرحيم ، فالعزيز: هو القاهر الذي لا يُغلب ، فإذا لجأت إليه في كشف ضراء وشدةٍ وبلاء فهو جل وعلا عزيز قادرٌ لا يغلب ، وإذا كان توكل عليه في جلب نعماء فهو جل وعلا رحيمٌ بعباده يمنُّ ويعطي ويتفضل ويحسن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي ليكن توكلك على من هذا شأنه ؛ الله جل وعلا .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وهذا موضع الشاهد من الآية لمرتبة الإحسان «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ .

﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي الذي ينظر إليك ويطّلع عليك ولا تخفى عليه منك خافية ، ﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ حين تقوم لله خاشعاً خاضعاً مناجياً سائلاً راغباً طامعاً ؛ يراك جل وعلا ، يراك سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ، ويرى جميع المخلوقات وجميع الكائنات ، لا يفوته شيء ، ولا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء، يرى جميع الكائنات ، يرى سبحانه وتعالى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى جريان الدم في عروقها ويرى كل جزء من أجزائها ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ؛ وهذا فيه دعوة للعبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى مستشعراً رؤية الله له ومحضراً ذلك في قلبه ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عندما تقوم تصلي فاعلم أن الله يراك ؛ يراك حال قيامك ، يراك حال سجودك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ تركع وتسجد وتركع وتسجد هذا التقلب يراك الله جل وعلا على هذه الأحوال كلها ؛ وهذا فيه دعوة لاستحضار هذا الأمر في القيام والركوع والسجود بحيث يكون العبد في صلاته وعبادته يعبد الله كأنه يرى الله ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع للأصوات ، وسع تبارك وتعالى سمعه الأصوات كلها ، لو قام الأولون والآخرون من زمن آدم من الإنس والجن في صعيدٍ واحد ودعوا في لحظةٍ واحدة ، وكلٌ يذكر حاجته، وكلٌ يتكلم بلغته ولهجته ، لسمعهم رب العالمين أجمعين دون أن يختلط عليه صوتٌ بصوت أو حاجةٌ بحاجة أو لغةٌ بلغة . قال جل وعلا في الحديث القدسي وهو في صحيح مسلم : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في اليمّ)) أي في البحر . جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام في بيته تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله ، وذلك عندما ظاهرها زوجها قال : «أنت عليّ كظهر أمي» ولها منه أولاد ، فجاءت حزينة متألمة تجادل النبي ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله ، فكانت تكلمه في مصيبتها ، وعائشة رضي الله عنها في البيت تقول : «كنت أسمع بعض الكلام ويفوتني بعضه» ، وبمجرد أن تنتهي من الحديث مع النبي ﷺ ينزل قول الله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] قالت عائشة رضي الله عنها على إثر ذلك : «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات» .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي بعلمٍ واسع ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[غافر:٧] ، أحاط بجميع الأمور وأحاط بجميع الأشياء ، أحاط جل وعلا بكل شيءٍ علماً وأحصى كل شيء عدداً . علم جل وعلا ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ليس فقط ما سيكون! بل الأشياء التي لا تكون علم الله سبحانه وتعالى أمرها لو كانت كيف تكون ، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٨] هذا أمرٌ لا يكون ، الكفار يوم القيامة لا يردون إلى الدنيا مرةً ثانية ، هذا أمرٌ لا يكون ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦] ولا يردون إلى الدنيا مرة ثانية هذا شيءٌ لا يكون ، والله جل وعلا يقول : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ؛ يعني لو أعادهم جل وعلا إلى الدنيا مرة ثانية لعادوا إلى الشرك والكفر ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ، أمرٌ لا يكون لكن رب العالمين علم جل وعلا لو كان هذا الأمر كيف يكون . فهو علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ، أحاط بكل شيء علماً .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هنا تستشعر أثر معرفة العبد أسماء الله وصفاته في تحقيق العبادة وتكميلها ؛ فإذا استحضر العبد أن الله سميع وأنه بصير وأنه عليم ، وهذه الأمور الثلاثة ذكرت في الآية –البصير، السميع، العليم– البصير في قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ، والسميع العليم خُتمت بهما الآية . فاستحضار هذه الأسماء وما تدل عليه من الصفات : البصير ، السميع، العليم ، استحضار العبد لها في صلاته يرفعه في صلاته إلى درجة الإحسان في عبادته وتقربه إلى الله جل وعلا ، وإذا ذهب عنه استحضار هذه الأسماء استولت عليه الغفلة سواء في صلاته أو في غيرها من العبادات .

قال : ((**وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**)) وهذه فيها معنى الآية السابقة ؛ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في أيّ شان من شؤونك وأمرٍ من أمورك وحالٍ من أحوالك ، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي ما تتلوا شيئاً من هذا الكتاب في أي وقتٍ وفي أي ساعةٍ وفي أي لحظة ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي لا تدخلون في أي عمل من الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إذ تدخلون وتشرعون فيه . فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ ؛ لا يدخل العبد في عمل ولا يشرع في طاعة ولا في أي شأنٍ من الشؤون ولا حال من الأحوال إلا والله جل وعلا شهيد ، وهو على كل شيءٍ شهيد جل وعلا ؛ أي مطلع لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية .

فهذه الآيات تأملها والوقوف عند مضامينها ودلالاتها يعين العبد بإذن الله تبارك وتعالى للترقي لبلوغ الإحسان في عبادته والإتقان في طاعته وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى .

ولما أنهى المصنف رحمه الله مراتب الدين الثلاثة وذكر أركان كلٍّ مرتبة وذكر الدليل على ذلك كله من القرآن ، ختم ذلك بذكر حديث جبريل المشهور الذي جمع فيه النبي عليه الصلاة والسلام مراتب الدين كلها .

قال :

والدليلُ مِنَ السُّنَّة حديثُ جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد، حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه، وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام. فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الإِسْلاَمُ أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا))، قال: صَدَقْتَ. فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: ((أنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ((أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة؟ قال: ((مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قال: ((أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)). قال: فَمَضَى فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: ((يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟)) قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: ((هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ)).

****

أورد رحمه الله تعالى هنا هذا الحديث العظيم المشهور بـ«حديث جبريل» ؛ وذلك لأن جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة وهو الملك الذي ينزل بالوحي إلى النبي ﷺ الروح الأمين جاء إلى النبي ﷺ في هذه المرة بصورة أعرابيّ – بصورة رجل – فجلس إلى النبي عليه الصلاة والسلام هذه الجلسة وسأله هذه الأسئلة ؛ ولهذا اشتُهر هذا الحديث بـ«حديث جبريل» ؛ لأنه جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الصورة وجاء معلماً ، وإن كان هو في الحقيقة سائلاً لكنه سائل في صورة متعلم . ولهذا أخذ أهل العلم من هذا فائدة في باب الأسئلة ألا وهي: أن السائل أحياناً يستطيع أن يكون معلماً للناس ، مثل أن يكون في المجلس عالم ويحس أحد الحاضرين بمسألة يحتاج الجميع أن تُبين لهم أو مسائل ؛ فيطرحها وهو يعرف الجواب ولكن يريد

أن يستفيد الجميع ، فيكون في الحقيقة سائل ، لكن في الواقع معلم يريد أن يتعلم الناس ، وله أجره على إحسانه وحرصه . بينما بعض المجالس قد يأتي فيها العالم الذي يستفاد منه فيضيعها بعض الناس ، يضيعها على الناس دون استفادة ، أو بأسئلةٍ لا يكون من ورائها طائل أو لا تفيد الحاضرين .

فالسؤال أمرٌ يحتاج إلى حسن نية وحسن قصد في طلب الفائدة وصدق مع الله تبارك وتعالى في الرغبة ، مثل قول وفد عبد القيس للنبي عليه الصلاة والسلام : « مُرنا بقول فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة » وهذا يبين متى يكون السؤال صالحاً حسناً ، قال : «مرنا بقول فصلٍ نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة» ؛ إذا كان السائل يقصد بسؤاله أن يدخل الجنة بمعرفة الخير والعلم ويخبر الآخرين لينتشر الخير والعلم. فالشاهد أن هذا الحديث فيه فائدة عظيمة في هذا الجانب .

قال عمر ﷺ : « **بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذا طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد**» ؛ هذا الأمر بهذه الصفة في زمنهم ووقتهم يعدُّ أمراً في غاية الغرابة ، أما في زماننا ليس أمراً مستغرباً ، في زماننا قد يأتيك الرجل من أقصى الدنيا ولا ترى عليه أثر السفر ، لا ترى عليه وهج الصحراء ولا لفح الرياح ولا الشمس ولا ترى عليه أثر التراب والغبار ، ما ترى عليه شيئاً من ذلك ، بينما في وقتهم المسافر يُعرف أنه شخص جاء مسافراً ؛ لأن الغبار يملأ الجسم ، والشمس أثرت في الجسم، والرياح أيضاً أثرت فيُعرف أن هذا الشخص مسافر .

فجاءهم شخص شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر ؛ المسافر لا يمكن أن يأتي في وقتهم بمثل هذه الهيئة ، قال : « لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد » ؛ غريب جداً لا يرى عليه أثر السفر ، أي علامة من علامات السفر المعهودة لا ترى عليه ، وأيضاً ليس أحد يعرفه ، يعني ليس من أهل المدينة رجل جاء مسافراً ليس من أهل المدينة ، ومع هذا جاء بهذه الهيئة وبهذه الصفة .

وهنا يا إخوان يحسن بنا أن نذكر نعمة الله علينا بوسائل النقل الحديثة التي يسرها الله جل وعلا في هذا الزمان ، وإذا تأملت في هذه الوسائل مقارناً بالوسائل القديمة تجد أن الحاج لا يصل من بعض البلدان البعيدة إلا بعد الشهر والشهرين في معاناة وشدة ، وأهله يودعونه توديع من لا يعود ، فيه مخاطر ومخاوف ومهالك وأخطار متعددة ، والآن يركب في مركبٍ مريح وأجواءٍ مكيفة يمر بالعواصف والرياح ولا يشعر بها ولا يدري عنها إلى أن يصل المكان الذي يريد ، وفي الطريق كلما أراد أن يكلم أهله كلمهم ، وكلما أرادوا أن يكلموه يكلمونه ، "وصلنا إلى هنا ، أتينا إلى هنا ،أنا بخير أنا بعافية" ، بينما قديماً يغيب الشهر والشهرين والثلاثة ليحج ولا يدري أهله هل هو حيٌ أو ميت إلا إذا فاجأهم راجعاً ، والآن النعمة بسهولة المواصلات وتيسرها يحج من أقصى الدنيا في خلال سبعة أيام بما فيها أيام الحج ، بينما في وقتٍ من

الأوقات بعض المناطق ما يصل إلا بالشهرين أو الثلاثة ، يأتون من بعض الدول بالسفن الشراعية ثلاثة أشهر بعضهم في السفينة حتى يصل ، ثلاثة أشهر قادم وثلاثة أشهر راجع، وبعض كبار السن أدركوا هذه المعاناة وأخبروا عنها وتحدثوا عن أسفارهم ومعاناتهم .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يحرص على استعمال هذه النعم والوسائل في طاعة الله وفيما يقرب الله إلى الله سبحانه وتعالى ، الآن أنعم الله سبحانه وتعالى بالجوال في الجيب يحمله وهي نعمة عظيمة يطمئن على أهله ويطمئنون عليه ، ومع ذلك بعض الذين يحملون الجوالات ما يتقون الله في مساجد المسلمين ، ولا يراعون حرمة المساجد التي هي أحب الأماكن إلى الله ، ولا يراعون حرمة الصلاة ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] ، ولا يرعون للمؤمن مكانته والمصلي صلاته وخشوعه ؛ ولهذا ترى دائماً في مساجد المسلمين الناس يصلون ثم تضرب الموسيقى هنا وهناك داخل المساجد، هل هذا فعل من يتقي الله ويخاف الله جل وعلا ويراقب الله ؟! تُضرب الموسيقى والمعازف المحرمة في مساجد المسلمين ؟! المسلمون في صلاتهم سجّد وركّع ثم تضرب الموسيقى! وتستمر تضرب في إيذاءٍ شديد وتفويتٍ للطاعة والعبادة والخشوع وأذيةٍ لعباد الله تبارك وتعالى في صلاتهم، فهل هؤلاء قدروا نعمة الله حق قدرها ؟

قل مثل هذا أيضاً في وسائل النقل يكرم الله سبحانه وتعالى عبده بسيارةٍ طيبةٍ جيدة يتنقل فيها ، ثم يمشي فيها إلى المحرمات! ويستمع فيها للمحرمات! هل رعى لنعمة الله حقها ؟ قال : ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل:١٩] .

فينبغي للعبد أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يشكر الله على النعمة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] ، وأن يحرص على استعمال النعمة في طاعة الله ؛ فهذا من شكرها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] ، مِن شكر الله على النعمة أن تستعمل النعمة في طاعة الله ، فإن استعمل الإنسان النعمة في معصية الله لم يشكر الله جل وعلا على نعمته .

قال : ((**حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه**)) أي جلس جلسةَ أدبٍ ووقارٍ واحترام بين يدي الرسول الكريم ﷺ .

((**وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام، قال : أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَدَا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**)) فذكر مباني الإسلام الخمسة وقد تقدمت معنا وتقدم أيضاً شيءٌ من الكلام على مضامينها ومعانيها .

فقال الرجل السائل الذي هو جبريل قال : ((**صَدَقْتَ. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُه!**)) هذا أيضاً أمرٌ عجيب ؛ تعجَّبوا من الأمر الأول وتعجَّبوا هنا من هذا الأمر؛ يسأل ويصدِّق ، والذي يصدق من هو؟ الأعلم ، الذي يصدق الأعلم ، ولهذا جاء في بعض الروايات : «كأنه أعلم منه» ، ((فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه!) يجيب النبي عليه الصلاة والسلام على سؤاله ويقول : صدقت ، فتعجب الصحابة ﷺ من ذلك لأن هذه تدل على علم عند هذا السائل ، أما من لا علم له لا يستطيع أن يحكم أو يقول مثل هذا .

((**قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قال: صدقت**)) وهذه أركان الإيمان الستة ومضى أيضاً الكلام على معانيها .

((**قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكْ**)) ذكر هنا الإحسان وأن له ركن واحد وهو: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكْ . ومضى أيضاً الكلام على هذه المرتبة. ويكون بهذا ذُكر في الحديث المراتب الثلاثة للدين ؛ الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، وأعلى هذه المراتب الإحسان وهي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ومن كان محسناً فهو مؤمنٌ مسلم ، ومن كان مؤمناً فهو مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ولا كل مؤمن محسناً ؛ فهذه درجات متفاوتة تُعرف من خلال هذا الحديث العظيم .

وهذه الأمور الثلاثة –الإسلام والإيمان والإحسان– هي ديننا ؛ ولهذا ختم النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بقوله : ((**هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ دِينَكُمْ**)) هذا ديننا ؛ ديننا مراتبٌ ثلاث: إسلامٌ وإيمانٌ وإحسان .

((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) وجاء في بعض الروايات : «متى الساعة ؟ متى وقت الساعة ؟» ، ((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) أي عن وقتها .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) أي علم الساعة ليس عندي ولا عندك وإنما عند الله جل وعلا ، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣] ، فالساعة علمها عند رب العالمين، ولا يعلم قيامها إلا رب العالمين جل وعلا ، علمها عند الله .

قال : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) بهذا أجاب عليه الصلاة والسلام جبريل ، وجاءه في حديث آخر رجل وقال سائلاً النبي ﷺ : متى الساعة ؟ ماذا قال له ؟ قال : ((ماذا أعددت لها)) ؛ وهذا فيه أن السائل إذا سأل في أمر لا يعنيه أو لا يحسن به أن يسأل عنه فالمناسب أن يوجَّه إلى السؤال المناسب ، فإذا قال : متى الساعة ؟ يوجه إلى السؤال المناسب وهو الاستعداد للساعة هذا هو المهم ، المهم

الاستعداد ، الساعة آتية لا ريب فيها ، قادمة لا محالة ، فليس المهم أن تعرف متى الساعة المهم أن تستعد للساعة .

وبعضهم يضرب مثالاً لهذا تقريبياً للتوضيح يقول : لو كان أناس في بلدة وأقبل عليهم عدو يريد مداهمة البلد الذي هم فيه ، وجاءهم رجل قال : العدو وصل ، جاء العدو ، العدو آتي وصل قادم عليكم ؛ فانقسموا فريقين فريق أخذ يستعد ويتهيأ ويتجهز للملاقاة ، والآخرين جلسوا بدون عمل ؛ متى يصل ؟ وين المسافة ؟ كم باقي؟ وجالسين بدون عمل!! فالسؤال الصحيح في مثل هذا المقام هو الاستعداد ، سواء أن تأتي الساعة غداً أو بعد غدٍ أو بعد سنة أو أقل أو أكثر المهم هو الاستعداد والتهيؤ ، أن يستعد ويتهيأ ، قال : ((ماذا أعددت لها ؟)) قال : ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله ، قال : ((أنت مع من أحببت)) ، قال أنس راوي الحديث : «ما فرحنا بشيء بعد فرحنا بالإسلام مثل فرحنا بهذا الحديث» ، قال أنس: «وأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر وأرجو الله جل وعلا أن يجعلني معهم وإن لم أبلغ مثل عملهم» ؛ وهذا فيه فضيلة حب أنبياء الله وعباد الله والصحابة الكرام وأنه يبلغ بالإنسان مبلغاً عظيماً في الرفعة والخير ورضا الله سبحانه وتعالى عنه ، قال : ((أنت مع من أحببت)) .

قال : ((**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**)) الأمارات: العلامات ، أمارة: أي علامة ، أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا: أي أخبرني عن علاماتها أشراطها ، ما هي العلامات – علامات الساعة – ؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا**)) ربتها : أي سيدتها ، وهذا قيل في معناه أقوال منها: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها ، هذا من المعاني التي قيلت وقيل غير ذلك .

قال : ((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ)) الحفاة : الذي ليس عندهم نعال للفقر والعوز والحاجة ، والعراة: يعني ليس عندهم لباس ، أو يكون عندهم لباس لا يكفي ولا يستر ولا يفي من شدة الفقر .

((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ)) أي الفقراء ((رِعاءَ الشَّاءِ)) يعني الواحد منهم ليس معه إلا قليل من الأغنام يرعاها ويقتات هو وأهله وولده ، أغنام قليلة عند هذا الذي يملك

((أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)) أي يتنافسون أيهم أطول بناءً من الآخر ، هذا يبني أدوار وهذا يأتي بجنبه ويبني أعلى والآخر يبني أعلى ، يتنافسون من الأطول والأرفع بناءً،يتطاولون في البنيان.

قال : ((**فَمَضَى**)) أي ذهب ، هذا الرجل الغريب ذهب .

((**فَلَبِثنا مَلِيا**)) أي بقينا زمناً ووقتاً ، وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ أمرهم بطلب الرجل بالبحث عنه فلم يجدوا له أثر .

قال : ((**فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**)) هل تدري من هذا الرجل الذي جاء وجلس وسأل تلك السؤالات ؟ أتدري من السائل ؟

(**قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: هذا جِبْرِيلُ**)) السائل جبريل

((**هذا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ**)) جاء يعلمكم الدين . فالحديث تعليم الدين ، هذا الحديث حديث تعليم الدين وقد جُمع فيه الدين بمراتبه وذكرت الأركان لكل مرتبة وبينت أحسن بيان ؛ فهو حديثٌ مشتملٌ على بيان أمر الدين ، وهو جامع ومن أجمع الأحاديث في هذا الباب ، ولهذا كان بعض أهل العلم يطلق على هذا الحديث «أمّ السنة» نظيراً للفاتحة في القرآن يقال لها «أم القرآن»؛ وذلك لأنها أجملت ما فُصِّل في القرآن ، وهذا الحديث أجمل ما فُصّل في السنة ، ولهذا أطلق عليه بعض أهل السنة «أم السنة» لأنه حديث جامع جمع فيه النبي ﷺ الدين . والحديث ينبغي أن يُعنى به كل مسلم حفظاً ومذاكرةً ومراجعة فهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ نافع .

ثم بعد ذلك دخل المصنف رحمه الله تعالى في بيان الأصل الثالث في معرفة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولعلنا نكتفي بهذا القدر . والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ، وله مِنَ العُمْرِ ثلاثٌ وسِتُّونَ سنةً؛ منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا ورسولا، نُبِّئَ بِـ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»، وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة ، بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧] **ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها . أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.**

****

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ((**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ هذا الأصل الثالث من أصول الإيمان ، وعرفنا أن أصول الإيمان ثلاثة: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم .

وهذا الأصل له أهمية عظمى ومكانة عليا ؛ لأن معرفة العبد لله ومعرفة العبد بدين الله جل وعلا لا تكون ولا تتم ولا تتهيأ إلا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا من لم يعرف الرسول ﷺ لا يعرف الله ولا يعرف دينه ، لأنه عليه الصلاة والسلام واسطةٌ بين الله جل وعلا وبين عباده في إبلاغ دينه ، وهكذا كل الرسل وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ الدين ؛ يتنزل عليهم الوحي من الله جل وعلا ويبلغون ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[النور:٥٤] ، فالرسل واسطة في بلاغ الدين ، لأن حكمة الله

جل وعلا لما خلق الخلق ليعبدوه اقتضت أن لا ينزل الوحي على الناس أجمعين ، أن لا ينزل الملائكة بالوحي على الناس أجمعين ، وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يصطفي جل وعلا من الناس رسلاً ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] ؛ فهو جل وعلا يصطفي من الناس صفوتهم وخيارهم ليكونوا رسلاً بينه وبين عباده في إبلاغ دينه يبلغون دين الله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٦٧] مهمتهم هذه البلاغ إبلاغ دين الله ؛ وهذه مهمة المرسَل ، المرسَل : هو من يقوم بإبلاغ ما أرسله به مرسِله .

فالرسل يبلغون دين الله وهم واسطة بين الله جل وعلا وبين العباد في إبلاغ الدين ، ولهذا ليس هناك سبيل لمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأوامره ونواهيه ومعرفة دينه وشرعه إلا من طريق الرسل ، والرسل سبيلهم في هذه المعرفة الوحي ، قال الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فيُنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على أنبيائه ورسله ثم هم يبلغون وحي الله وتنزيله إلى الناس ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] فالرسل هذه مهمتهم ؛ وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ دين الله جل وعلا .

وهذا يبين لنا أهمية معرفة الرسول وأن من لم يعرف الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعرف ربه ولا يعرف دينه ، ولا يعرف كيف ينال رضا ربه ، وكيف يفوز بثوابه ، وكيف ينجو من سخطه ومن عقابه ، لا يعرف ذلك إلا من طريق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فالطريق إلى الهدى والحق مسدود إلا من طريق الرسول ﷺ . وإذاً فمعرفة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان وأساسٌ من أسس الدين ، بمعنى أن الدين لا يمكن أن يقوم إلا بمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو واسطة بين الله وبين العباد في معرفة دين الله وأمره ونهيه وأسمائه وصفاته ؛ هذه كلها إنما تُعرف من طريق الرسول ﷺ .

ولهذا فإن حاجة الناس وضرورتهم إلى المعرفة بالرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والماء والهواء وغير ذلك؛ لأن إذا انحبس عن العبد الطعام والشراب فإنه يموت ويفارق هذه الحياة الدنيا ، لكن إذا لم يفُز بالوحي ولم يكن من أهل إتباع الوحي فإنه يبوء بعذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة . فحاجة العبد وضرورته إلى معرفة الرسل ومعرفة ما جاءوا به وإتباع سبيلهم أشد الحاجات وأعظم الضرورات ؛ ولهذا قال

رحمه الله : ((ال**أصلُ الثالثُ**)) ، وسبق أيضاً أن أشرت إلى جملة من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي جمعت هذه الأصول الثلاثة ؛ معرفة الله ومعرفة دينه ومعرفة نبيه ﷺ .

والناس أجمعين يوم يقومون بين يدي رب العالمين يوم القيامة يُسألون عن الرسل ؛ فثمة سؤال يوجَّه للناس أجمعين يوم القيامة : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٦٥] ، كما أنهم يسألون أيضاً : «ماذا كنتم تعبدون» الأول قوله: «ماذا كنتم تعبدون» سؤال عن الإخلاص والتوحيد ، وقوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ سؤالٌ عن الإقتداء والمتابعة وسلوك سبيل الأنبياء والمرسلين ؛ لأنه لا يُعبد إلا الله ، ولا يُعبد الله إلا بما جاء عن رسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ((**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ وهذه المعرفة تتناول جوانب حياته عليه الصلاة والسلام ؛ بمعرفة نسبه وحسبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه ، ومعرفة نشأته ، ومعرفة سيرته ومتى نبئ ومتى أرسل ومتى هاجر ، ومعرفة جهاده في سبيل الله ، وأعظم ما ينبغي أن يُعرف في هذا الباب معرفة ما يدعو إليه وما ينهى عنه وما يأمر به ، وأعظم ما أمر به عليه الصلاة والسلام توحيد الله ، وأعظم ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه الشرك بالله عز وجل .

والمصنف رحمه الله ذكر هنا خلاصةً نافعة وزبداً مفيد في باب معرفة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ بدأ أولاً بذكر نسبه ﷺ قال : ((**وهو مُحَمَّد**)) ؛ وهو عليه الصلاة والسلام له أسماء كثيرة وكل أسمائه دالة على معاني وعلى مسميات وعلى صفاتٍ فيه عليه الصلاة والسلام ، و«مُحَمَّد» هذا الاسم يدل على ما كان عليه ﷺ من الحمد لله جل وعلا وما كان عليه أيضاً من صفات الخير والوفاء والصدق والأمانة وغير ذلك صلوات الله وسلامه عليه . وقد ذكره الله جل وعلا بهذا الاسم في مواضع من القرآن ، مثل قوله جل وعلا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح:٢٩] وقوله : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[الأحزاب:٤٠] وآيات في القرآن يذكر فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا الاسم العظيم .

قال : ((**وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ**)) وقد اصطفاه الله جل وعلا من خير الناس حسباً ونسباً ، والأنبياء يبعثون في أشرف الناس حسباً ونسباً وأعلاهم مكانةً وصفاتاً في الخير والنبل ، وقد جاء في صحيح مسلم عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب)) إسماعيل أي ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى

من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا خيارٌ من خيار)) أي من خيار الناس نسباً وحسباً وأصلاً صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث في هذا المعنى عديدة تبين فضل نسبه وحسبه عليه الصلاة والسلام ، وأيضاً ما تميز به ﷺ من النشأةِ المباركة ؛ بأن نشأ على الصدق وعلى الأمانة ، وعلى البغض للأصنام والأوثان والأزلام وغير ذلك ، وعلى بقائه على سلامة الفطرة ولم يدخل في شيءٍ من دين قومه ﷺ ، قد جاء عن الإمام أحمد أنه قال : «من زعم أن مُحَمَّداً ﷺ كان على شيءٍ من دين قومه فقد أعظم على الله الفرية»؛ فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن على شيءٍ من دين قومه . وقول الله سبحانه وتعالى في سورة الضحى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى:٧] ، ليس المراد بقوله «ضالاً» أي على دين قومك كما قد يسيء البعض فهم هذه الآية، وإنما المراد «ضالاً» أي عن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام ، فلم يعرف عليه الصلاة والسلام منها شيئاً إلا بعد أن نزل عليه وحي الله جل وعلا ، وهذا يدل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢].

قال : ((**وله مِنَ العُمْرِ: ثلاثٌ وستُّونَ سنةً**)) أي عمره عليه الصلاة والسلام ومدة حياته هو هذا ؛ ثلاث وستون سنة ، عاش ﷺ هذه المدة ثلاث وستون سنة ، وأخبر أن أعمار أمته ما بين الستين إلى السبعين، وكان هو عليه الصلاة والسلام ثلاث وستين سنة صلوات الله وسلامه عليه .

ثلاث وستون سنة؛ أربعون منها قبل النبوة كما قال المصنف رحمه الله : ((**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ**)) فهو عليه الصلاة والسلام لم ينبأ إلا بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ؛ حينئذ نبئ ، ومعنى ذلك أن أربع وثلاثين سنة من حياته وعمره صلوات الله وسلامه عليه كل ذلكم كان قبل النبوة ، أربعين سنة كلها كانت قبل النبوة قبل أن ينبأ ، وهو عليه الصلاة والسلام عاشها عيشاً كريماً متصفاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة ، مشهوراً في قومه بالصدق والأمانة والبعد عن جميع صفات السوء وأخلاق السوء وتعاملات السوء ، بعيداً عن ذلك عليه الصلاة والسلام كله مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي تكثر فيه الضلالات وخيَّم فيه الباطل وتنوعت فيه في الناس الضلالات والأهواء والباطل! لكن ربه سبحانه وتعالى حماه وصانه ، ولم يدخل في حياته في شيءٍ من دين قومه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا رسولا**))؛ ثلاثٌ وعشرون أي من عمره كان عليه الصلاة والسلام نبياً رسولاً ، وهذه الثلاث والعشرون مقسومة بين مكة والمدينة ؛ ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة ، فهذه حياته أو تقسيم حياته ؛ أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون سنة نبياً

ورسولاً ، ومدة رسالته عليه الصلاة والسلام منذ أرسل إلى أن مات مقسومة بين مكة والمدينة ، مكث في مكة ثلاثة عشرة سنة وفي المدينة عشر سنوات .

قال : ((نُبِّئَ بِـ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»)) ؛ نُبِّئَ بِـ «اقرأ»: أي أول ما نزل عليه الوحي وبدأ عليه الوحي بأن نزل عليه صدر سورة «أقرأ» ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:١-٤] ؛ فكان عليه الصلاة والسلام في الغار يتحنث فجاء جبريل ونزل عليه وقال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، هو عليه الصلاة والسالم نبيٌ أمي ، نشأ عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب ،قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فنزلت عليه هذه الآيات وبها نبئ ، و«نبئ»: أي صار نبياً ؛ من النبأ الذي هو الخبر ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣] أي من أخبرك وأعلمك وأطلعك؟ فهو عليه الصلاة والسلام نبئ بـ «أقرأ»: أي أول ما بدأه الوحي وأصبح نبياً بأن نزلت عليه هذه الآيات ، وهو في هذه اللحظات نبئ وجاءه الوحي ولكن لم يؤمر بالبلاغ ، لم يُبعث إلى قومه بعد وإنما نبئ وتنزل عليه وحي الله والتقى بملك الله جبريل عليه السلام لكنه لم يؤمر بالبلاغ ، فرجع إلى بيته عليه الصلاة والسلام وهو يرعد ويقول لزوجه خديجة ﵂ : ((دثريني)) أي غطيني بالدثار، فغطته وذكرت له ما هو عليه من الأخلاق والسجايا والآداب والطباع الكريمة وقالت : «لا يضيعك الله ولا يخيبك الله» .

فنبئ بهذه الآيات «أقرأ» ، وأرسل بالمدثر كما قال المصنف : ((وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»)) أي بسورة المدثر ، وسيأتي عند المصنف الآيات مع شرحها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ حينها أُمر بالنذارة وبعث إلى قومه . وعندما نزلت عليه أقرأ أنقطع الوحي ولبث وقتاً ثم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وبعدها تتابع عليه صلوات الله وسلامه عليه الوحي .

قال : ((**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**))؛ بلدُهُ: أي التي وُلد فيها ونشأ فيها حياته هي مكة ، فهو عليه الصلاة والسلام ولد في مكة ونشأ في مكة ، أمضى حياته ونشأته في مكة ؛ اللهم إلا الوقت الذي كان عند المرضعة السعدية في البريّة وإلا حياته أمضاها عليه الصلاة والسلام منذ ولد في مكة .

قال : ((**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**)) عرفنا أن هجرته إلى المدينة بعد ثلاث وخمسين سنة من عمره حيث عاش في المدينة عشر سنوات صلوات الله وسلامه عليه ، قال : ((وهاجر إلى المدينة)) وسيأتي كلام المصنف رحمه الله تعالى عن الهجرة وما يتعلق بها .

قال : ((**بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)) ؛ بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ: أي بإنذار قومه وتحذيرهم من الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب وأشد الموبقات وأكبر الكبائر وأعظم الجرائم والآثام ، فبُعث بالنذارة من الشرك ، وبالدعوة إلى التوحيد؛ وهو أول شيء بدأ به قومه عليه الصلاة والسلام ، فقومه لم يسمعوا منه في بدأ دعوته إلا الدعوة إلى التوحيد ، بل مكث عليه الصلاة والسلام منذ بُعث عشر سنوات وهو لا يدعو إلا إلى التوحيد ، عشر سنوات لا يسمعون منه إلا التحذير من الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وهكذا شأن الأنبياء والرسل قبله عليه الصلاة والسلام أول ما يقرع سمع أقوامهم منهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، ونبينا عليه الصلاة والسلام أولُ شيءٍ سمعه قومه منه : ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، والقوم يعرفون معنى «لا إله إلا الله» وأنها تعني البراءة من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله ل وعلا ، ولهذا لما قال لهم ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥] ، وأيضاً قال تعالى : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾[ص:٦] ، عرفوا أن «لا إله إلا الله» تعني نبذ الآلهة وبطلان عبادتها وأن العبادة حقٌ لله سبحانه وتعالى ، عرفوا معنى هذه الكلمة ومدلولها . فهو عليه الصلاة والسلام أولُ ما بدأَ قومه به من الدعوة : الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ؛ ينذرهم من الشرك ومن عبادةِ الأصنام ويبين لهم أنها باطلة ، وقام بهذا الأمر أتم قيام عليه الصلاة والسلام ؛ ينذر قومه من الشرك ومن عبادة الأصنام ، قال الله جل وعلا : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤] فكان هو هذا شأنه .

ولك هنا أن تتأمل في شدة هذا الأمر ؛ يعني هو في مجتمع الشرك فيه مخيم ، والضلال مغطي المجتمع بأسره، والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) ، والجميع كلهم خَيّم عليهم الضلال والباطل أشد تخييم ، فبُعث عليه الصلاة والسلام في هؤلاء وحيداً ، وبُعث في شيءٍ مُصادم لعقائدهم، لنحَلهم ، لأهوائهم ، لطرائقهم ، لعقائد آبائهم مصادم تماماً ؛ وهذا من أصعب ما يكون ، يأتي إلى المجتمع مصادماً لكل ما عليه المجتمع ، وكل ما نشأ عليه المجتمع وعلى عقائد الآباء والأجداد ، ولما أمره الله سبحانه وتعالى مضى بكل ثباتٍ وعزيمة مبلغاً يغشى أنديتهم وتجمعاتهم وبناديهم بأسمائهم وبعشائرهم وقبائلهم؛ ((إني رسول الله إليكم جميعا)) ، ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ويبدي ويعيد ، مضى سنوات عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى توحيد الله . سفّهه قومه وجهّلوه ، ورموه بالجنون ، ورموه بالكهانة والسحر ، ورموه بكل عظيمة ، وحذَّروا منه وبثّوا حوله الدعايات المغرضة ، وآذوه عليه الصلاة والسلام الأذى الشديد ، وكان الناس في شوارع مكة

يهتفون بكل قادم : إن مُحَمَّداً مجنون، إن مُحَمَّداً كذا، إن مُحَمَّداً كذا ؛ دعاية مكثفة ضده عليه الصلاة والسلام وضد دعوته وهو صابر كما صبر أولو العزم من الرسل ، داعي إلى الله : ((يا قوم ، يا قوم ، يا قوم)) يدعو ويكرر ويبدي ويعيد ، يؤذى فيصبر ، وأشتد أذاهم عليه وهو صابر ولم يثنه ذلك عن المضي في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إلى أن أخرجه قومه من بلده وتمالؤا على قتله عليه الصلاة والسلام ودبَّروا مؤامرةً لقتله في فراشه ليلاً ، وفي ذاك الوقت هاجر عليه الصلاة والسلام وخرج من مكة ، خرج من مكة ليس برغبةٍ منه بالخروج عن هذا البلد ولكن لأن قومه أشتد أذاهم عليه في هذا البلد وتمالؤا على قتله والإجهاز عليه والقضاء عليه .

ثم مع هذا العداء الشديد والكيد والتآمر على قتله جعل علياً ﷺ على فراشه ومضى وخرج متسللاً ليلا مع أبي بكر الصديق صاحب النبي ﷺ ، وأمر علياً أن يعيد الأمانات ، كان رجلاً معروفاً بالأمانة، وكان قومه إن خافوا على شيء لا يجدون أحداً مثله يأتمنونه ؛ فكانوا يضعون عنده الأمانات والودائع معروف عندهم بالأمين ، فأمر علي أن يعيد الأمانات إلى أصحابها ، ما قال هؤلاء عادوني وآذوني وأخرجوني من بلدي ولا يستحقون من يحفظ لهم أمانتهم وأنا أوذيت ، لم يتأول لنفسه شيئاً ؛ أعاد الأمانات كاملة إلى أصحابها وخرج عليه الصلاة والسلام مهاجراً إلى المدينة .

قال : ((**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**)) مكة مكث فيها بعد أن أُرسل ثلاثة عشر سنة ، والمدينة عشر سنوات إلى أن مات ، ثم مات عليه الصلاة والسلام ودفن بالمدينة .

قال : ((**بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾**)) هذه الآيات بداية الرسالة وبداية البعثة ، وهي تحمل في مضمونها زبدة الرسالات وخلاصة دعوة النبيين ، فهي تحمل قاعدة الدين وأساسه ، لأنه أول ما بُعث وأُمر بالنذارة ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أول ما بُعث ونزل عليه هذه الكلمات ؛ فهذه الكلمات تحمل في معانيها وطياتها ومضامينها قاعدة الدين وأصله وأساسه وزبدة دعوة النبيين والمرسلين ؛ ولهذا اعتنى الشيخ رحمه الله ببيان معاني هذه الآيات ومضامينها ومدلولها باختصار بما يحتمله هذا المختصر .

قال : ((**ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)) ؛ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي أنذر قومك ، من ماذا ؟ قومه على الشرك على الجاهلية على عبادة الأصنام ، مكة امتلأت بالأصنام ، والبيت الحرام امتلأ أصناماً في داخله وحوله ، امتلأ بالأصنام حتى كسرها عليه الصلاة والسلام بيده يوم فتح مكة ﴿وَقُلْ جَاءَ

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] ، وإلا كانت الأصنام كثيرة محيطة بالبيت من كل جانب؛ تُعبد ويُذبح لها وينذر وتُصرف لها أنواع العبادات ، فأول ما نزل عليه بالبعثة والرسالة : ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي: أنذر قومك من الشرك وأمرهم بالتوحيد ، قال الله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [النساء:١٦٥] ؛ مبشرين بالجنة لمن وحَّد الله ومنذرين من النار لمن أشرك بالله سبحانه وتعالى .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)) ولهذا هذه الكلمة العظيمة التي تتردد على ألسنة المسلمين في صلاتهم وفي أذكارهم «الله أكبر» هذه كلمة تعظيم لله ؛ تعظيم لله بتوحيده وإجلاله سبحانه وتعالى وقدره حق قدره ، ولهذا المشرك لا يكبر الله ، الذي يعبد مع الله غيره لا يكبر الله ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧] ، المشرك الذي يدعو الوثن ويعبد الصنم ويتعلق بغير الله هو لا يكبر الله {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا} أي عظمةً ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح:١٣-١٤] ، فالمشرك الذي يعبد مع الله غيره لا يكبِّر الله، فتكبير الله لا يكون إلا بتوحيده وإخلاص الدين له ، أما المشرك ليس مكبراً ولا معظماً لله ولا يقدُر ربه سبحانه وتعالى حق قدره .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)) أي عظم ربك بالتَّوحيدِ .

((﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ**)) بالحذر منه والتحذير منه وإنذار القوم من الوقوع فيه ؛ وهذا فيه أن أعظم أمرٍ ينبغي على العبد أن يتطهر وأن يتنزه عنه وأن يجانبه وأن يبتعد عنه الشرك بالله سبحانه وتعالى . والشرك أنجس شيء وأوسخه ، والمؤمن مطالب بأن يتنزه عن الشرك وأن يتطهر وأن يبتعد عنه ، قال : (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ .

((﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ **الرُّجْزُ: الأصنامُ**)) ؛ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي أهجر الأصنام ، وكيف يكون هجرها ؟ قال المصنف رحمه الله : ((**وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها**)) هذا هو هجرها الذي أمر به في هذه الآية ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي تركها والبراءة منها ومن أهلها مثل ما قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم:٤٨] وقال : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم:٤٩] ، فلا يتم توحيد العبد حتى يبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعدهم وينابذهم ، وهذا واضح في

الآية ودلالتها عليه ، لا يتم للإنسان التوحيد حتى يهجر الأصنام وأهلها ويجانبهم ويباعدهم ويحاذر منهم ويحذِّر . قال: ﴿وَالرُّجْزَفَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها.

قال : ((**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ**)) يعني منذ نزلت عليه هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ﴾ مضى عشر سنوات يدعو إلى التوحيد ، عشر سنوات كاملات لم يأمر بصلاة ولم يأمر بصيام ولم يأمر بحج ولم يأمر بأيٍّ من العبادات ، عشر سنوات خالصة يأمر بالتوحيد ويحذر من الشرك ، ليس يدعو قومه إلا لـ «لا إله إلا الله» ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، يحذرهم من عبادة الأصنام يدعوهم لترك عبادة الأصنام والبعد عنها ، مضى على ذلك عشر سنوات ، عشرُ سنين يدعو إلى توحيد الله عز وجل أي قبل فرض الصلاة ، الصلاة نعرف مكانتها من الدين وأنها عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، الصلاة لم تُفرض من أول الأمر بل بقي عليه الصلاة والسلام منذ أُرسل عشر سنوات لم تفرض الصلاة فضلاً عن بقية الفرائض التي هي غير الصلاة .

قال : ((**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْرِ**)) بعد أن أتم عشر سنوات داعياً إلى توحيد الله ((**عُرِجَ به إلى السماءِ**)) أُسري بجسده عليه الصلاة والسلام وروحه جميعاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[الإسراء:١] ثم عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، إسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً ثم عروج إلى السماء ، عروجٌ إلى السماء في ليلة واحدة وجاء الصباح عند قومه؛ ما المسافات التي قطعها؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهذه أقصر مسافة قطعها في رحلته تلك ، ثم من المسجد الأقصى عُرج به إلى السماء ، من الأرض إلى السماء الدنيا إلى السماء التي تليها إلى السماء التي تليها حتى بلغ سدرةِ المنتهى عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء في بعض الأحاديث والآثار «أن بين الأرض والسماء خمسمائة سنة ، وثخن كل سماء خمسمائة سنة ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة سنة» ، كل هذه المسافات قطعها عليه الصلاة ولسلام في ليلة واحدة! حتى بلغ سدرة المنتهى فأوحى إليه ربه جل وعلا ما أوحى ، وسمع وحي الله من الله ، وسمع كلام الله من الله ، وأمره بالصلاة خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فرضها عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، خمسين صلاة في اليوم والليلة نزل بها ، فلقيه موسى عليه السلام وسأله فأخبره ، قال : «أمتك لا تطيق هذا، سل الله التخفيف» فرجع وطلب من ربه التخفيف وتردد بين موسى وبين الله كما جاء في الحديث إلى أن خُففت إلى خمس صلوات، وهي خمس بالعمل وخمسون بالأجر ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فنزل عليه

الصلاة والسلام وفرضت عليه الصلوات الخمس وعلى أمته ونزل بهذه الفريضة ؛ هذا بعد عشر سنوات من البعثة ، يعني كان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة ، أتم الخمسين حينئذ فرضت الصلاة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، وكذّبه قومه وسخروا منه وله معهم في هذا وقائع معروفة في كتب السيرة حول الإسراء والمعراج وتكذيب قومه ، وأصبحوا يسخرون منه وجاءوا إلى أبي بكر ﷺ وقالوا إنه يزعم كذا -يريدون تنفيره منه- ، قال : «إن كان قال ذلك فقد صدق» صديق الأمة ﷺ وأرضاه .

فالشاهد أنه نزل بذلك ، ومن عجائب حال بعض أمته أن الصلاة التي هي مفروضة عليهم في اليوم والليلة خمس صلوات لا يهتمون بها ولا يواظبون عليها، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج الذي هو ليس مشروع أصلاً ولا مأمور به ولا دليل عليه لا يفوتونه أبداً!! فالفرض الواجب لا يُعتنى به والأمر المحدث لا يفوّت ولا يضيَّع!! وهذا من سوء الفهم وعدم البصيرة ؛ الصلاة التي هي فرض ، يعني نحن من أعظم ما نستفيده من الإسراء والمعراج فريضة الصلاة والمحافظة عليها وأنها أهم الدين ، يعني الحج فُرض عليه وهو في الأرض ، الصيام وهو في الأرض ، بقية الفرائض وهو في الأرض إلا الصلاة خصّت بأن عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى وسمع الأمر والفرض بالصلاة من الله بدون واسطة ، سمع كلام الله من الله ونزل بها ، ثم يأتي بعض الناس ويضيّعون الصلاة المفروضة!! حتى ليلة الاحتفال بعضهم يحتفل إلى الصباح وينام عن صلاة الفجر ، فالفرض يضيّع والأمر المحدَّث يواظب عليه ولا يضيّع ولا يفوّت! فهل هذا هو الإتباع ؟ وهل هو هذا علامة صدق المحبة للرسول عليه الصلاة والسلام ؟!!

ولهذا يحتاج كثير من الناس إلى أن يعيد النظر في طريقة دراسته للسيرة وطريقة استفادته من هدي النبي ﷺ ، وإلا يحال الدين إلى مواسم للاحتفالات ، هذا يحتفل بالمولد وهذا يحتفل بالإسراء والمعراج وهذا يحتفل بالهجرة وهذا يحتفل .. والفرائض تضيّع والواجبات لا يُهتم بها ، ويصبح الأمر مواسم للاحتفالات . وإذا نظرنا في تاريخ الصحابة والتابعين لهم بإحسان لا نرى فيهم مثل هذه الاحتفالات ؛ وهم أشد الناس حباً للنبي عليه الصلاة والسلام وحرصاً على إتباع هديه والسير على منهاجه صلوات الله وسلامه عليه ، لكنّا نرى فيهم مسارعةً للخيرات ومسابقةً إلى الفرائض والطاعات ومحافظةً على الرغائب والمستحبات ؛ هكذا مضت حياتهم بحسن إتباع وحسن ائتساء وبُعد عن البدع والأهواء .

قال رحمه الله تعالى : ((**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ**)) أي صلى الصلاة المكتوبة المفروضة ثلاثَ سنينَ ((**وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ**)) يعني بعد أن أمضى ثلاثة عشر سنة بعد الرسالة أُمر بالهجرة إلى المدينة ؛ لأنه أوذي في مكة أشد الأذى ، حتى في صلاته وهو عليه الصلاة والسلام يصلي ساجد لله يأتي بعضهم بسلى الناقة ويضعه على ظهره عليه الصلاة والسلام ، أوذي أشد الأذى وتمالؤا على قتله كما تقدم فأذِن الله عز وجل له بالهجرة إلى المدينة .

قال رحمه الله :

والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٩٧-٩٩]، **وقوله تعالى:** ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، **قالَ البَغَوِيُّ رحمهُ اللهُ: «سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ». والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ، ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))** .

****

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام**))؛ لما ذكر هجرة النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة عرَّف الهجرة قال : «والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام»، وأن تكون هذه الهجرة يُبتغى بها رضا الله عز وجل وإتباع رسوله ، ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) ، يعني قد تكون هجرة الإنسان للتجارة لدنيا يصيبها ، أو تكون هجرته للنكاح ، إما أن يهاجر متاجراً أو يهاجر خاطباً ، لكن الهجرة التي تدخل في عمل الإنسان الصالح ويثاب عليها وهو مأمور بها: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ليُخلِص الدين لله وليحقق الإتباع للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ**)) وهذا لا يعارض حديث النبي ﷺ : ((لا هجرة بعد الفتح)) يعني بعد فتح مكة ، لأن المراد بقوله ((لا هجرة بعد الفتح)) أي من مكة لا هجرة من مكة بعد فتحها، أما الهجرة من بلد الشرك عموماً إلى بلد الإسلام فهي باقية إلى قيام الساعة . والبقاء في بلد الكفر والشرك ضياع للدين ، وتضييعٌ للأمانة ، وتضييعٌ للذرية، وتضييعٌ للأهل ، وهدمٌ للعقائد ، وهدمٌ للأخلاق ؛ ولهذا قال : ((وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ

الساعةُ)) قال في الهامش الشيخ عبد الرحمن بن قاسم قال : «باتفاق من يعتدّ به من أهل العلم ، قال شيخ الإسلام : لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله؛ أي البعد عنهم ببدنه وعدم الإقامة بين ظهراني الكافرين المشركين».

قال : **وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** أي بإقامتهم بين ظهراني الكافرين وببقائهم بدول الكفر والكافرين والمشركين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي لِم مكثتم وبقيتم في هذه الأراضي لم تهاجروا؟ ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني عاجزين لا نقدر على الخروج ولا نقدر على الذهاب ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ يعني إلى المدينة ، تخرجوا من الإقامة بين المشركين عبدة الأوثان إلى أرض الله الواسعة إلى المدينة حيث تعبدون الله وتبقون مع أهل العبادة والإيمان والتوحيد!! قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكبٌ كبيرة من كبائر الذنوب ، ولهذا تهدده الله جل وعلا وتوعده بنار جهنم ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ، يستثنى من هؤلاء العاجزين فعلاً الذين لا قدرة لهم ، لا يستطيعون من ضعفة الصغار والولدان والنساء والعجزة ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ هؤلاء مستثنون من هذا الوعيد ، أما الذي عنده قدرة وقوة ومُكنة ولم يهاجر فهو عرضة لهذا الوعيد الشديد الذي جاء في قوله : ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

قال : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يستطيعون حيلة لمفارقة المشركين والانتقال إلى ديار المسلمين ولا قوة لهم على الخروج ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ما يعرفون طريقاً للهجرة ، لو فكّر أحدهم يهاجر ما يحسن ولا يعرف ولا يهتدي للطريق ، ليس بالقوي النشيط المتمكن وإنما هو رجل عاجز كهل مسن ، أو امرأة لا قدرة لها ، أو طفل صغير ؛ فمثل هؤلاء يستثنون ويعذرون ؛ ولهذا استثناهم الله جل وعلا قال : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي يتجاوز عنه هؤلاء المستضعفين الذين لا حيلة لهم ولا سبيل لهم .

قال : ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وختْم الآية بهذين الأسمين فيه دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله ، لأن تقوى الله بالاستطاعة « اتقِ الله ما استطعت » وهؤلاء غير مستطيعين ولا قادرين عاجزين ، فمن كان من أهل الأعذار فمعفوٌ عنه و«عسى» في القرآن واجبة كما قال ذلك أهل العلم . ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله؛ أي كان من أهل الأعذار ، أما من سواهم فإنه عرضة لذلك الوعيد والتهديد الوارد في قوله : ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

قال : ((**وقوله تعالى:** ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾)) أيضاً هذه فيها أمر بالهجرة والانتقال من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وحِّدون وأخلصوا لي الدين في أرضي الواسعة دون أن تبقوا مقيمين بين ظهراني المشركين الكافرين .

ثم نقل عن الإمام البغوي المفسر رحمه الله تعالى في ذكر سبب نزول هذه الآية قال: ((**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جل وعلا باسمِ الإيمانِ**)) ؛ وهذا يفيد أن من لم يهاجر يكون مرتكباً لكبيرة ، لا يكون مرتكباً كفراً ناقلاً من ملة الإسلام ، وإنما يكون مرتكباً كبيرةً من الكبائر وعظيمةً من العظائم يستحق بها ذلك التهديد الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ . وهنا في الآية قال : ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ فهذا يدل على أنهم ليسوا كفاراً لكنهم مرتكبين لكبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم ، وتعرضوا بها لهذا الوعيد وهو دخول جهنم وساءت مصيراً .

قال: ((**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جل وعلا باسمِ الإيمانِ**)) هذه المناداة باسم الإيمان أو {يَا عِبَادِي} كما قدمت دليل على أنهم ليسوا كفاراً ولكنهم مؤمنون ناقصو الإيمان ، مؤمنون مرتكبون لكبيرة من الكبائر ، ومرتكب الكبيرة معرض للوعيد ، وهؤلاء يدل على أن فعلهم هذا كبيرة من الكبائر قوله جل وعلا : ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ؛ لأن التهديد بجهنم أو بسخط الله أو بذكر اللعن «لعن الله من فعل كذا» ، أو أن يقال : «ليس منا»، أو : «لا يؤمن» أو نحو ذلك هذا كله يدل على أن الأمر كبيرة من الكبائر ليس من صغائر الذنوب .

فأفادت هذه الآيات وهذه النصوص أن من لم يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ورضي بالإقامة بين ظهراني الكفار والمشركين مع بقائه على دينه يكون بذلك مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب كما هو واضح في دلالة هذه الآيات وفي كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في معاني هذه الآيات .

قال : ((**والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ**)) ؛ والدليل على أن الهجرة فريضة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام من سنة النبي عليه الصلاة والسلام : ((**قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ»**))

وكيف تجمع بين قوله ((لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ)) وبين قوله في الحديث الآخر ((لا هجرة بعد الفتح)) عرفنا أن المراد بقوله : «لا هجرة بعد الفتح» أي من مكة ، لا هجرة من مكة بعد فتحها لأنها أصبحت دار إسلام ، فلا هجرة من مكة بعد الفتح ، أما من ديار الكفر عموماً فالهجرة باقية وغير منقطعة إلى قيام الساعة ، لا يحل للمسلم أن يبقى بين ظهراني الكفار .

قال : ((**والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**)) ؛ «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ» بمعنى أن الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام باقية إلى أن يأتي الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة ، والتوبة لا تنفع إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ وهذا علامة من علامات الساعة وأمارة من أماراتها الكبار ، فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم جميعاً ، أعلنوا إيمانهم وصرَّحوا بإيمانهم ؛ لكن لا ينفع الإيمان ، إذا طلعت الشمس يفاجأ الناس يوم من الأيام وإذا الشمس تطلع من المغرب! فإذا رأوا هذه الآية الباهرة والعلامة العظيمة من آيات الله يؤمنون ، وهذا يسميه أهل العلم «إيمان مشاهدة» يعني شاهد الآية ، شاهد اختلال الكون وتغيره وشاهد بدأ العلامات العظمى لقيام الساعة فبدأ العالم يتغير وانتظامه بدأ يتغير؛ الشمس بدل أنها من أول الزمان تطلع من المشرق إلى المغرب فتغيب ، يُفاجؤون في يوم من الأيام وإذا بها طالعة من المغرب اتجاهها عكسي من المغرب إلى المشرق ؛ فيرون هذه الآية ويعلنون حينئذ الإيمان يؤمنون ؛ لا ينفع الإيمان . ولهذا العلماء يقولون أخذاً من الأدلة : الإيمان لا ينفع عندما تطلع الشمس من المغرب لأنه إيمان مشاهدة ، ولا تنفع عندما يغرر الإنسان ؛ عندما يعاين الموت ويشاهد الموت وتغرر روحه لا ينفع إيمانه ، مثل إيمان فرعون ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:٩٠] لما أدركه الغرق أعلن هذا الإيمان هذا يسمى إيمان مشاهدة ، الأول مشاهدة الآية التي هي أمارةٌ وعلامة على قيام الساعة، وإيمان الغرغرة أيضاً إيمان مشاهدة للموت ؛ وهذا الإيمان لا ينفع وهذا الإيمان لا ينفع .

الشاهد أن الهجرة باقية مستمرة دائمة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، إذا طلعت الشمس من مغربها وهاجر الإنسان تائباً لا تفيده ، يعني رأى الآية وهاجر لكونه رأى الآية لا تفيده ، أما قبل طلوع الشمس من مغربها فالتوبة بالهجرة مفتوحٌ بابها ، لا يزال باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طبع على كل قلب بما فيه . قال : ((ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين:

فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ؛ مثلُ الزكاةِ، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأذانِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ. أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ، وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ، ودينُهُ باقٍ ، وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منْه. والخيرُ الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ. والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ.

بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة، وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ: الجنِّ والإنسِ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]. **وأكمَّلَ اللهُ به الدينَ والدليلُ قوله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٠٣]. **والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠-٣١].

والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه:٥٥]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧-١٨].

وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ؛ والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]، **ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ، والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٠٧] .

****

فإن المصنف رحمه الله لا يزال يبين ما يتعلق بالأصل الثالث وهو معرفة العبد نبيه ؛ حيث ذكر رحمه الله تعالى فيما سبق شيئاً من أخبار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ذكر نسبه ومولده ونشأته ، وذكر أنه عليه الصلاة والسلام نبئ بـ «إقرأ» وأرسل بـ«المدثر» ، وذكر أيضاً الأذى الذي حصل له من قومه وتمالئهم

على قتله عليه الصلاة والسلام ، وأن الله سبحانه وتعالى أذن له بأن يهاجر إلى المدينة، وأنه عليه الصلاة والسلام هاجر إلى المدينة، ثم تحدث عن الهجرة وأنها واجبة وباقية من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، وذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة . بعد ذلكم أخذ يبين حال النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة حيث استقر عليه الصلاة والسلام في المدينة .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**)) أي أنه عليه الصلاة والسلام في مكة –كما سبق إيضاح ذلك عند المصنف– مضى عشر سنين بعد مبعثه ﷺ لا يدعو إلا شيء إلا للتوحيد ونبذ الشرك ، ولم يؤمر بشيء آخر ولم يوحَ إليه بشيء آخر إلا بالتوحيد ودلائل التوحيد وبراهينه ؛ هذا الذي كان في العشر سنوات الأولى من مبعثه صلوات الله وسلامه عليه . ولما أتم عشر سنوات في الدعوة إلى التوحيد أُمر بالصلاة ، وسبق إشارة المصنف إلى الإسراء والمعراج وأن الصلاة فرضت على النبي عليه الصلاة والسلام فوق سبع سماوات ، وسمع أمر الله سبحانه وتعالى بها من الله مباشرة –ﷺ– ، فالذي فُرض عليه في مكة التوحيد ونبذ الشرك ، ثم بعد عشر سنوات فُرضت الصلاة ثم لم يفرض عليه شيء إلى أن هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام واستقر بها ، بعد ذلكم بدأ يوحى إليه عليه الصلاة والسلام بالفرائض والأوامر الأخرى كما يأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**)) أي لما استقر بالمدينة بعد الهجرة إليها وقوي أمر التوحيد وشاع وانتشر واتضح للناس وابتعدوا عن الشرك ومنّ الله جل وعلا عليهم بالهداية للتوحيد ؛ بعد ثبات التوحيد وتقرير دلائله وحججه وبيناته واتضاح هذا الأمر بعد ذلكم جاءت الفرائض؛ وهذا فيه التنبيه أن الأعمال لا تفيد إلا إذا أرسي أساسها وثُبِّت عمادها ، أما ما لم تكن كذلك فإنها لا تفيد ولا تنفع ، شأن البيت إن لم يبنى على أساس ثابت وعماد راسخ سرعان ما يتهاوى وينهار . ولهذا مكث عليه الصلاة والسلام طويلاً يثبِّت التوحيد ويذكر دعائمه ودلائله وحججه وبراهينه ويرسخ ذلك في الناس ، ثم بعد ذلك جاءت الفرائض؛ لأن الفرائض لو أقيمت على غير أساس لا تفيد ، فهي إنما تكون نافعة إذا أقيمت على أساس ثابت وأصل راسخ ؛ وهو توحيد الله جل وعلا .

ولهذا ينبغي أن يعي الناس ، أن يعي المسلمون هذا الأمر العظيم من سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، يجب أن يعي المسلمون ذلك ؛ عشر سنين كاملات من مبعثه عليه الصلاة والسلام أمضاها في التوحيد فقط والتحذير من الشرك ، ثم بعد ذلك تُفرض الصلاة فقط ويبقى على ذلك الحال وقتاً ، ثم لما استقر بالمدينة وبعد أن استقر بها وقتاً بدأت الفرائض الأخرى كما سيبين ذلك المصنف رحمه الله تعالى . فهذا ينبغي أن يستفيد المسلمون منه درساً عظيماً ألا وهو: العناية بأمر التوحيد والحذر من الشرك والعناية بتثبيته وفهمه ومعرفة دلائله وحججه وبيناته من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثل: الزكاةِ، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**)) هذه الفرائض «الزكاةِ والصّومِ» فرض على النبي ﷺ في السنة الثانية من الهجرة ، و«الحجِّ» فرض عليه صلوات الله وسلامه عليه في السنة التاسعة من الهجرة ، والإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله؛ وهذا هو الأساس أمضى فيه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، ثم بعد ذلك تأتي الصلاة وهي عماد الدين فُرضت عليه بمكة في السنة العاشرة من البعثة ، بعد أن أمضى عليه الصلاة والسلام من بعثته عشر سنوات فُرضت الصلاة ، وبقي أهل الإسلام على هذه الحال توحيد وصلاة ، ثم هاجر إلى المدينة في السنة الثانية من الهجرة فُرض على الناس الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج .

وهذا يبين تفاضل مباني الإسلام في المكانة والمنزلة وترتُّب الأمور في العمل بالإسلام ؛ الآن ترى في الناس من يحج ولا يصلي ولا يعتني بالصلاة! هل فهم الإسلام ؟ الحج لم يُفرض إلا بعد الصلاة بسين عديدة ، كان الأمر توحيد ، الفرض هو التوحيد ونبذ الشرك ، ثم بعد المبعث بعشر سنوات فرضت الصلاة ، وبقي ثلاث سنوات في مكة مفروضةً الصلاة المكتوبة خمس صلوات في اليوم والليلة ، ثم بُعث في المدينة بقي سنتين فهذه خمس سنوات ، ثم بعد ذلك فرضت الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج ، وترى في الناس الآن من يحج ولا يصلي ، حتى في وقت الحج لا يحافظ على الصلاة ولا يعتني بها! هل هذا فهم الإسلام ؟ وأيضاً ترى من يحج ولكن ينقض كل شيء ويهدم كل شيء بالتعلق بغير الله ، والتوجه بالقصد لغير الله ، والالتجاء لطلب الحاجات إلى غير الله من المقبورين وغيرهم؛ يدعوهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويعرض عليهم حاجاته وطلباته من شفاء مريض أو حصول رزق أو كشف غم أو زروال هم أو غير ذلك مما لا يُلجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ فهل فهم هؤلاء الإسلام ؟

ولهذا يحتاج الناس إلى دراسة السيرة دراسة فاحصة ، ومعرفة هدي النبي ﷺ معرفة صحيحة ، وإذا لم يعرفوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يعرفوا سيرته وهديه جهلوا دينهم وضيَّعوه ووقعوا في أنواع من الضلالات والانحرافات ؛ ولهذا يحتاج الناس فعلاً إلى دراسة صحيحة لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتأملٍ في هديه وعنايته ﷺ بالتوحيد والإخلاص ، ثم الصلاة ، ثم هكذا تتدرج أمور الإسلام؛ أول ما بدأ الأمر بالتوحيد ، ثم جاءت الصلاة ، ثم جاءت الزكاة والصيام ، ثم جاء الحج، وهكذا إلى أن نزلت الآية الكريمة : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] .

قال : ((**مثلُ الزكاةِ**)) أي الزكاة المفروضة ؛ وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وسواءً كان الغنى بالمال ، أو كان الغنى بالحرث والزراعة ، أو كان الغنى بامتلاك بهيمة الأنعام؛ فكل هؤلاء يُخرجون

نصيباً من هذا المال الذي أغناهم الله سبحانه وتعالى به من فضله يخرجون جزءً قليلاً وقدراً يسيراً من هذا المال زكاةً تُقدَّم إلى الفقراء والمحاويج ، وتكون بركةً للمال وطهرةً للمزكي وزكاةً له .

قال : ((**والصّومِ**)) أي الصوم المفروض ؛ وهو صيام شهر رمضان ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] ، وهو شهر كامل يصام في السنة ، يصام نهاره من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، يُمتنع في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وغير ذلك من المفطرات طاعةً لله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه ، ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) .

قال : ((**والحجِّ**)) أي وفَرض على الناس الحج ؛ فرض في السنة التاسعة من الهجرة ، والحج: هو قصد بيت الله الحرام لأعمالٍ مخصوصة في وقتٍ مخصوص ، وهو لا يجب على المسلم في عمره كله وحياته جميعها إلا مرة واحدة، ((الحج مرة وما زاد فهو تطوع)) ، ولا يجب إلا على المستطيع ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧] .

قال : ((**والجهاد**)) أي في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصرة دين الله ولكي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

((**والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**)) أي أمر الناس بالمعروف ؛ وهو ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وما أمر به رسوله ﷺ ، ونهيهم عن المنكر؛ أي نهي الناس عما حرم الله وما حرم رسوله ﷺ ، وهذا من الأمور المهمة والعظيمة لقيام الدين ، الدين لا يقوم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يحتاج الناس إلى ذلك وإلا فإن أمور الدين تتقوض والناس تُتخطف ويضِلون عن دينهم ؛ إلا إن أكرمهم الله سبحانه وتعالى ويسَّر لهم بمن يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولهذا حقيقةً فإن الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر صِمام أمان للمجتمع من سخط الله جل وعلا وعقابه ؛ فالناس لا تصلح حالهم إلا بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا تخلى أهل الخير عن ذلك ضاع الناس وتخطفتهم شياطين الجن والإنس ، واعتبر ذلك في البلدان والمناطق التي لا يوجد فيها أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ؛ كيف أن الفوضى تعم تلك المناطق ، والضلال ينتشر فيها ، والباطل يخيم ، ويتسلط فيها دعاة الشر والضلال والفساد .

قال : ((**وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ**)) أي وأُمر عليه الصلاة والسلام بغير ذلك من شرائع الإسلام ؛ من فرائض ونهي عن المحرمات وأمر بالرغائب والمستحبات ، فلازالت الأوامر تنزل والنواهي تنزل تباعاً على رسول الله ﷺ بوحي الله جل وعلا الذي هو القرآن ، وبوحي الله جل وعلا الذي هم سنة النبي عليه

الصلاة والسلام؛ فالقرآن والسنة كله وحي الله وتنزيله ، فلازالت الفرائض تنزل على نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن نزل عليه قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة:٣] ، وسيأتي ذكرها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ**)) أخذ على هذا : يعني على هذه الحال تتنزل عليه الفرائض والأوامر والنواهي والشرائع وهو مستقر في المدينة ﷺ ، يخرج منها لنصرة الدين والذب عن حِماه والدعوة إلى الله ، ويبعث البعوث ويرسل الرسل ويكتب المكاتيب دعوةً لدين الله جل وعلا ونصرةً لهذا الدين . بقي عليه الصلاة والسلام وأخذ على هذه الحال عشر سنين ، عشر سنين إذا ضممت إليها ثلاثة عشرة سنة قبل الهجرة وبعد البعثة ، وأربعين سنة من ولادته إلى أن بُعث يتحصل من مجموع ذلك ثلاث وستون سنة ؛ وهي مدة حياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه . وحياته ﷺ هي أبرك حياة إنسان على الإطلاق ، وأكمل إنسان على الإطلاق في عبودية الله والذل له والقيام بطاعته والدعوة لدينه والنصرة للحق والهدى . أمضى عليه الصلاة والسلام ((أخذ على ذلك عشر سنين)) أي بعد أن استقر بالمدينة .

((**وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ**)) أي بعدها توفاه الله جل وعلا وقبض روحه الشريفة ﷺ ومات ، مات عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام غسلوه وكفنوه وصلّوا عليه أوزاعاً ، ودفنوه في حجرة عائشة رضي الله عنها ؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : ((يُدفن الأنبياء حيث ماتوا)) ومات عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها بين سحرها ونحرها ، ودفن ﷺ في حجرتها .

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام أعظم المصائب وأكبرها على الإطلاق ، وفُجع الصحابة رضي الله عنهم بموته ﷺ ونزل عليهم نازلة لم يمر عليهم في النوازل مثلها ، وحصلت لهم مصيبة لم يمر عليهم في المصائب مثلها ؛ حتى إن بعضاً من أصحاب النبي ﷺ شك في موته وأنكر ذلك ، حتى جاء صديق الأمة أبو بكر الصديق وكشف عن وجه نبينا ﷺ وقبّله ثم قام رضي الله عنه خطيباً في أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وقال رضي الله عنه : «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ؛ مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام قد مات ؛ أي باعتبار هذه الحياة فارق هذه الدنيا، قضى نحبه عليه الصلاة والسلام وانتهت مدته في هذه الحياة ، وهو عبدٌ من عباد الله قبض الله سبحانه وتعالى روحه لما انتهت مدته في هذه الحياة ، قد جاء في حديث قدسي قال الله جل وعلا : ((ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح المؤمن)) فكيف بقبض روح المصطفى ﷺ!! لكن هذه سنَّة الله جل وعلا ماضية في الناس أجمعين ، فقبض الله جل وعلا روحه ﷺ ، وهي أشرف روح قبضت روح نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال أبو بكر ﷺ لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام وقد توفاه الله جل وعلا وقد قُبضت روحه ﷺ وفارق هذه الحياة قال : «بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد متها» أي أنه عليه الصلاة والسلام كتب الله عليه هذه الموتة وأخبره بها في وحي يتلى ولا يزال يقرأ في كلام الله جل وعلا : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] ، فالله جل وعلا كتب عليه هذه الموتة وأخبره بها في آيات تتلى وتقرأ في كلام الله سبحانه وتعالى ، وقبضت روحه فقال أبو بكر ﷺ : «أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها» يشير إلى آيات كثيرة في هذا الباب وفي تقرير هذا المعنى .

ثم قال للصحابة ﷺ تثبيتاً لهم : «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» . وفي هذا من الموعظة ومن البيان أن العبادة ليست إلا للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت ، أو الحي الذي قد مات ، أو الجماد الذي لا حياة له أصلاً ؛ كل هؤلاء لا أحقية لهم في العبادة مطلقاً ، العبادة حق للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين جل شأنه ، قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه ومناجاته لربه كما في صحيحين : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وعليك أنبت وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت ، فأنت الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون» .

فنبينا عليه الصلاة والسلام بعد تلك الحياة العامرة بالجد والاجتهاد والنصرة لدين الله والدعوة إلى الحق والهدى وبلاغ الدين كما أمره الله سبحانه وتعالى به والأمر بالهدى والدعوة إلى صراط الله المستقيم ؛ بعد هذه العمر الحافلة بالخير والحياة المليئة بالجد والنصح والدعوة وبيان الدين ، وهي أعمر حياةٍ وُجدت في العبودية والطاعة لله سبحانه وتعالى بعد ذلك قبضت روحه عليه الصلاة والسلام وفارق هذه الحياة التي هي الحياة الدنيا .

وهو ﷺ كما دلت النصوص ودل الواقع قد مات ؛ وهذا يتلى في القرآن ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ [آل عمران:١٤٤] ؛ فهو باعتبار هذه الحياة الدنيا مات وفارقت روحه جسده ﷺ . ودفن عليه الصلاة والسلام في قبره وهو في المكان لذي دفن فيه من حجرة عائشة ﷺ ، دفن ﷺ بعد أن غسله الصحابة وكفنوه وصلوا عليه أوزاعاً ثم دُفن ؛ أهالوا عليه التراب ، قالت ابنته فاطمة : «أطاب لكم أن تهيلوا على نبيكم التراب؟!» لكنها سنة الله ، سنة الله جل وعلا في البشر أجمعين ، وهي ماضية ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ

﴿إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس:٢١-٢١] ، وقبر الميت ودفنه هو كرامة له ، قبره منة الله سبحانه وتعالى ودفنه وإهالة التراب على الميت هذه كرامة للميت .

الشاهد أن سنة الله سبحانه وتعالى ماضية في عباده وفي خلقه ، وكما قدمت قال أبو بكر ﷺ كلمته العظيمة : «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات» ، ولا يزال الكثير من الضلال الزائغين المنحرفين عن صراط الله المستقيم لا يزالون يصرون على صرف حق الله للنبي عليه الصلاة والسلام ولغيره من عباد الله! يدعونهم ويستغيثون بهم ويطلبون منهم ويعرضون عليهم الحاجات والرغبات والطلبات ، بل بعضهم يرسل المكاتيب إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام : "أريد ولداً ، أريد مالاً ، أريد صحة ، أريد عافية ..الخ" ، «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت» ؛ العبادة والدعاء والرجاء والذبح والاستغاثة والنذر وكل هذه العبادات لا يُتجه فيها ولا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ، أما نبينا عليه الصلاة والسلام فهو عبدٌ لا يُعبد ، بل رسول يطاع ويُتبع ، أما العبادة ليست له ولا جزء يسير منها ولا قليل ، العبادة كلها حقٌ لله . غضب عليه الصلاة والسلام من رجل قال : «ما شاء الله وشئت» قال : ((أجعلتني لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده)) ، لا يرضى عليه الصلاة والسلام أن يُرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها .

فمات صلوات الله وسلامه عليه ، ودفن ﷺ وأهيل على جسمه التراب ، سنة الله جل وعلا ماضية لكن دينه باقٍ ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ودينُهُ باقٍ**)) ؛ ولهذا من أراد لنفسه الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة فعليه أن يتمسك بدينه فدينه باق ، وأما هو عليه الصلاة والسلام قد مات ودفن في قبره وانقطع عمله ، كما قال ﷺ : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) ؛ ولهذا بعد موته عليه الصلاة والسلام لا يستغفر لأحد ولا يدعو لأحد ولا يسأل الغيث لأحد . الصحابة في حياته ﷺ يأتون إليه ويطلبون منه ، يطلبون منه الدعاء ؛ «أدع الله أن يغيثنا» ، «أدع الله أن يغفر لي» يطلبون منه الدعاء ، لكن بعد موته لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان يأتي عند قبره ويقول : "أدع الله لي أو أطلب من الله أن يغفر لي" أو نحو ذلك هذا كله لا يُعرف ، بل جاء في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة ﷺ : ((إن كان ذاك وأنا حي استغفرتُ لك))؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن مات لا يستغفر لأحد .

ولهذا يخطئ بعض الناس ويقرأ الآية وينزّلها في غير بابها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:٦٤] فيقرأون الآية عند قبره ثم يقولون : "استغفر لنا يا رسول الله" !! هذا ليس من الأمور المشروعة ولا كان الصحابة ﷺ يفعلون ذلك إطلاقاً ، هذا كان في حياته ، وسياق هذه الآيات من يقرأها في سورة النساء يجد أنها تتعلق بالمنافقين ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ؛ فيأتي أناس وينزلون هذه الآية بغير بابها ويلغون آيات كثيرة وأحاديث عديدة ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام تجلي هذا المقصود ، ابن عمر رضي الله عنهما الصحابي الجليل كان إذا جاء قبر النبي عليه الصلاة والسلام زائراً لا يزيد على أن يقول : «السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليم يا أبا بكر ، السلام عليك يا عمر أو يا أبتاه» ثم ينصرف .

فسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وحياته المباركة التي هي أبرك حياة ينبغي أن تُدرس وأن تُفقه وأن تجعل موضع اقتداء وائتساء ؛ بدل من أن يحال الدين إلى أنواع من البدع وصنوفٍ من الضلالات وربما أعمالٍ شركيات ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال : ((**ودينُهُ باقٍ**)) أي إلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله جل وعلا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة إلى أن تقوم الساعة)) ؛ فدينه عليه الصلاة والسلام باقٍ وهو محفوظ .

ما هو دينه ؟ قال : ((وه**ذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه ، والخيُر الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاه، والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**)) ؛ هذه خلاصة دين النبي عليه الصلاة والسلام وزبدة ما جاء به ﷺ تجتمع في هذه الكلمات ؛ قال : ((لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه)) ، وقد جاء في حديث صحيح خرجه مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم ، وأن ينذر أمته من شر ما يعلمه لهم)) ؛ وهذا عليه الصلاة والسلام فعله على التمام والكمال ، فبلَّغ البلاغ المبين، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه صلوات الله وسلامه عليه ؛ دلها وأرشدها إلى كل خير ، ونهاها وحذرها من كل شر ، وأعظم الخير وأجلُّه على الإطلاق: توحيد الله ، وقد عرفنا أنه مضى في التوحيد عشر سنوات كاملات ، ثم بعد ذلك مضى داعياً إلى التوحيد وإلى الفرائض الأخرى والشرائع الأخرى التي أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغها .

قال : ((**لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه ، والخيُر الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ**)) التوحيد هو الأساس ، وهو إفراد الله جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له ، أمرهم بالتوحيد وهو أعظم الأوامر وأمرهم أيضاً بالأمور الأخرى قال : ((وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ)) مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة وبر الوالدين وصلة الأرحام والصدق والوفاء والأمانة وكل الأعمال الصالحات التي يحبها الله ويرضاها ظاهرة كانت أو باطنة.

قال : ((**والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ**)) وهو تسوية غير الله بالله ، وجعل الأنداد مع الله يُصرف لهم من الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ، وهو أعظم الذنب وأكبر الجرم وأظلم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] .

قال : ((**والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**)) أي من المعاصي والكبائر والذنوب والموبقات كالقتل والسرقة والزنا والكذب والغش وغير ذلك مما جاء عنه ﷺ النهي عنه والتحذير منه . والذي نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه: كبائر وصغائر ، وأهل العلم كتبوا في ذلك كتابات نافعة، ودائماً في هذا المقام أنصح بقراءة كتاب «الكبائر» للذهبي رحمه الله ، وأيضاً كتاب «الكبائر» للمصنف شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله .

العلماء كتبوا كتباً خاصة في النواهي؛ لأن النواهي يجب على المسلم أن يعرفها ليجتنبها ، كما أنه مطالب بفعل الأوامر ليفعلها ، أما من لم يعرف ما نهى الله عنه وما حرمه الله عليه كيف يتقيه ، وقد قيل قديماً : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!» . حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كما جاء في صحيح البخاري قال : «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» . فمعرفة الشر من أجل توقي الشر والبُعد عنه وعدم الوقوع فيه أمر مطلوب من المسلم ؛ ولهذا ترى الناس عندما يعيشون حياة الجهل يقعون في أنواع من المحرمات ربما لا يدري بعضهم أنها محرمة ، وربما بعضهم لا يري حجم عقوبتها عند الله سبحانه وتعالى ، ولهذا يحتاج المسلم أن يغتنم وجوده في هذه الحياة الدنيا أن يقرأ وأن يعرف الكبائر ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١] ، فمطلوب من المسلم أن يعرف الكبائر وأن يجتنب الكبائر وأن يحذر منها . وأكبر الكبائر الشرك بالله كما قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)) ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أحاديث كثيرة .

قال رحمه الله تعالى : ((**بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة**)) إلى الناس : أي إلى العرب والعجم إلى الذكور والإناث ، إلى الصغار والكبار ، بعثه الله جل وعلا إلى الثقلين ؛ إلى الإنس والجن .

قال رحمه الله تعالى : ((**بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ**)) افترض طاعته ؛ تغير المفهوم عند بعض الناس وتحولت الطاعة إلى عبادةٍ له ، والله جل وعلا افترض على الناس طاعته وإتباع أمره ولزوم ما جاء به ، لا أن يُتخذ نداً مع الله يُدعى ويستغاث به وتصرف له من العبادات ما لا يصرف إلا لله جل وعلا.

قال : ((**وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ الجنِّ والإنسِ**)) وهذا أمر أجمع عليه المسلمون قاطبة؛ أنه عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الثقلين الإنس والجن، ورسالته عامة ، بينما كان الأنبياء قبله يُبعث كل نبي في قومه خاصة ، وبعث النبي ﷺ للناس عامة وللثقلين كافة .

قال : ((**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾**)) وجاءت آيات في القرآن تدل على أن بعثته عليه الصلاة والسلام شاملة للجن ؛ مثل الآية التي في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف:٢٩] إلى آخر الآية والآيات بعدها ، فهو عليه الصلاة والسلام بُعث للثقيلين الإنس والجن ، وافترض على الجميع طاعته ﷺ ، وأخبر أن من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار .

قال : ((**وأكمَّلَ اللهُ به الدينَ**)) ؛ ونزل عليه في ذلك تنصيصاً وتبييناً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] «اليوم» في هذه الآية المراد به يوم عرفة ، لأن هذه الآية الكريمة نزلت على النبي ﷺ عشية عرفة وهو واقفٌ بعرفة ويهلل ويذكر الله ، نزلت عليه الآية هذه في تلك الأثناء وهو واقف بعرفة عشية عرفة؛ نزل عليه قول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، وجاء في صحيح البخاري أن نفراً من اليهود قالوا لعمر بن الخطاب ﷺ : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» ماذا نستفيد من هذه الكلمة ؟ أن اليهود أدركوا عظمة هذه الآية وفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بهذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ؛ فيدركون أن هذه الآية عظيمة جداً ، ولكن ترى في المسلمين من لا يعي هذه الآية! الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ثم يتركون الدين الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام ويعبدون الله ببدع ليست من الدين ، ليس فيها قرآن ولا سنة بل هي محدثة داخلة في قوله عليه الصلاة والسلام : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) ، ولهذا لم يعي هؤلاء هذه الآية وفي هذا قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى: «من قال في الدين بدعة

حسنة فقد زعم أن مُحَمَّداً ﷺ خان الرسالة» لماذا ؟ قال : «لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾» ؛ إذا كان الدين كامل لماذا البدع ؟ ولماذا الإحداث ؟ ولماذا الاختراع ؟ الدين كامل ، الكامل لا يُبحث له عن تكميل ، الذي يُبحث له عن تكميل الناقص ، أما ديننا كامل لا نقص فيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فالدين كامل لا يحتاج إلى مكملات . فالذي يعبد الله سبحانه وتعالى ببدع ليس عليها دليل في القرآن ولا في السنة أين هو من هذه الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؟ ولهذا قال مالك : «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن مُحَمَّداً ﷺ خان الرسالة لأن الله تعالى يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، وما لم يكن ديناً زمن مُحَمَّد صلى اله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة» ، ثم أتم قوله بقوله : «ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» ، وأول الأمة إنما صلحوا بالإتباع لا بالابتداع وبالاتساء ، يقول عبد الله بن مسعود : «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر».

فالشاهد أن نفراً من اليهود قالوا لعمر : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» فقال عمر رضي الله عنه : «إنني أعرف متى نزلت والساعة التي نزلت والمكان الذي نزل فيه على رسول الله ﷺ؛ نزلت عشية عرفة في صعيد عرفة وهو واقف عليه الصلاة والسلام يناجي ربه» ، نزلت عليه هذه الآيات : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ .

بعد هذه الآية التي فيها الإخبار بأن الدين كمُل كم عاش ؟ هذه الآية نزلت عليه في التاسع يوم عرفة من شهر ذي الحجة ، بعدها عليه الصلاة والسلام عاش واحد وثمانين يوماً بعد هذه الآية ، في هذه الواحد والثمانين يوم ما نزلت آيات فيها أحكام ؛ أوامر ونواهي ، أحكام أخرى لم تنزل بعد هذه الآية لماذا ؟ لأن الآية نزلت معْلِمةً النبي عليه الصلاة والسلام بأن الدين كمل تم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ ولهذا عاش بعدها عليه الصلاة والسلام واحد وثمانين يوم لم ينزل عليه فيها أمر ولا نهي ، لم ينزل عليه شرائع وأحكام ، لأن الأحكام اكتملت وتمت في ذلك اليوم المبارك الذي هو سيد الأيام وخير الأيام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة)) يوم عرفة خير أيام الدعاء وأرجى أيام الدعاء ؛ فنزلت عليه هذه الآية وبعدها لم ينزل عليه ﷺ أوامر ونواهي وأحكام .

ثم ترى في الناس بعد ذلك من يطِّرحون هذه الآية ويلغون دلالتها ويشتغلون بالتعبد بالبدع والمحدثات والمخترعات وأمور ما أنزل الله سبحانه وتعالى! هل هؤلاء فهموا هذه الآية ووعوا دلالتها ؟ لا والله ، الذين وعوا دلالة هذه الآية هم الذين تجنبوا البدع ولم يدخلوا في شيء منها ، ولزموا دين الله تبارك وتعالى وتمسكوا

به وحافظوا عليه ولم يحدِثوا شيئاً ولم يخترعوا شيئاً ، مثل ما قال عبد الله بن مسعود قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر» ، ترى في الناس أعمالاً ليست موجودة في القرآن والسنة ، زيادات ليست موجودة إطلاقاً في القرآن والسنة وإذا سألت عن المصدر أحدهم يقول : رأيت في المنام ، والثاني يحكي حكاية ، أو يذكر تجربة، أو يروي ذوقاً ووجداً، أو ينسب إلى شيخ أو طريقة أو غير ذلك ؛ أبمثل هذا يُتعبد الله ؟! وينسى قول الله جل وعلا : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ؟

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أن دين الله عز وجل كمل ، والكامل لا يحتاج أن يكمل ، الذي يحتاج أن يكمل هو الناقص أما دين الله فكمل . ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ؛ وهذه أكبر نعمة الدين وكمال الدين والهداية للدين هذه أكبر النعم وأجلها . قال : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي فارضوه لأنفسكم ولا تقبلوا ديناً غيره ولا ترضوا لأنفسكم ديناً سواه فإنه الدين الذي رضيه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، ولهذا جاء في آية أخرى أن الله يقول : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) هذه تعتبر قضية كبيرة الآن من القضايا الكبار التي جهلها كثير من الناس وضُلِّلت فيها كثير من الأفهام ، وأصبح يغالط الناس في حقيقة يشهد لها القرآن الكريم ويشهد لها أحاديث النبي ﷺ وسيرته وواقع الأمر .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾**)) ؛ «إِنَّكَ مَيِّتٌ» أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ثم توفاه الله جل وعلا لما انتهت مدته التي كتبها الله سبحانه وتعالى له في هذه الحياة ؛ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾**)) أي إنك أيها النبي ستموت . ومات عليه الصلاة والسلام ، وكان ﷺ إذا زار القبور ماذا يقول ؟ «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» . قال : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ .

قال : ((**والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾**)) الضمائر هنا كلها تعود على الأرض؛ «منها» و«فيها» و«منها» الضمائر كلها تعود إلى الأرض.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لأن بني آدم أصلهم من آدم وآدم من تراب ، خلقه الله سبحانه وتعالى من التراب ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي أن كل واحد منكم أيها الناس سيموت ويعاد إلى الأرض أي أنه يدفن فيها

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي أنكم أجمعين سوف تبعثون ؛ تنشق الأرض عمن فيها ويبعثون قياماً لرب العالمين ، مثل هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥] .

قال : ((وقولُهُ تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾)) الإشارة هنا إلى مبدأ خلق بني آدم من الأرض ، لأن آدم عليه السلام من تراب خلقه الله جل وعلا من تراب ؛ هذا معنى قوله : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض ؛ حيث من مات يُدفن في الأرض ويوارى بالتراب .

قال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يعيدكم وتبعثون من القبور وتقومون جميعاً لرب العالمين للجزاء والحساب والعقاب. ولهذا قال رحمه الله : ((**وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ**)) أي بعد بعث الناس وقيام الناس لرب العالمين الكل يحاسب ؛ محاسبون ومجزيون بأعمالهم. قوله : ((محاسبُونَ)) أي على الأعمال حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها ، يحاسبون على الأعمال

((**ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ**)) أي كلٌ يجازى بعمله إن خيراً أو شراً ، سواء قلَّ العمل أو كثر .

قال : ((**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾**)) فالكل مجزي بعمله؛ المحسن يجازى بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، والمسيء يجازى بالعقوبة ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ [الروم:١٠] ، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨] .

قال : ((**ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ**)) أي من زعم وادَّعى أنه لا بعث وليس هناك جزاء وحساب وقيام بين يدي رب العالمين من كذَّب بذلك فهو كافر .

((**والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾)) أي أن الكفار أنكروا البعث وأنهم يبعثون ويقومون للحساب ويجازون على الأعمال

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي تُخبرون بأعمالكم كلها محصاة عليكم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيّن وسهلٌ وليس بعسير بل هو يسير على الله تبارك وتعالى .

﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ «بلى وربي» هذا قسم وحلف بالله أمره الله سبحانه وتعالى به ، أمره أن يقسم بالله جل وعلا على البعث . وفي القرآن آيات ثلاثة فيها قسم النبي ﷺ وحلفه على البعث:

١. منها هذه الآية .

٢. والآية الثانية هي قول الله تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣] .

٣. والثالثة قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]

فهذه ثلاث آيات في القرآن كلها يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يقسم بالله على هذه الحقيقة ؛ وهي أن الساعة آتية ، وأن الناس يبعثون ، وأنهم سيقومون بين يدي رب العالمين ، وأنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وهذا الجزاء والحساب والقيام بين يدي رب العالمين المذكور في هذه الآيات وفي غيرها أمرٌ سندركه جميعاً وسنلقاه وسنقف جميعاً بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسب العباد على أعمالهم ؛ ولهذا الكيّس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وعلى كل عاقل أن يدرك أن الآخرة مقبلة وأن الدنيا مدبرة ، وأن الآخرة لها أبناء وأن الدنيا أيضاً لها أبناء ، وأن الواجب على العاقل أن يحرص أن يكون من أبناء الآخرة الباقية ولا يكون من أبناء الدنيا الفانية ، وأن يعلم أن هذه الحياة ميدان للعمل ، فيها عمل ولا حساب ، ويوم القيامة فيه حساب ولا عمل ؛ فينبغي أن يعِد للحساب عدَّته ، وأن تكون العدة هي الإخلاص لله جل وعلا والإتباع للرسول ﷺ ، يجاهد ويرابط ويسأل الله جل وعلا أن يثبته على الحق والهدى إلى أن يلقى الله جل وعلا وهو راض عنه .

وآيات الحج – كما أشرت – ختمها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:٢٠٣] ؛ فإذا علمت واستيقنت واستحضرت أنك ستُحشر ، وأنك ستلقى الله سبحانه وتعالى ، وأنك ستفارق هذه الحياة الدنيا ، تفارق الأولاد ، تفارق التجارة ، تفارق الأموال تفارق كل شيء ، وأنه لن يدخل معك في قبرك من دنياك إلا عملك ؛ أما الأولاد لا يدخلون ، الجيد من أولادك التي يأتي معك إلى القبر ، والآن يوجد من بعض الأولاد من لا يأتي مع والده عند قبره من العاقين ، منهم من لا يأتي معه حتى عند قبره ، فالجيد من الأولاد من يأتي مع والده إلى قبره ويشارك في دفنه وتشييعه ويدعو له ((أو ولد صالح يدعو له)) ، وأما تجارتك وأموالك وبيوتك إلى آخر ذلك كل هذا بمجرد ما تخرج روح الإنسان من جسده تنتهي هذه الأمور في حقه ولا يكون مالكاً منها شيء، ولا يأتي معه في الآخرة منها شيء كلها يفارقها ، لو كانت ريالاً واحداً أو كانت ملايين الريالات ؛ يستوي الغني والفقير ، والملك والمملوك ، والرئيس والمرؤوس ، والتاجر وغير التاجر ، كلهم إذا خرجت أرواحهم من أجساهم لم يصبح معهم مما يمتلكون شيء من أمور الدنيا ، بل لا يدخل معه من أملاكه من أمور الدنيا إلا الكفن ، والكفن بعد أيام يبلى تأكله الأرض ما يبقى معه ، يبلى وتأكله الأرض ويبقى بدونه ، ولا يدخل مع الإنسان في قبره إلا العمل ، وهو قبره يأتيه عمله الصالح؛ إن كان عملاً صالحاً يأتيه كما جاء في الحديث بصورة رجل صالح فيقول : من أنت ؟ وجهك لا يأتي إلا بالخير ، يقول : أنا عملك الصالح . والعمل السيئ يأتي بصورة رجل سيء ويتأذى الإنسان منه في قبره ، لكن فات الفوات ولا ينفع الندم ، والعاقل يستعد .

من جميل ما يذكر ويؤثر ويستفاد به جداً وينتفع : أن احد السلف أراد أن يعظ رجلاً مقصراً ؛ فأخذه إلى المقابر وأشار له إلى أحد القبور وقال له : لو كنت مكان هذا الرجل في القبر ماذا تتمنى ؟ قال : والله لو كنت مكانه لتمنيت أن يرجعني الله سبحانه وتعالى للدنيا حتى أغيّر حالي وأعمل صالحاً غير الذي أعمله الآن،، قال : يا هذا أنت الآن فيما تتمناه ، أنت الآن عندك الفرصة؛ أعمل وأصلح نفسك وغيّر حالك واستعد للقاء ربك جل وعلا قبل أن تُدخل في القبر ثم تكون هذه أمنية لكن لا يمكن أن تتحقق لك . إذا دخل الإنسان القبر ودُفن ما يمكن أن يُرجع إلى الدنيا ليصلح حاله ، قال : أنت الآن فيما تتمناه ؛ ولهذا يغتنم الإنسان فرصة وجوده في هذه الحياة ، روحه في جسده يستطيع يذكر الله ، يوحد الله ، يعبد الله ، يصلي ، يصوم ، يجتنب المحرمات والمنهيات ، يجاهد نفسه على الصلاح والتقى والعبادة لله تبارك وتعالى وربه جل وعلا راض عنه .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع عشر

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله – صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ **، وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلَّم ، وهو خاتم النبيين ، والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى:** ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ **وكل أمة بعث الله إليها رسولا من نوح إلى مُحَمَّد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت . والدليل قوله تعالى :** ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ **، وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . قال ابن القيم رحمه الله: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . والطواغيت كثيرة ، ورؤوسهم خمسة : إبليس ـ لعنه الله ـ ، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى:** ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ **وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، وفي الحديث: ((رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)) .**

والله أعلم ، وصلى الله على مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم .

****

قال المصنف رحمه الله تعالى وغفر له : ((**وأرسل الله جميع الرسلِ مبشرينَ ومنذرين**)) بيّن هنا رحمه الله اتفاقَ جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم على البشارةِ والنذارة ؛ البشارةِ بالتوحيد والنذارةِ من الشرك ، البشارةِ بالجنة وثواب الله لمن عمل بالتوحيد وكان من أهله ، والنذارة من النار لمن كان من أهلِ الشرك الناقضين للتوحيدِ الناكثينَ للإيمان . قال : ((وأرسل اللهُ جميع الرسل مبشرين ومنذرين)) ثم ذكر الدليلَ على ذلك قال :

((**والدليلُ قوله تعالى** : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾)) أي بعث الله سبحانه وتعالى الرسل للبشارةِ والنذارة ، مبشرين الناس ومنذرينهم ، يبشرون الناسَ بالجنة لمن عملَ بعمل أهل الجنة ، ورأسُ عملِ أهل الجنةِ توحيد الله ، ومنذرين من النار ومن العمل بعمل أهل النار ، ورأس أعمال أهل النار الشرك بالله جل وعلا .

قال : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي لئلا يقولَ الناس يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[المائدة:١٩] ، فالله سبحانه وتعالى أقام الحجة وأبان المحجة وأضح السبيل ببعثة رسله وأنبياءه عليهم صلوات الله وسلامه ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] .

قال : ((**وأولهم نوحٌ عليه السلام ، وآخرهم محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم**)) أولُ الرسل أي إلى أهل الأرض هو نوحٌ عليه السلام ، وذكر المصنف رحمه الله تعالى الدليل على ذلك ، ذكر الدليل على أن أولَ رسولٍ إلى أهل الأرض هو نوحٌ عليه السلام وهو قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ كما أوحينا إلى أولهم ثم توالوا بعده وبُعثت الرسل تترا بعده ، فكان هو أولهم ، ولهذا قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾، وجاء في الصحيحين في ذكر حديث الشفاعة الطويل أن الناسَ يوم القيامة يأتون نوحاً عليه السلام ويقولونَ له : ((أنت أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض)) والحديث في الصحيحين . فهذا مع الآية الكريمة التي ساق المصنف رحمه الله تعالى فيهما الدليل على أن نوحاً عليه السلام هو أولَ رسولٍ .

ثم ختموا بمحمد عليه الصلاة السلام كما قال المصنف هنا ((**وآخرهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلَّم**)) ؛ والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:٤٠] ، وجاء في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال : ((لا نبي بعدي)) ؛ فبه عليه الصلاة والسلام خُتمت النبوات فلا نبي بعده صلوا ت الله وسلامه عليه .

أولهم نوحٌ وآخرهم مُحَمَّد ﷺ، وبين هذين الرسولين بُعث عددٌ كبيرٌ من المرسلين ، جاء في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا العدد وحسَّنه بعض أهل العلم ، وهو ما رواه ابن أبي حاتم وغيره من حديث أبي ذر ﷺ قال : «قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟» أي كم عدد الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى؟ قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً)) ، قلت : «يا رسول الله كم الرسل منهم؟» لأن القاعدة عند أهل العلم: أن كل رسولٍ نبي ، وليس كل نبيٍ رسولا ، ولهذا قال أبو ذر ﷺ «كم الرسل منهم؟» يعني كم عدد هؤلاء الرسل

من الأنبياء ؛ لأن كل رسول نبي وليس كل نبيٍ رسول ، قال : كم عدد الرسل منهم ؟ قال : ((ثلاث مائة وثلاثة عشر جمٌ غفير)) . فإذاً بعث الله عز وجل النبيين والمرسلين رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهم كما جاء في الحديث جمٌ غفير ، وعدد كثير ، إقامةً للحجة وإزالةً للمعذرةِ وإبانةً للسبيل .

قال : ((**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى مُحَمَّد يأمرهم بعبادةِ الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾**)) ؛

وهنا يقرر رحمه الله تعالى اتفاق دعوة النبيين على الدعوة إلى التوحيد والتحذيرِ من الشرك ، فكلمةُ النبيين في هذا واحدة ولا خلافَ بينهم ، فهم دعاةٌ إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ، وإلى التحذير من الشرك والبراءة منه ومن أهله ، فهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين النبيين وكلمتهم فيه واحدة ، والدليل كما قال المصنف قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي أن الرسل كُلَهم دعاةٌ إلى عبادة الله سبحانه تعالى وهي توحيده ، وإلى نبذ الطاغوت وهو الشركُ والكفرُ به سبحانه وتعالى كما سيأتي إيضاحٌ لذلك وبيان عند المصنف رحمه الله تعالى.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تقرر هذه الحقيقة وتجلي هذا الأمر ، كقول ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] ،وقوله سبحانه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف:٤٥] ، كذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحقاف:٢١] ﴿خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾أي من أمامه ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي قبله ، اتفقوا كلهم على هذا الأمر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾الذي هو إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى والتحذير من الإشراك به سبحانه وتعالى .

ولهذا جاء في القرآن الكريم عند ذكر قصص الأنبياء أن أول شيءٍ يبدأ به الأنبياء أقوامهم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى هو ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فهذه الكلمة هي أولُ كلمةٍ يسمعها الأقوام من الأنبياء ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ؛ فكلمةُ الأنبياء واحدة ، فكلهم دعاةٌ إلى توحيد الله جل وعلا وإخلاص الدين له ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : ((نحن الأنبياء أبناء علات ، ديننا واحد وأمهاتنا شتى))؛ «ديننا واحد»: أي عقيدتنا واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله

سبحانه وتعالى وإخلاص الدين له ، «وأمهاتنا شتى»: أي شرائعنا مختلفة ، لأن الشريعة والأحكام قد تختلف من نبي إلى آخر ، كما قال الله سبحانه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] ، أما التوحيد فالأنبياء كلمتهم فيه واحدة ، العقيدة الكلمة فيها عند الأنبياء واحدة ليس بينهم خلافٌ في شيءٍ من هذا .

قال : ((**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى محمدٍ؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت**)) ؛ لاحظ أن دعوة الأنبياء كلهم قائمة على أمرٍ ونهي ، يأمرهم وينهاهم ، كل نبي يأمر وينهى ، يأمرهم بالتوحيد ، وينهاهم عن الشرك أو ينهاهم عن الطاغوت . وهذا يُعلم به أن أمر الإنسان ودينه وأعماله وجميع طاعاته لا تستقيم إلا إذا بُنيت وأسست على هذا الأمر والنهي؛ الأمر بعبادة الله، والنهي عن عبادة الطاغوت ، أي أن يكون موحداً لله في عبادته ، بريئاً من الشرك وعبادة الطاغوت ، فإن لم يكن فيه هذان الأمران لم يُقبل له عمل ولم ينتفع بطاعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦] . وهذا يبين لنا المكانة العظمى والمنزلة العليّة للتوحيد والإخلاص والبراءة من الشرك ، وأنهما لهذا الدين بمثابة الأساس والأصل الذي يقام عليه دين الله سبحانه وتعالى .

وهنا أنقلُ كلاماً عظيماً نافعاً للشيخ عبد الرحمن بن قاسم في حاشيته على الأصول الثلاثة؛ قال رحمه الله: «وبه تعرف عظمة شأن التوحيد ، ومعرفتك عظمته بأن تَصْرف همتك إليه وإلى معرفته والعمل به غاية جهدك ، وإلى معرفة ما يضاده وما سواه من أنواع العلوم الفرعية بعد ذلك -أي يؤتى بها بعد أن يؤتى بالأصل والأساس الذي تبنى عليه الأعمال- فيهتم الإنسان غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالاً قبل الواجب من الفروع؛ الصلاة والزكاة وغير ذلك ، فلا تصلح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل ، فلابد من معرفة أصل الدين إجمالاً ثم معرفة فروعه تفصيلاً ، وفي حديث معاذ لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له : ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادةَ أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلة))» تنبه قال : «إن هم أطاعوك لذلك» يعني إن هم أطاعوك للتوحيد فأعلمهم بأمر الصلاة- وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به ، فلا يدعوهم للصلاة -لأنهم لو صلوا بدون التوحيد لا تفيد الصلاة ، نرجع للحديث مرة ثانية قال ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) ثم قال: ((فإن هم أطاعوك)) ، مفهوم الحديث: أنهم إن لم يطيعوك في التوحيد لا تعلمهم بالصلاة ؛ لأنك لو أعلمتهم بالصلاة وصَّلوا بدون التوحيد الصلاة لا تنفعهم ؛لأنها قائمة على غير أصل ، ومبنية على غير أساس.

قال : «وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة لا تنفع ولا غيرها بدون التوحيد ، فإنه لا يستقيم بناءٌ على غير أساس ولا فرعٌ على غير أصل، والأصلُ والأساس هو التوحيد ، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام ؛ فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر التوحيد بنحو عشر سنين –وهذا سبق أن مرّ معنا– ومما يبين أن التوحيد هو الأصل كونه يوجِد من يدخل الجنة ولم يصل ركعةً واحدة ، وذلك إذا اعتقد التوحيد وعمل به ومات متمسكاً به ، كأن يُقتل قبل أن يصلي أو يموت –ممكن شخص يدخل الجنة وليس عنده إلا التوحيد ، ليس عنده صلاة ولا صيام مثل أن يُدعى إلى الإسلام ويبيَّن له الإسلام فيعلن إسلامه أشهد أن لا إله إلا الله وان مُحَمَّداً رسول الله ثم يُقتل أو يموت فهذا يدخل الجنة– والصلاة لا تنفع وحدها ولو صلى وزكى وصام إذا لم يعتقد التوحيد – وبذلك يُعرف عِظم شأن التوحيد– وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به ، وما دخل الشيطان على من دخل ولا مزّق عقول من مزّق ولا وقع ما وقع إلا من آفة قولهم "يكفي النطق بالشهادتين ومجرد المعرفة" حتى إن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلاً ، ولذلك لكونهم ابتلوا بالشرك وعبادة الأوثان وكثرة الشبهات الباطلة ، فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدَّعي العلم لعدم المعرفة به ، وإلا فمعرفة التوحيد والشرك من أهون ما يكون وأسهله إجمالاً كما في زمن الصحابة فإنهم كانوا يعرفون التوحيد والشرك ، فمن قال لا إله إلا الله يترك الشرك ويعلم أنه باطلٌ منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥] ، وأما حين كثرت الشبهات صعب معرفة التوحيد والتخلص من ضده وكثر النفاق وصار الكثير يقولها –أي يقول كلمة التوحيد لا إله إلا الله– ويعبد مع الله غيره فالله المستعان» أ.هـ

هذا كلام عظيم في بيان أهمية التوحيد ومكانته العظمى وأن أمر التوحيد واضح وشأنه بيّن ، لكن لما وُجدت في بعض المجتمعات ترويج الشبهات الضالة والأهواء الباطلة أُبعِدت العقول عن صفاء التوحيد ونقاء الإيمان إلى ضلالاتٍ وشركيات وأباطيل ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، وأصبح يوجد من يقول «لا إله إلا الله» ولكنه لا يقوم بحقيقة هذه الكلمة من الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى والبراءةِ من الشرك ، بل في اللحظة الواحدة تسمعه يقول «لا إله إلا الله» ومباشرة بعد كلمة لا إله إلا الله يستغيث بغير الله ويطلب مدده أو شفائه أو صلاحه وهداية ولده من غير الله تبارك وتعالى!! فأين هؤلاء من نور هذه الكلمة وضياء التوحيد وسنا الإيمان الذي تدل عليه هذه الكلمة العظيمة المباركة؟ .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**)) ؛ ومرّت معنا الآية في أن هذا هو زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

قال : ((**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**)) افترض عليهم : أي أن هذا الأمر الذي هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فرضٌ لازم وواجبٌ متعين وأمرٌ متحتم على كل مسلم ومسلمة ، ولا سعادة ولا نجاة من النار ولا فوز برضا الله سبحانه وتعالى إلا بتحقيق هذا الأصل ، ولهذا قال الله تعالى بعد آية الكرسي ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]أي استمسك بالتوحيد وبالدين الحق. الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هذان فرضان متحتمان ؛ افترض الله على العباد أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله .

ما هو الكفر بالطاغوت؟ وما هو الإيمان بالله ؟

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في بعض رسائله: «صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادةِ غير الله وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم» هذه صفة الكفر بالطاغوت . قال رحمه الله: «ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبودُ وحده دون من سواه وتخلص جميعَ أنواع العبادة كلها له وتنفيها عن كل معبودٍ سواه ، وتحبَ أهل الإخلاص وتواليهم ، وتبغضَ أهلَ الشركِ وتعاديهم» هذا معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

ثم نقل المصنف رحمه الله نقلاً مفيداً في هذا الباب عن الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ، والنقل من كتبه إعلام الموقعين ، نقل عنه أنه قال : ((**الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع**)) هذا تعريف الطاغوت ، والكلمة في أصلها مشتقةٌ من الطغيان ، الطغيان: تجاوز الحد ، فالطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . «من معبودٍ» إذا تجاوز الإنسان حده في مخلوقٍ من مخلوقات الله فجعله معبوداً مع الله يصرف له العبادات من دعاء أو رجاء أو يذبح أو غير ذلك من أنواع العبادة ؛ كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو «متبوعٍ» أي في معاصي الله سبحانه وتعالى أو في ما حرم ، أو «مطاعٍ» من دون الله في التحليل والتحريم في أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله . وابن القيم رحمه الله لما ذكر هذه الأمور الثلاثة في تعريف الطاغوت قال : «فإذا تأملت طواغيت العالم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة» ، قوله «إذا تأملت طواغيت العالم» هذا إشارة إلى أن الطواغيت كثيرون لكن هذه الثلاثة تجمع ، ولا يخرج كل طاغوت في العالم عن هذه المعاني الثلاثة وهي الواردة في قوله : ((ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع)) .

قال رحمه الله : ((**والطواغيت كثيرة**)) أي عددهم كثير؛ لأنك إن تأملت كلام ابن القيم السابق يفيد هذا المعنى يفيد كثرة الطواغيت .

قال : ((**ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله**)) أول هؤلاء الطواغيت وأشرهم وأعتاهم وأكثرهم طغياناً إبليس لعنه الله ؛ فهو أشد الطواغيت، لأنه الداعية الأول للشرك ولعبادة غير الله سبحانه وتعالى ﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[مريم:٤٤] ، فالشيطان الداعية الأول وأكبر الدعاة إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ يدعو إلى أمورٍ كثيرة ، لكن أهم شيءٍ يدعو إليه ويجِدُّ ويجتهد في نيله ويحرّص جنوده عليه الشرك بالله سبحانه وتعالى وعبادة الطواغيت .

قال : ((**ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راضٍ**)) من عُبد بالدعاء والذبح والنذر والرجاء وغير ذلك وهو راضٍ ، أما من يُعبد وهو ليس راضٍ لا يكون طاغوتاً ، وعبادته طغيان ممن عَبد غير الله سبحانه وتعالى لأنه تجاوزُ للحد ، كفرٌ بالله سبحانه وتعالى ، لكن من عبد من دون الله وهو غير راضٍ مثل عيسى عليه السلام عُبد من دون الله وهو غير راض ، وعزير عليه السلام عُبد وهو غير راض ، الملائكة عُبدت وهي ليست راضية ، فكل من عُبد من ملكٍ أو نبي أو ولي من الأولياء من دون الله سبحانه وتعالى فليس داخلاً في الباب ، فالطاغوت: من عُبد من دون الله وهو راضٍ بأن يُعبد ، مقرٍّ لهذا الأمر غير منكرٍ له ، والملائكة والأنبياء وأولياء الله عز وجل الصادقين كلهم يبرؤون ممن عبدهم ، ويعلنون البراءة بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة من هؤلاء ؛ لأنهم ليسو راضين عن ذلك ، حتى نبينا عليه الصلاة والسلام يبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك ؛ لأن العبادة حقٌ لله ، لا يُدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا يُصرف شيء من العبادة إلا لله سبحانه وتعالى ؛ فكما أن ربنا عز وجل تفرد بخلق الخلق فالواجب أن يُفرد وحده سبحانه وتعالى بالعبادة فلا يُجعل معه شرك لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عن غيرهما ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

قال : ((**ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه**)) أيضاً طاغوت؛ من دعا الناس إلى عبادة نفسه فهو طاغوت ، حتى وإن لم يعبده ، حتى وإن لم يعبده ولا واحد من الناس فهو طاغوت ؛ طالما يدعو الناس إلى عبادة نفسه ويريد منهم أن يعبدوه أو يصرفوا له شيئاً من العبادة أو يعطوه شيئاً من حقوق الله أو خصائصه فهو طاغوت ، حتى وإن لم يقبلوا منه ، حتى وإن لم يجد من لم يقبل منه ذلك فهو من الطواغيت . مثل أن يدَّعي للناس أنه يعلم الغيب هذا طاغوت حتى وإن لم يصدقه أحد ، وكذلك من يريد من الناس أن يعبدوه

أو يعلِّقوا حاجاتهم به أو يريد أن تصرف له أشياء من حقوق الله وخصائصه هذا من الطواغيت حتى وإن لم يقبل منه أحد .

قال : ((**ومن ادعى شيئاً من علم الغيب**)) أيضاً فهو من الطواغيت ؛ مثل السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجِّمين والرمَّالين ومن يزعمون القراءة في الكف إلى آخره ، كل من ادَّعى علم الغيب فهو من الطواغيت ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] . فعلم الغيب أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى به ، فمن ادَّعى ذلك لنفسه فهو من الطواغيت ؛ لأن هذا من تجاوز العبد للحد ، فعلم الغيب لله ، فإذا ادَّعاه أحد الناس أو أحد المخلوقين لنفسه يكون بذلك طاغوتاً لأنه تجاوز بذلك الحد .

قال : ((**ومن حكم بغير ما أنزل الله**)) أي ترك أحكام الله وشرعه وتنزيله وسنَّ في الناس أحكاماً وقوانين وضعية من وضع البشر فنبذ حكم الله جل وعلا واستبدل به أحكام البشر وقوانين البشر والأمور التي وضعها البشر ، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] ، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] ، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] .قال : ((ومن حكم بغير ما أنزل الله)) .

لما ذكر هذه الرؤوس الخمسة للطواغيت ذكر رحمه الله الدليل على أن الإيمان والتمسك بالدين حقاً وصدقاً لا يكون إلا بالكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، قال : ((**والدليل قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾** [البقرة:٢٥٦]))

قوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا تكرهوا أحداً عليه ؛ لأنه استبان أمره واتضح وظهر وبان ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يُكره أحدٌ عليه . وقيل إن هذه الآية كانت في ابتداء الأمر ثم نُسخت بالآيات التي فيها الأمر بالقتال.

قال : ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ؛ تبين الرشد من الغي: أي تميز الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، والهدى من الضلال ؛ أي بالآيات البينات والحجج الواضحات والدلائل الساطعات التي جاء بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي أخذ وتعلق بالمعتصَم الذي لا ينفصم ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي اعتصم بالمعتصَم الذي من تمسك به نجا ومن لم يتمسك به هلك . وهذا فيه أنه لا نجاة ولا عصمة لأحد ولا سلامة إلا بهذين الأمرين: الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .

قال : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ومعنى استمسك بالعروة الوثقى: أي استمسك بـ«لا إله إلا الله» ، فلا إله إلا الله هي العروة الوثقى ، ولا يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» إلا بتحقيق ما دلت عليه هذه الكلمة العظيمة من النفي والإثبات ، والنفي هو الكفر بالطاغوت ، والإثبات هو الإيمان بالله ؛ وبهما يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً ، أما بمجرد النطق لهذه الكلمة دون تحقيق ما دلت عليه من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فإن الإنسان لا يكون بمجرد ذلك من أهل هذه الكلمة العظيمة.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى –وهذا تقعيدٌ نافع وتأصيلٌ مفيد– يقول رحمه الله : «كل اسمٍ عُلق بأسماء الدين من إسلام أو إيمان أو غيرهما إنما يثبت لمن اتصف بتلك الصفة الموجبة لذلك»؛ أي أن مجرد الادِّعاء أو مجرد الانتماء بدون تحقيق الاتصاف بما يقتضيه ويوجبه لا يكون من أهل ذلك الوصف ، فلو قال : إني مسلم ولا يستسلم! أو قال إني مؤمن ولا يقر ولا يصدق! أو غير ذلك لا يكون من أهل هذه الألفاظ وان ادَّعاها لنفسه ، فإذًا ليست العبرة بالدعاوى وإنما العبرة بالحقائق .

ثم قال رحمه الله : ((**وفي الحديث: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**)) «رأس الأمر الإسلام» أي توحيد الله سبحانه وتعالى وتحقيق الشهادتين ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ، فهذا هو رأس الأمر . والأمر كله يُبنى على هذا الرأس وعلى هذا الأساس ، فإذا لم يكن هذا الأساس قائماً لا يُستفاد كما تقدم من صلاة ولا من غيرها من الأعمال ، فلابد من إقامة الدين على هذا الأصل العظيم والأساس المتين .

قال ((**وعموده الصلاة**)) وهذا فيه بيان مكانة الصلاة من الدين وأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وجعلها بمكانة عليّة من الدين بحيث إنها للدين بمثابة العمود للخيمة ، ومن المعلوم أن العمود الذي تقوم عليه الخيمة إذا نُزع سقطت ولم تقم لها قائمة ، لا تقوم الخيمة إلا بعمودها ، وهذا فيه دلالة على كفر تارك الصلاة ، قال عليه الصلاة والسلام : ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ فمن تركها فقد كفر)) ففيه دلالة على كفر تارك الصلاة ، لأن الصلاة للدين بمثابة العمود للبنيان أو العمود للخيام ، فكما أن البناء أو الخيمة لا تقوم إلا على عمود فكذلك الإسلام لا يقوم إلا على هذا العماد . قال : ((وعموده الصلاة)) ومن لم يصلِّ لا حظ له في الإسلام ، وأخذاً من هذا الحديث وغيره قال أهل العلم : «من أراد أن يعرف

حظه من الإسلام فلينظر إلى حظه من الصلاة» . الصلاة ميزان يستطيع الإنسان أن يعرف من خلالها حظه من الإسلام ، والإسلام يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، وإذا أردت أن تعرف الميزان في ذلك فعندك ميزانٌ ومحكٌ دقيق وهو الصلاة ، يستطيع الإنسان يزن نفسه من خلال الصلاة واهتمامه بها ، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون في أمر الصلاة تفاوتاً عظيماً .

قال: ((**وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**)) ذروة الشيء: أعلاه وأرفع شيء فيه ، وسمي سنام البعير سناماً لارتفاعه وعلوه ولأنه أعلى شيء في البعير وأرفعه . وعدّ النبي ﷺ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام لأن الجهاد له في الدين المكانة العليّة والمنزلة الرفيعة .

والنصوص في فضل الجهاد ومكانته وعظيم ثواب أهله عند الله سبحانه وتعالى كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، والمراد بالجهاد: أي الجهاد الشرعي المبني على أسسٍ قويمة وقواعد مستقيمة مستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ . أما الاعتداء والظلم والبغي والخروج على ولاة الأمر ونحو ذلك مما يسميه بعض الناس جهاداً هذا ليس من الجهاد في شيء ، وفاعله لا يؤجر بل يؤزر، ولا يكون من المجاهدين ؛ لأن الجهاد أمرٌ شرعي جاء بيانه في الكتاب والسنة، فلا يُفعل إلا في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، أما أن يركب الإنسان رأسه ويحمل سيفه أو سلاحه ويمضي قتلاً وظلماً وعدواناً بغير بينةٍ ولا معتمدٍ ولا مستمدٍ من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه فليس فعله جهاداً ولا هو أيضاً من المجاهدين في سبيل الله .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى أنهى هذه الرسالة العظيمة المباركة وختم هذه النبذة الطيبة بقوله ((والله أعلم)) بردِّ العلم إلى الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ، وأحصى كل شيءٍ عدداً ، ووسع كل شيءٍ علماً؛ فردَّ العلم إلى عالمه ، ثم ختم بالصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

ونسأل الله عز وجل العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزي هذا الإمام وغيره من علماء المسلمين وأئمة الدين عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء ، وأن يرفع درجاتهم في عليين ، وأن يغفر لنا ولهم أجمعين . وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .